الكتاب: النظرات حول الإعداد الروحي
المؤلف: الشهيد حسن معن
الجزء:
الوفاة: معاصر
المجموعة: الأخلاق
تحقيق:
الطبعة:
سنة الطبع:
المطبعة:
الناشر:
ردمك:
ملاحظات:

بسم الله الرحمن الرحيم

نظرات حول الاعداد الروحي

تأليف

الشيخ الشهيد حسن معن

نظرات حول الإعداد الروحي
مقدمة بقلم سماحة الشيخ محمد مهدي الآصفي

بسم الله الرحمن الرحيم

إن أكثر ما نحرص عليه – خلال الزوبعة الفكرية – التي نجتازها هو أن نأخذ الفكر الاسلامي نقيا ومن منابعه الأصيلة وعلى يد علماء امناء على دين الله تعالى.

ولم ينل أعداء الاسلام من هذا أمرا أخطر من نقاوة وأصالة الفكر، كما لم يجاهد العلماء العاملون لأمر أهم من المحافظة على سلامة الفكر الاسلامي من الانحراف والتشويش، وقد دخل في فكرنا الكثير من الفكر الدخيل الذي لا يمت إلى الاسلام بصلة

وأصبح من الصعب معه تمييز ما هو من الاسلام عما ادخل عليه، وقد نبت في تربة هذا الفكر الهجين المختلط الكثير من المذاهب والآراء والتصورات المنحرفة في التأريخ الاسلامي، سواء في المجال العقائدي أو الفقهي أو الأخلاقي أو السياسي.

ولهذا السبب كانت المحافظة على نقاوة وأصالة الفكر الاسلامي وتطهيره عما ادخل عليه

من أهم الأدوار والأعمال التي قام بها أهل البيت عليهم السلام ومن بعدهم العلماء الذين ساروا على هديهم.

وكانت قيمة العالم في أدوار الفكر الاسلامي المختلفة في مقدرته على مكافحة الفكر الدخيل والمنحرف والمذاهب الدخيلة والمنحرفة عن الاسلام وتثبيت الفكر الأصيل النابع

من منابعه النقية الصافية.

أقول ذلك بمناسبة التقديم للكتاب الذي بين يدي للشهيد السعيد والعالم الجليل والعبد الصالح الشيخ حسين معن، رحمه الله، فقد تناول في هذا الكتاب موضوعا شديد الحساسية، كبير الأهمية في حياتنا الاسلامية، وهو الاعداد الروحي والتربية الروحية، والبحث في هذا الموضوع يؤدي كثيرا بالباحثين إلى تصورات غير مكتملة، وناقصة تنزع
نحو الرهبانية ومشاركة الدنيا، واعتزال الحياة الدنيا، والحياة الاجتماعية وابتغاء وجه الله تعالى في ذلك كله.. أي بعكس التصور الاسلامي الصحيح الوارد في الكتاب والسنة تماما.

وقد نشأ في ظل هذا التصور المنحرف للتنمية الروحية والتربية النفسية مذاهب منحرفة قامت على أساس بعد واحد فقط من أبعاد الاسلام الأصيلة، وتكون لهذا الانحراف تاريخ،
وثقافة، ومؤسسات، وامتدادات، وعلماء، ومفكرون. وكل ذلك حصل نتيجة الفهم التجزيئي
غير الكامل لأصول وآفاق هذا الدين.

ومن خلال قراءتي لهذا البحث رأيت أن المؤلف الشهيد رحمه الله يتناول هذا الموضوع
الخطير من خلال الرؤية الاسلامية الأصيلة والمتكاملة وينظر إلى الاعداد الروحي من زاوية الحركة، والجهاد، والعمل، والدعوة إلى الله تعالى ويضع هذه المسألة موضعها الطبيعي من هذا الدين، وهو الجو الحركي والسياسي والجهادي، ويدرسه من خلال هذا الجو
بالذات على عكس الاتجاهات الفكرية المنحرفة التي تحاول ان تعزل هذا الموضوع الحساس
والخطير عن واقع الحياة، والأجواء الحركية، والسياسية، والجهادية.

فيحاول المؤلف قدس الله سره ان يمزج بين هذين الشطرين من الفكر الاسلامي
ويؤلف
بينهما ويجعل منهما طيفا فكريا واحدا يكمل بعض ألوانه بعضا كما يطلبه الاسلام تماما في منهجه التربوي والحركي لاعداد الدعاة إلى الله تعالى..
وفي قبال الاتجاه الانحرافي الذي يعزل مسألة الاعداد الروحي عن جو الحركة
والجهاد،
هناك سلوك وتوجه آخر معاكس لهذا التوجه في عزل العمل السياسي والحركي
والجهادي عن
التربية الروحية والزهد في التربية الروحية وتقليل قيمة التهذيب ودوره في الساحة الحركية والجهادية وهذا اتجاه سلوكي خطير لا يقل خطورة عن الاتجاه الأول.. وهذا
ليس
اتجاها فكريا كما كان الامر في الاتجاه الأول، وانما هو غفلة لدى بعض الغافلين عن أهمية البناء الروحي، والتربية النفسية في ساحة العمل السياسي والجهادي، أو غرور يصيب بعض الناس الذين يتحركون على الساحة السياسية الاسلامية أحيانا، فيتصورون
ان
العمل السياسي والجهادي والحركي الاسلامي يغني عن البناء الروحي والتربية النفسية والمداومة على ذكر الله تعالى والتنفل والتهجد، أو ليس هذا ولا ذاك وانما تلهيهم مسائل العمل ومشاغل الحركة والجهاد عن الانصراف إلى البناء الداخلي وما يتطلب
من
جهد ومداومة على الرياضة النفسية والتهذيب والتزكية.
ومهما تكن أسباب هذه الظاهرة، فهي ظاهرة انحرافية لا يقل خطرها عن الانحراف
الأول..
فإن حاجة الانسان الذي يتحرك على ساحة العمل الاسلامي والدعوة إلى الله تعالى إلى البناء الداخلي والاعداد الروحي تفوق حاجة الآخرين الذين لا تتجاوز اهتماماتهم شؤون
معيشتهم الخاصة مع

الالتزام بالحد الأدنى من التدين.
فإن الشيطان لا يتربص بهؤلاء الدوائر ولا يعمد إلى اغرائهم ووسوستهم كما يعمد إلى اغراء ووسوسة أولئك الذين يعملون في صفوف مواجهة الاستكبار، وأذنابه، ولا يتعرض
أولئك لمزالق ومخاطر الطريق ولا تشبه خطورة سقوط واحد من عامة الناس خطورة سقوط
انسان يعمل على الخط الحركي على الساحة الاعلامية والسياسية داخل الأمة فإن الانسان
الذي يعمل في وسط الأمة وعلى خط الدعوة والثورة والحركة السياسية إذا سقط لا يسقط
وحده وانما يسقط معه أمة من الناس ويجر معه جمعا من الخطوط الانحرافية والانشقاق
ولأمر ما يقال: (إذا هلك العالم هلك العالم) (بالفتح)...
ولكل هذه الاعتبارات، ولغيرها من الاعتبارات والحيثيات، تفوق حاجة العاملين في صفوف
الحركة والثورة الاسلامية والعاملين في الساحة السياسية والاعلامية الاسلامية حاجة غيرهم من الناس إلى الاعداد الروحي والبناء الداخلي والتربية النفسية.
لذلك نجد ان القرآن الكريم يؤكد على أهمية البناء الروحي للعاملين بشكل خاص ويربط
بين هذين الجانبين من شخصية الداعية ربطا وثيقا.
ونستعجل هنا تلاوة هذه الآيات من كتاب الله قبل ان نقرأها في العرض القرآني الرائع التي يذكرها المؤلف رحمه الله ضمنه.
(ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل

الله * فيقتلون ويقتلون وعدا عليه حقا * في التوراة والإنجيل والقرآن * ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به * وذلك هو الفوز العظيم التائبون * العابدون * الحامدون * السائحون * الراكعون * الساجدون * الآمرون بالمعروف * والناهون عن
المنكر * والحافظون لحدود الله * وبشر المؤمنين) (١).
ترى كيف يتم هذا الاقتران الرائع بين القتال والجهاد في سبيل الله ومبايعة الله ورسوله، وبين التوبة والعبادة، والحمد، والسياحة، والركوع، والسجود..
(محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار * رحماء بينهم * تراهم ركعا سجدا *
يبتغون فضلا من الله ورضوانا سيماهم في وجوههم من أثر السجود * ذلك مثلهم في التوراة ومثلهم في الإنجيل) (٢).
ترى هؤلاء القوم الذين وصفهم الله تعالى بأنهم أشداء على الكفار وكأنهم زبر الحديد في مواجهة الكفار صلابة وقوة. كيف يرتسم على وجوههم أثر السجود، وكيف ترق قلوبهم
محبة وشفقة على المؤمنين وكيف

يكون خشوعهم وتضرعهم بين يدي الله تعالى..
ثم نقرأ الآيات التي يخاطب الله تعالى بها نبيه (ص) داعيا إياه إلى الاستقامة في الدين، والصبر على المواجهة والأذى والصلابة في الموقف من الكافرين وألا يركنوا إلى الذين ظلموا من الجبابرة والمستكبرين، ثم تنتقل هذه الآيات الكريمة من هذا الجو المشحون بالصلابة والقوة والاستقامة إلى جو عبق بالصلاة والذكر، طرفي النهار وزلفا من الليل، وكأنما الآيات الكريمة تتحدث عن وجهي حقيقة واحدة عندما تنتقل من ذلك
الجو السياسي الجهادي المعبأ بالعمل والتحرك والصمود، إلى هذا الجو العبادي الخاشع
بين يدي الله تعالى..
(فاستقم كما أمرت * ومن تاب معك * ولا تطغوا * انه بما تعملون بصير ولا تركنوا إلى
الذين ظلموا فتمسكم النار * وما لكم من دون الله من أولياء ثم لا تنصرون * وأقم الصلاة طرفي النهار * وزلفا من الليل ان الحسنات يذهبن السيئات ذلك ذكرى للذاكرين
واصبر فان الله لا يضيع اجر المحسنين) (٣).
واليك طرفا من سيرة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وسنته في عباداته واقباله على الله تعالى في زحمة أعماله السياسية والجهادية في مكة والمدينة، ونبذا من سيرة أهل بيته ومن اهتدى بهديهم وسنتهم.

(كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لا يقوم ولا يجلس الا على ذكر الله) (٤).
(وكان يتضرع عند الدعاء حتى يكاد يسقط رداؤه) (٥).
وروى الطبرسي في الاحتجاج عن موسى بن جعفر (ع) قال: (كان رسول الله صلى الله عليه
وآله وسلم يبكي، حتى يبتل مصلاه من خشية الله عز وجل..).
وفي المناقب (كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يبكي حتى يغشى عليه فقيل له : (أليس قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر)؟ قال: (أفلا أكون عبدا شكورا).
وروى الديلمي في الارشاد: (ان إبراهيم (ع) كان يسمع منه في صلاته أزير كأزير المرجل، من خوف الله تعالى وكان رسول الله كذلك).
وعن الشيخ أبي الفتوح في تفسيره عن أبي سعيد الخدري قال: (لما نزل قوله تعالى: (واذكروا الله ذكرا كثيرا)
اشتغل رسول الله (ص) بذكر الله حتى قال الكفار انه جن) (٦).
وفي الكافي عن أبي عبد الله (ع) قال: (كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يتوب في كل يوم سبعين مرة).

وفي التهذيب عن معاوية بن وهب قال: سمعت أبا عبد الله (ع) يقول: (كان رسول الله
(ص) ينام ما شاء الله فإذا استيقظ جلس، ثم قلب بصره في السماء، ثم تلا الآيات من آل عمران:
(ان في خلق السماوات والأرض)
ثم يستن، ويتطهر، ثم يقوم إلى المسجد، فيركع أربع ركعات على قدر قراءته.. ركوعه وسجوده على قدر ركوعه. يركع حتى يقال متى يرفع رأسه؟ ويسجد حتى يقال متى يرفع رأسه
؟ ثم يعود إلى فراشه فينام ما شاء الله ثم يستيقظ فيجلس فيتلو الآيات من آل عمران، ويقلب بصره في السماء ثم يستن ويتطهر ويقوم إلى المسجد فيوتر ويصلي الركعتين ثم يخرج إلى الصلاة) (٧).
وعن عروة بن الزبير قال: (كنا نتذاكر في مسجد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم اعمال أهل بدر وبيعة أهل الرضوان فقال أبو الدرداء: الا أخبركم بأقل القوم مالا وأكثرهم ورعا واجتهادا في العبادة؟ قالوا: من؟ قال: علي بن أبي طالب (ع) رأيته في حائط بني النجار يدعو، ثم انغمر في الدعاء فلم أسمع له حسا وحركة، فقلت: غلب
عليه النوم لطول السهر، أوقظه لصلاة الفجر فأتيته، فإذا هو كالخشبة الملقاة، فلم يتحرك، فقلت: إنا لله وإنا إليه راجعون مات والله علي بن أبي طالب (ع).
فأتيت منزله مبادرا أنعاه إليهم، فقالت فاطمة (ع): يا أبا الدرداء، ما كان من شأنه وقصته فأخبرتها الخبر فقالت: هي والله يا أبا الدرداء الخشية التي تأخذه من خشية الله، ثم أتوه بماء فنضحوا على وجهه فأفاق، ونظر

إلي وانا أبكي، فقال ما بكاؤك يا أبا الدرداء؟ فقلت: بما أراه تنزله بنفسك فقال (ع):
كيف بك إذا رأيتني ادعى إلى الحساب، وأيقن أهل الجرائم بالعذاب، واحتوشتني ملائكة
غلاظ شداد وزبانية فظاظ، فوقفت بين يدي الملك الجبار وأسلمتني الأحباب، ورفضني أهل
الدنيا لكنت أشد رحمة بي بين يدي من لا تخفى عليه خافية (٨).
دخل ضرار بن ضمرة على معاوية بعد قتل أمير المؤمنين (ع) (فقال: صف لي عليا؟ فقال
: أعفني فقال: أقسمت عليك لتصفنه.
قال: أما إذا كان ولا بد فإنه كان والله بعيد المدى شديد القوى يقول فصلا، ويحكم عدلا، يتفجر العلم من جوانبه، وتنفلق الحكمة من لسانه، يستوحش من الدنيا وزهرتها ويأنس بالليل ووحشته وكان غزير الدمعة طويل الفكرة، يعجبه من اللباس ما خشن ومن الطعام ما جشب كان فينا كأحدنا يجيبنا إذا سألناه ويأتينا إذا دعوناه ونحن والله مع تقريبه لنا وقربه منا وقربنا منه لا نكاد نكلمه هيبة له.
يعظم أهل الدين ويقرب المساكين، لا يطمع القوي في باطله ولا ييأس الضعيف من عدله..
واشهد لقد رأيته في بعض مواقفه، وقد أرخى الليل سدوله وغارت

نجومه قابضا على لحيته يتململ تململ السليم (٩) ويبكي بكاء الحزين يقول:
(يا دنيا غري غيري أبي تعرضت أم إلي تشوقت؟ هيهات هيهات قد طلقتك ثلاثا لا رجعة
لي فيك فعمرك قصير، وخطرك كبير وعيشك حقير آه من قلة الزاد وبعد السفر ووحشة الطريق...
فبكى معاوية وقال: رحم الله أبا الحسن، قد كان والله كذلك فكيف حزنك عليه يا ضرار؟ فقال: حزن من ذبح ولدها في حجرها، فهي لا يرقى دمعها ولا يخفى فجعها) (١٠).
(ودخل أبو جعفر (ع) على أبيه السجاد (ع) فإذا هو قد بلغ من العبادة ما لم يبلغه أحد، فرآه، وقد اصفر لونه من السهر، ورمضت عيناه من البكاء، ودبرت جبهته وانخرم أنفه من السجود، وورمت ساقاه وقدماه من القيام للصلاة.
قال أبو جعفر: فلم أملك نفسي حين رأيته بتلك الحال من البكاء، فبكيت رحمة له، وإذا
هو يفكر فالتفت إلي بعد هنيهة وقال:
يا بني اعطني بعض تلك الصحف التي فيها عبادة علي بن أبي طالب (ع) فأعطيته فقرأ فيها شيئا يسيرا ثم تركها من يده وقال: من يقدر على عبادة علي بن أبي طالب (ع) (١١).

وكان إذا توضأ يصفر لونه فيقول له أهله: ما هذا الذي يغشاك فيقول أتدرون لمن أتأهب
للقيام بين يديه) (١٢).
وعن جعفر بن محمد الصادق (ع) قال: (كان أبي علي بن الحسين رضي الله عنه إذا حضرت
الصلاة يقشعر جلده ويصفر لونه، وترتعد فرائصه، ويقف تحت السماء ودموعه على خديه،
وهو يقول: لو علم العبد من يناجي ما انفتل..
ولقد برز يوما إلى الصحراء فتبعه مولى له فوجده وقد سجد على حجارة مسحنة (١٣)، قال
مولاه: فوقفت وانا اسمع شهيقه وبكاؤه فأحصيت الف مرة وهو يقول:
(لا إله إلا الله تعبدا ورقا، لا إله إلا الله ايمانا وصدقا).
ثم رفع رأسه من سجوده، وأن وجهه ولحيته قد غمرا بالتراب ودموع عينيه منحدرة على
خديه) (١٤).
وقال الباقر (ع) (ان أبي علي ابن الحسين (ع) ما ذكر نعم الله عليه الا سجد، ولا قرأ آية من كتاب الله عز وجل فيها سجود الا سجد، ولا دفع عز وجل عنه سوءا يخشاه
أو كيد كائد الا سجد، ولا فرغ من صلاة مفروضة الا سجد، ولا وفق لاصلاح بين اثنين
الا سجد، وكان اثر السجود في جميع مواضع سجوده فيسمى السجاد لذلك) (١٥).
وعن أبي حمزة عن أبيه: (رأيت علي بن الحسين (ع) في فناء

الكعبة من الليل وهو يصلي فأطال القيام حتى جعل مرة يتوكأ على رجله اليمنى ومرة على رجله اليسرى ثم سمعته يقول بصوت كأنه باك: يا سيدي تعذبني وحبك في قلبي؟ اما
وعزتك لئن فعلت لتجمعن بيني وبين قوم طالما عاتبتهم فيك) (١٦).
وان تعجب فعجب ان تحرص سيدتنا زينب بنت علي (ع) ان لا تفوتها نافلة الليل حتى ليلة
الحادي عشر من محرم على مقربة من الأجساد الطاهرة.
فقد روي أن سيدتنا زينب بنت أمير المؤمنين (ع) (١٧) ما تركت تهجدها لله تعالى طوال
دهرها حتى ليلة الحادي عشر من المحرم.
وروي عن زين العابدين (ع) قال: (رأيتها تلك الليلة تصلي من جلوس).
وعن الفاضل البيرجندي عن بعض المقاتل المعتبرة عن مولانا السجاد (ع) انه قال: (ان عمتي مع تلك المصائب والمحن النازلة بها في طريقنا إلى الشام ما تركت نوافلها الليلية) (١٨).
وقالت فاطمة بنت الحسين (ع): (واما عمتي زينب فأنها لم تزل قائمة في تلك الليلة (اي العاشر من المحرم) في محرابها تستغيث إلى ربها، فما سكنت لنا عين ولا هدأت لنا
رنة). (١٩).
وروى الشيخ جعفر النقدي رحمه الله عن بعض المتتبعين للإمام السجاد (ع) انه قال:

(ان عمتي زينب كانت تؤدي صلاتها من قيام الفرائض والنوافل وعند سير القوم بنا من الكوفة إلى الشام وفي بعض المنازل كانت تصلي من جلوس فسألتها عن سبب ذلك فقالت:
أصلي من جلوس لشدة الجوع لأنها كانت تقسم ما يصيبها من الطعام على الأطفال) (٢٠).
وما زلنا نتحدث عن عبادة سيدتنا زينب (ع) وانقطاعها إلى الله في مسيرتها إلى كربلاء ثم إلى الشام والمدينة فلا بأس ان نعرض هذه الصور الرائعة التي يذكرها المؤرخون لأصحاب الحسين (ع) ليلة العاشر من المحرم، يقول المؤرخون:
(وبات أصحاب الحسين (ع) في تلك الليلة، ولهم دوي كدوي النحل ما بين راكع وساجد
وقائم وقاعد) (٢١).

سمة العبيد من الخشوع عليهم * * * لله ان ضمتهم الأسحار
وإذا ترجلت الضحى شهدت لهم * * * بيض القواضب انهم أحرار

* * *

وفي تاريخنا الجهادي والحركي نلتقي كثيرا بهذه المشاهد الرائعة من اقتران الجهاد البطولي في ساحات الوغى والدعوة إلى الله بالعبادة وتهذيب النفس والابتهال والتبتل والتهجد وقيام الليل.
ومن أروع هذه المشاهد مشاهد التهجد والتنفل على جبهة القتال لجند الاسلام، حيث يرابط جند الاسلام على ثغور الدولة الاسلامية يستقبلون شظايا القنابل ورصاص العدو بصدورهم..

يقف هؤلاء الابطال في الليالي الظلماء خلف الدبابات على خط النار بين يدي ربهم عز وجل، يناجونه ويتضرعون إليه ويسجدون على تراب الجبهة ويطيلون السجود والبكاء حتى
تبتل ارض الجبهة بدموعهم.
ولئن كان هؤلاء الابطال لا يتركون صلاة الليل على خط النار وفي مواجهة العدو فإنهم يقتفون في ذلك خطى قائدهم الامام الخميني حفظه الله.
يقول الشيخ الأنصاري أحد المقربين إلى الامام في ترجمة حياة الامام حفظه الله:
(لم يترك الامام صلاة الليل منذ خمسين سنة) فالامام يتهجد في كل ليلة، في المرض، وفي الصحة، وفي السجن وخارج السجن، وفي حالة الابعاد، وحتى على سرير مستشفى القلب
في الليلة التي أمر الأطباء بنقل الامام من قم إلى مستشفى القلب في طهران لم يترك الامام صلاة الليل في تلك الليلة، كانت ليلة عسيرة وكان الثلج قد نزل بكميات كبيرة وبقي الامام في سيارة الاسعاف على تلك الحالة عدة ساعات ومع ذلك عندما استقر الامام
على سرير مستشفى القلب في طهران بادر إلى صلاة الليل وفي الليلة التي انتقل فيها الامام من باريس إلى طهران صعد إلى الطابق العلوي من الطائرة وصلى هناك صلاة الليل.
(لا يترك الامام تلاوة القرآن في كل فرصة مناسبة وعادة يقرأ القرآن بعد صلاة الصبح، وقبل صلاة الظهر والعصر، وقبل المغرب والعشاء، ويتفق كثيرا عندما ندخل نحن على الامام نجده يقرأ القرآن) (٢٢).

وبعد فلا أريد ان استرسل أكثر من هذا المقدار في هذه المقولة وأحب ان أذكر إخواني الدعاة إلى الله تعالى، قبل ان اقطع هذا الحديث بضرورة الاهتمام بهذا الجانب من شخصيتهم، فان شخصية الداعية لا تتكامل ولا تنمو النمو اللازم لها، ما لم يحاول الداعية ان ينقطع إلى الله تعالى في حياته، ويشرب قلبه بحب الله وما لم يأنس بذكر الله، وإقامة الصلاة في الليالي الداجية الظلماء، فأن البكاء، والتهجد، وتلاوة القرآن في سكون الليل وظلماته يحيي القلوب الميتة، ويشرح الصدور، ويبعث النور في حياة الانسان.

وإذا كان هذا البعد ضروريا في حياة كل انسان ففي حياة الدعاة أكثر ضرورة وأهمية.. والدعاة أولى من غيرهم بالاهتمام بهذا الجانب الحيوي والأساسي في شخصيتهم.

ان توثيق العلاقة بالله تعالى والانقطاع إليه عز وجل يؤمن سلامة المسير والسداد للداعية ويقيه عن المزالق والمخاطر ويربط على قلبه في الهزات والزلازل..

ان ثبات الداعية على ارض المعركة والمواجهة، واستقامته، ومقاومته للتحديات وصبره باتجاه الأزمات والمتاعب، وقدرته في تجاوز العقبات.. لا يأتي فقط نتيجة الوعي والفهم، والممارسة، والتجربة والخبرة، وانما يمده الله تعالى بها، ويشرح صدره، فيفرغ عليه صبرا، ويثبت له على أرض المعركة قدما، وينصره على أعدائه..

وهذا المدد الإلهي أكثر ما ينزل على العبد، ينزل عليه في ساعات

التضرع، والبكاء، والانقطاع إليه تعالى.
والتضرع والبكاء ورقة القلب من أفضل الفرص التي تؤهل الانسان لهبوط الرحمة من جانب
الله تعالى.
فلا ينال الانسان رحمة الله تعالى ولا يكون قريبا من الله تعالى كما يكون كذلك عندما يرق قلبه، وتجري عيناه بالدموع، ويخشع قلبه، ويقف بين يدي ربه قائما، أو يطرح نفسه على الأرض ساجدا..
وهذه الحالة هي أهم مصادر التسديد والتوفيق والثبات والاستقامة في حياة الدعاة..
والشيطان يكمن للدعاة في كل مكمن ويتربص بهم الدوائر في كل فرصة للايقاع بهم، وتثبيطهم وزرع اليأس في نفوسهم، وتحريفهم عن المسير، وتلبيس الامر عليهم..
وليس للداعية في هذه المزالق التي يترقب فيها الشيطان الدعاة غير الله تعالى، ينقطع إليه، ويتضرع بين يديه ويسترحمه..
وبقدر ما ينقطع الداعية إليه عز وجل يمده منه بالرحمة والتأييد والثبات والصبر والسداد..
* * *

وبعد فلا يسعني في هذه المقدمة ان لا اتحدث شيئا عن مؤلف هذا السفر الجليل:
الشهيد السعيد، والعبد الصالح، الشيخ حسين معن رحمه

الله، الذي اختطفته أيدي الاجرام البعثية من بيننا وهو بعد في غضاضة شبابه الطاهر النقي.
إن قراءة سريعة وعابرة لهذا الكتاب يكشف عن أن كاتب هذا الكتاب لا يتحدث فيه عن
دروس ونظريات وأفكار قرأها وسلم بها، وانما يتحدث عن معاناة، وان هذه الأشواط التي
يصورها المؤلف في الكتاب لتحرك الانسان إلى الله تعالى.. قد قطعها المؤلف غالبا فجاء الكتاب تعبيرا عن معاناة ومعايشة.
وهذه الناحية من أهم خصائص المؤلف الشهيد رحمه الله، حيث كان بفضل الله تعالى يضم
إلى الذهنية الخصبة والفكر الوقاد، والنبوغ المبكر، والرؤية النافذة.. قلبا واعيا وبصيرة نافذة، وصدرا شرحه الله تعالى، ونورا في القلب، وانقطاعا إلى الله، وتبتلا وابتهالا ويقينا بالله..
والى هذا وذاك، كان يضم رحمه الله معاناة الداعية، وخبرة وتجربة العاملين في سبيل الله، ولا يمل هم الدعوة، ويسعى في تحقيق أهدافها بنفس صابرة مطمئنة لا يعرف التعب
والكلل ولا يمل من العمل ولا يتسلل إلى روحه الكبيرة اليأس ولا يجزع من ساحة العمل
في حالة من الأحوال.
كانت مدرسته محرابه، ومحرابه ساحة عمله وجهاده، وكان يجمع بشكل يبعث على الاعجال
بين هذه السوح الثلاث، ويعمل فيها جميعا بتوازن عجيب، فهو عالم ضليع يراهق الاجتهاد رغم شبابه الغض.
وكان يطرح فيه أستاذه الكبير الشهيد الصدر رحمه الله آمالا كبيرة

لمستقبله في الفقاهة والعلم، وفي نفس الوقت كان يتميز بروحه الشفافة النقية والصافية، وانقطاعه إلى الله تعالى، وتهجده، ودعائه، ومداومته على ذكر الله، ثم كان إلى جنب ذلك من خيرة الدعاة إلى الله تعالى في الساحة الاسلامية في العراق، في السراء والضراء لا يكل ولا يتعب ولا يعرف اليأس والخوف طريقا إلى قلبه، يتقد نشاطا وعملا، ويبعث في نفوس إخوانه الهمة، والنشاط، والأمل والحركة.. وقليل من الناس كذلك وذلك من فضل الله تعالى.

وإذا علمنا أن الشهيد السعيد الشيخ حسين معن قد استطاع ان يجتاز هذه الأشواط البعيدة في العمل ويحقق هذه المكاسب ويبلغ هذه القمم الرفيعة من العلم والعمل وهو بعد في سني الشباب لم يتجاوز العشرينات من عمره كان ادعى للاعجاب.

* * *

ومن الحق ان نقول في هذا الشهيد السعيد وفي الدعوة المباركة التي التزمها، وامتزجت بدمه، وروحه، وعقله وأحاسيسه، فكانت جزءا لا يتجزأ من وجوده.. ان الدعوة الاسلامية
هي التي فجرت هذه الكفاءات والمواهب والقدرات في نفس شهيدنا السعيد وانه مدين إلى
الدعوة بالكثير من الكفاءات والقابليات والمنح..
ان الدعوة الاسلامية لا تبدع هذه الكفاءات، وانما يبدعها الله تعالى بفضله، ويودعها حيث يشاء في نفوس عباده، ولكن الدعوة الاسلامية، وساحات العمل والجهاد
تكتشفان هذه المواهب، والكفاءات، وتفجرانها

وهذه سنة الله تعالى في حياة العاملين. فان العمل والجهاد كما يأخذان من العاملين يعطيانه أيضا، وما يعطيان أكثر مما يأخذان منه.
وقد تفتحت مواهب هذا الشاب وقدراته في ربيع عمره في هذا الحقل المبارك فاتى ثماره
طيبة شهية مباركة..
ولقد هيأ الله تعالى لشباب العراق بشكل خاص في الدعوة الاسلامية المباركة فرصة مباركة للنمو والانطلاق والتحرك، بعد سنوات عجاف من الخمول والضياع والحيرة والقلق
والسقوط.. مرت على العراق وعلى العالم الاسلامي جميعا.
فانطلقت هذه المسيرة تكتسح من امامها رواسب سني التخلف، وتبعث الحركة والوعي والقوة
والعزم في نفوس الشباب..
وفي هذا الوسط الحركي المبارك نشأ جيل من الشباب يتطلع إلى إقامة حكم الله على وجه
الأرض، وتعبيد الانسان لله، وكسر كبرياء الطاغوت وهيبته وإعادة الاسلام إلى صلب الحياة، واعطاء الاسلام الدور القيادي الفعال في حياة الانسان.
وتحرك هذا الجيل بهذا الاتجاه وعمل على تطهير المجتمع الاسلامي في العراق من رواسب
سنوات التخلف ونفوذ الاستكبار، ومقاومة الحكام العملاء الذين كانوا يمثلون مصالح الاستكبار في المنطقة، ومواجهة التحديات بصبر وايمان، فكان جو الدعوة الاسلامية في
العراق مزيجا من الايمان والفكر والجهاد.

وشاء الله تعالى ان تنطلق هذه المسيرة المباركة من النجف الأشرف بالذات، قاعدة الفقاهة ومدرسة أهل البيت منذ الف سنة، وشاء الله تعالى ان تكون بداية هذه الحركة على يد عدد من كبار الفقهاء وعلماء هذه الحوزة المباركة، وشاء الله ان يكون الرعيل الأول من أبناء هذه المسيرة خليطا من طلاب الحوزة العلمية في النجف الأشرف وطلبة الجامعات، تصافحا وتعانقا في جو الدعوة، وانطلقا في موكب هذه المسيرة.

والذي يعرف ما بذلت أجهزة الاستكبار العالمي وعملاؤه من جهد لعزل هذين القطاعين

المؤثرين في المجتمع الحوزة والجامعة.. يعرف قيمة الدعوة الاسلامية ودورها الكبير في كسر الحواجز النفسية والاجتماعية، والسياسية بينهما وتشكيل مسيرة واحدة منهما..

واستمرت هذه المسيرة المباركة، حتى التحمت بمسيرة الثورة الاسلامية في إيران، بقيادة الامام الخميني حفظه الله.. في مثل هذا الجو المزدوج العبق: الحوزة العلمية، والدعوة الاسلامية، نشأ الشهيد الشيخ حسين معن، رحمه الله، وتفتحت كفاءاته وامكاناته، وانطلق باتجاه العمل الاسلامي، وتحرك، ودعا، وكتب، ودرس، وحاضر، وخطب في الجماهير، وربى، وجاهد، وكافح جلاوزة البعث، وسجن، وعذب في الله،

ثم استشهد، رحمه الله، وختم الله حياته بمسك الشهادة وآثره بها.

* * *

وإذا ذكرنا الشيخ حسين معن رحمه الله، فلا يسعنا ان لا نذكر الجهود التي بذلها أستاذه الكبير الفقيه والمفكر الاسلامي الرائد السعيد السيد

الصدر رحمه الله في تربية واعداد الشهيد.
فقد لمح السيد الشهيد الصدر رحمه الله في هذا الشاب ملامح الذكاء والنبوغ المبكر والأصالة والنجابة فاحتضنه برعايته الخاصة وأسبغ عليه عواطفه الأبوية المباركة، وتبنى تربيته، وكان يضع فيه ثقته وآمالا كبيرة..
وكان الشهيد الشيخ حسين معن يحفظ لأستاذه الكبير إلى آخر حياته احتراما وحبا خالصا.. فرحم الله الأستاذ والتلميذ، وحقق الله تعالى آمالهما بسقوط أعمدة الكفر وقيام حكم الله على ارض الرافدين وسلام عليهما يوم ولدا ويوم استشهدا ويوم يبعثان حيين.
محمد مهدي الآصفي
٢١ / صفر / ١٤٠٥ ه

نبذة مختصرة عن حياة المؤلف الشهيد
رحمه الله
بسم الله الرحمن الرحيم
لا تنطلق العبقرية والعظمة من أماكن معينة أو حيز محدود فحسب، سواء كان هذا الحيز
عائليا أو دراسيا أو ما إلى ذلك، بل قد تنطلق من كوخ متواضع في قرية نائية أو من عائلة مغمورة وغير مشهورة بالعلم أو الحكم أو السياسة..
في قرية صغيرة من قرى كربلاء الدم والشهادة والثورة كانت تسكن عائلة الحاج ناصر –
أحد المتنفذين في عشيرته (البوحسن) – وكان الشاب (معن) أكبر أولاده متطلعا منذ نعومة أظافره لطلب العلم ومتشوقا للدراسة الدينية ولكن والده يرفض ذلك بشدة فإذا رأى هذا الشاب طلاب العلم يؤمون كربلاء للدراسة يبقى متحسرا لحرمانه من نعمة العلم
فإذا عرض طلبه على والده زجره بشدة وأخيرا اعتمد على نفسه فتعلم القراءة والكتابة من زملائه في القرية، وقرأ القرآن إلى أن صار معلما فيه.. وعندما رزقه الله ولدا كانت الأمنية الكبرى في نفسه: ان يرى ولده طالب علم فلما أكمل ولده الصف السادس
الابتدائي منعه من مواصلة الدراسة في المدارس الرسمية.. وعندما بلغ سن التكليف ذهب
به إلى الحوزة العلمية في كربلاء.. وهكذا بدأ شهيدنا حياته الدراسية، ولم تمض عليه في حوزة كربلاء الا عدة شهور.. وبينما كان الوالد يستقبل زوار الإمام الحسين (عليه السلام) من المشاة في الزيارة الشعبانية، حيث كان يفتح

بيته لزوار الإمام الحسين (عليه السلام) في هذه المناسبة استضافه أحد طلاب العلم (٢٣) في النجف الأشرف، ودار الحديث حول الدراسة في الحوزة، فاقترح عليه ان ينقل
ولده إلى الحوزة العلمية في النجف الأشرف، بعد أن رأى فيه علائم الذكاء والنبوغ، رغم صغر سنه فما كان اليوم الثاني الا وأصبح الوالد في النجف الأشرف ليدخل ولده في
مدرسة العلوم الاسلامية.
ومن هنا برزت معالم النبوغ في شخصية شهيدنا، فجلب ذكاؤه نظر المجدين من طلاب العلم
فحظي باهتمامهم ورعايتهم لما يتسم به من ذكاء خارق، وذهن ثاقب، وجدية منقطعة النظير، حتى كان الامام الشهيد الصدر يسميه بالطالب المجد.. ومن جديته ان الكتاب ما
كان ليفارقه ابدا حتى في المجالس العامة مع إخوانه فبينما كانوا يتفكهون في مجالسهم تراه منشدا إلى كتابه، وإذا أشكلت عليه مسألة من مسائل الفقه والأصول تجده
يعيدها مرات ومرات ولا يتركها حتى يفهمها، ويهضمها جيدا، وهكذا استمر شهيدنا بجدية
متناهية حتى قطع مرحلة السطوح في سنوات لا تتعدى أصابع اليد ليلتحق بالدراسات العليا المعبر عنها ب (البحث الخارج) وما مضت سنوات حتى لمع نجمه في حلقات الدرس
العليا..
ومما زاد في جديته وفاعليته انتماؤه لحزب الدعوة الاسلامية عام ١٣٩٠ ه، وظل مندكا
في هذا التيار المبارك، رغم الهجمة الشرسة، التي شنتها سلطات البعث الكافر في بغداد، على الدعوة المباركة، سنة ١٣٩٤ ه، فطورد شهيدنا الغالي على اثرها مطاردة عنيفة جدا، مما حمله على تغيير زيه، لمواصلة عمله.. وبالرغم من هذا، لم يكن ليوقفه عن تحصيله،

فكان يكلف زملاءه، بتسجيل محاضرات الامام الشهيد الصدر والسيد الخوئي ليتابعها يوما بيوم فلما ضاق به الامر اضطر لأن يخرج من النجف الأشرف ليختفي في محافظات
أخرى وبالرغم من هذا الحرج والمضايقة لم ينقطع عن العمل الرسالي فكان يلتقي بإخوانه
في أماكن محددة ليتدارس معهم ظروف الدعوة فيوصلوا له الاخبار ويأخذوا منه التوجيهات
والطروحات الرسالية..
اما الساعات التي ينفرد فيها وحده في المكتبة فقد كنت أرى منه: العجب العجاب في الجدية والتهام الكتب بمختلف أنواعها.. كنت أراقبه عن كثب فإذا انبلج النهار ثنى ركبتيه وانكب على المطالعة إلى وقت الظهر وهكذا بقية الليل والنهار لا يتوقف عن البحث والدرس وقد كنت أحصي الساعات التي يقضيها في القراءة والبحث حتى كانت تصل إلى
(١٦) ساعة في الليل والنهار وربما بلغ في بعض الأحيان أكثر من ذلك وغالبا ما كنت أراه منكبا على الورقة والقلم حتى يطلع الفجر.. حتى إذا اعترضت عليه يوما لكثرة أتعابه قال:
(ان هدفنا أوسع وأكبر من أعمارنا ونحن يجب علينا في أوقات المطاردة واستحالة التحرك
ان ننقطع إلى الدرس والبحث وإذا فسح لنا المجال للعمل فيجب ان ننطلق بكل ما أوتينا
من قوة لإقامة الدولة الاسلامية..)
وبناء على هذا الفهم الحركي نجده في فترة اختفائه وعلى وجه التحديد بعد اعدام كوكبة
الدعوة الأولى سنة ١٣٩٤ ه - ١٣٩٥ ه أنتج عدة بحوث

في ظرف خمسة أشهر منها:
١ - الحرية في الاسلام.
٢ - بحث ضخم بعنوان (العلاقة الفقهية في الاقتصاد الاسلامي).
٣ - شرح الأسس المنطقية للسيد الصدر.
وكتب أخرى لا اذكرها جيدا.. ولما هدأت العاصفة الهوجاء وخف الطلب، عاد مرة أخرى
إلى النجف الأشرف ليواصل عمله بصورة أوسع وهنا تجلت خصاله الرسالية وبرزت شخصيته
العلمية، وأستطيع ان أوجزها بالنقاط التالية:
١ - الاستماتة في سبيل الله:
كان شعاره (المستميت لا يموت) وكان يقول: اننا نحن الدعاة يجب ان لا نفكر بشئ اسمه الحياة حتى قيام الحكومة الاسلامية في العراق، اننا وقود الثورة الاسلامية
والتفكير بغير هذا غير صحيح فما علينا الا ان نتحرك بجد وفاعلية ونشاط ونبذل كل شئ
في سبيل هذا الهدف العظيم حتى تسفك دماؤنا في سبيل الله تعالى..
وكم كان أصدقاؤه يحذرونه من سطوة الظالمين لحقدهم عليه، وحبذوا له الخروج من العراق
الا انه رفض ذلك بشدة وأصر على مواصلة عمله في العراق وان أدى ذلك إلى استشهاده..
وكم مرة قال: اننا باقون ها هنا تسفك دماؤنا.. ولتركز هذا العنصر في شخصيته ما كان
الخوف ليعرف إلى

نفسه طريقا ابدا.. ذلك لأنه أعطى نفسه لله.. وكان يرى أنها ملكه يتصرف بها كيف يشاء.

٢ - الجدية والدأب على العمل:

كان دائب العمل ليل نهار على الصعيدين الفكري والاجتماعي بلا انقطاع ولا توقف.. بين
دراسة وتدريس وبحث، ودعوة إلى الله متواصلة لا تفتر، ولا تلين. وكنت أرى منه العجب
فهو كلما ازدادت الصعاب، والمصائب يزداد عزيمة، ومضاء، ومواصلة للعمل. إن انبعاثه
للعمل بهذه الدرجة يدل على أن نفسه وصلت إلى حد اليقين في إيمانها بصحة الفكر الذي
نذر نفسه له، حتى عاد لا يرى في الوجود قوة مؤثرة غير القوة المطلقة التي آمن بها..
كل هذا كان يستوحى من سلوكه، وصموده، واصراره على العمل، كانت تصله اخبار سيئة جدا
فلا تعيقه عن عمله ولا تؤثر فيه، بل كان يعتبر ذلك أمرا طبيعيا وخلاصة القول: ان الرجل كان دؤوبا مجدا في عمله بمستوى قل نظيره في أوساط المجدين..

٣ - الابتكار والتفنن في أسلوب العمل والبحث:

منذ سنة (١٣٩٤ ه) وقوى الظلم والعدوان تواصل البحث عنه في كل حدب، وصوب. وما تركت
مكانا تتوقع ان تجده فيه، الا اقتحمته، وبأساليب متباينة، الا انها لم تفلح الا بعد ست سنوات، ولم يكن هو المقصود وانما كان من باب الصدف.

لقد اكتسب مهارة كبيرة في العمل السري، والتملص من الأعداء،

والتخفي عنهم إلى حد إنه دخل السجن باسم مستعار وحكم عليه بالسجن المؤبد، ونقل إلى
أبي غريب إلى أن كشفه اعتراف أحد الموقوفين سامحه الله..
واما أسلوبه في البحث، والمناظرة فقد كان مبتكرا وجامعا ومانعا حيث إنه كان واسع الثقافة في العلوم الحديثة على شتى أصعدتها. إضافة إلى تخصصه في العلوم الاسلامية..
كان دقيقا وأديبا في المناظرة رأيته وقد ناظر الشيوعيين، ودعاة الاشتراكية،
ومروجي الحضارة الغربية يستمع إليهم إلى أن يفرغوا ما في جعبهم.. وبعد ذلك أراه ينقض على أفكارهم مفندا، وناسفا وما يقومون عنه الا وهم قد نبذوا ما جاءوا به..
قصده أحد دعاة الوجودية يوما، وبقي فترة يتحدث له عن الفلسفة الوجودية، ولما انتهى، اخذ الشيخ الشهيد يشرح له عن الفلسفة الوجودية ابتداءا بتأسيسها ومرورا بأهدافها وانتهاءا بأسرارها وأبعادها فبقي ذلك الرجل متعجبا وظن أنه وجودي مثله، وبعد ان شرحها له وشده إليه انقض على الفلسفة الوجودية واخذ ينسفها لبنة لبنة إلى أن
انتزعها من ذهنه وقام عنه بعد مجلس طويل، وهو يقول عنه عجيب امر هذا العالم ما أعمق ثقافته! انه لم يكن كلاسيكيا، انه عميق الفكر.
٤ - العمق الثقافي:
كان شهيدنا واسع الباع في العلوم الاسلامية عميق الغور فيها، وخصوصا: الفقه والأصول والمنطق والفلسفة على ما وصفه عارفوه من زملائه طلاب العلم.

وقد حضرت دروسه في تدريس المنطق وكتاب فلسفتنا واقتصادنا فكان كالسيل المنحدر من
جبل شاهق لا يتوقف في مسألة ولا تشكل عليه قضية، وكان يشرح كتب السيد الشهيد ويزيد
عليها وقد أشار مرة إلى أن اقتصادنا وفلسفتنا - بالرغم من اكباره لهما - بعد أن قطعا فترة عشرين سنة من الكفاح الفكري أصبحا الآن بحاجة إلى المزيد من التوسيع لما
استجد من بحوث فكرية في الرأسمالية والماركسية والاشتراكية..
كنت أراه دائما يركز على بحث الفلسفات الأجنبية الشرقية منها والغربية وكذلك في العلوم الاقتصادية بكل اشكالها. مضافا إلى عمقه الفكري في العلوم الاسلامية. وكان ينوي القيام ببحث مقارن بين القوانين الغربية والدساتير الاسلامية..
كان دائم الاطلاع على ما يستجد من بحوث العلوم الحديثة بصورة مستمرة قلما يفوته كتاب يصدر في ذلك، وعندما تتمعن في مكتبته يأخذك العجب، وتتصور ان صاحب هذه المكتبة
فيلسوف ماركسي أو يوناني..
وعلى كل فان أبا سجاد كان عالما، ومفكرا رساليا بكل ما للكلمة من ابعاد وكان يؤكد دائما على زملائه وطلابه بقراءة الفكر الاسلامي أولا واستيعابه، وهضمه، وتمثيله، فإذا وصل إلى درجة لا يدخل الشك في نفسه من أي جانب من جوانب الفكر، انتقل
إلى قراءة الفكر المادي بشقيه الشرقي والغربي.. واخذا الجوانب الايجابية ومقارنته مع الفكر الاسلامي لابراز معالم القوة في شريعة السماء..

٥ – عمق الوعي الحركي:
اتسم شهيدنا بروح حركية عالية لا تفتر ولا تلين ابدا في كل الظروف ولهذا لم يكن يهدأ له بال دون عمل وخدمة متواصلة للمبدأ السامي رغم تعالي روح الحركية وسيطرتها
على نفسه لم يكن ارتجاليا في أعماله بل كان دقيقا في التخطيط والتنفيذ، وقلما سلك طريقا أو قام بعمل قبل أن يحسب له الف حساب. ولهذا واصل عمله في العراق طيلة ست
سنوات من المطاردة العنيفة، المتواصلة في كل مكان، ولكن لم يثبت على نفسه أي اثر ولم يعط أي مستمسك يطمع السلطة الغاشمة فيه. كان عالي الانضباط دقيق التحرك بين
بغداد، والنجف، وديالى، والبصرة متنكرا، وحاملا هوية مزورة يعبر بها نقاط التفتيش.
وكان عميق الغور كتوما إلى حد كبير بحيث انني عشت معه فترة طويلة، ولم أستطع ان
اقف على حقيقة انتمائه للدعوة المباركة، الا بعد أن عرفتها من بعض أصدقائه وزملائه.
ونتيجة لتفانيه وذوبانه في مبدئه الحركي كان يخرج في أيام المحنة من الصباح، ولا يرجع حتى منتصف الليل متنقلا من فرد إلى آخر يقضي حاجة هذا ويوجه ذاك وينقذ الثالث
من ورطته.
٦ – انشداده للثورة الاسلامية في إيران:
عندما انفجرت الثورة الاسلامية في إيران ملكت على شهيدنا كل أحاسيسه، ومشاعره، ووقته. لذا كنا نراه دائم التفكير فيها، ويتابع أحداثها ساعة بعد ساعة، ويرفد إخوانه بالموقف السياسي، والتحليل

العميق للأحداث، ويؤكد للمؤمنين بما يبعث الامل في انتصار الاسلام، ويقول: (ان الامام الخميني سيعود إلى إيران، ويقود المسيرة، ويحطم كل عروش الطاغوت، وان الانتصار حتمي إن شاء الله وعلينا ان نكون الامتداد الطبيعي للثورة الاسلامية
المظفرة وان نعمل بكل جهودنا على انجاح تجربة الجمهورية الاسلامية في إيران أكثر من
اهتمامنا في العراق، لأنه لا سامح الله لو انتكست هذه الثورة، فلا يقوم للاسلام قائم حتى قيام صاحب الامر.. وعلينا ان نعمل بكل توجيهات الامام حفظه الله.. ولذلك
كان حريصا كل الحرص في بيان ابعاد الثورة وأهدافها، وعظمتها، ولذا رأيناه يشد الناس إلى قيادة الامام، ويعمل على تحصيل صور الامام ليوزعها في النجف الأشرف وخارجه..).

وكثيرا ما كان يجلب لنا أكثر من كتاب كان ممنوعا في العراق يومذاك، وكانت هذه الكتب قد تهرأت وتلف بعض موضوعاتها من كثرة تداولها.

ولا انسى ذلك الموقف الذي كان يتتبع فيه عناوين الكتب في مكتبتي وأفرز مجموعة من
الكراسات منها كتب قد حصلت عليها من دار التوحيد وكان مثل هذه الكتب قليلا ومحذورا في العراق آنذاك، وطلب مني ان يأخذها لينتفع بها الاخوة الدعاة، فلما قلت له: أرجو المحافظة عليها وارجاعها قال: ان الدعوة المباركة قد علمتنا ان الداعية لا يملك شيئا هذه الأشياء مثل تساهم في تغيير الأمة وان طلابنا بحاجة إليها فينبغي ان لا نبخل عليهم (٢٤).

٧ - الايثار ونكران الذات:
في أيام المحنة الأخيرة سنة ١٩٧٩ برزت على شهيدنا سمة نكران الذات، وذوبان المصلحة
الخاصة في مصلحة الاسلام إلى حد لا يصدق. فقد كان الدعاة المشردون من المحافظات
الأخرى يأوون إلى النجف الأشرف للتخفي فكان أبو سجاد يبذل كل جهده لتأمين اختفائهم
وراحتهم ووصلهم بحلقات العمل.. ولهذا تراه يخرج من بيته ويسكن فيه عائلة، أو عائلتين من المطاردين ويذهب هو ليفتش عن مأوى له ولأطفاله، ولقد رأيته والله يشهد يدور على الطلبة ليأخذ من هذا صحنا، ومن ذاك قدرا ومن ثالث فراشا، ليؤمن استقرار الدعاة المشردين حتى خرج من ثلاث بيوت أجرها لنفسه وبقي هو وعائلته في بيت ليس فيه
غير فراش لا يكفي لشخص واحد، وتوسد هو وزوجته حجرا في ذلك البيت بعد أن امن مأوى
أكثر من عشرين عائلة من عوائل الدعاة في النجف الأشرف، وكنت أراه فاقد الراحة إذا عرف بأن أحد الاخوة الدعاة في حاجة شئ.. ولا يهدأ له بال حتى يؤمنها اما هو وعائلته فلا يهمه ان وفرها، أو لم يوفرها..

٨ - السمو الروحي:
كان شهيدنا عميق التدين، قوي الانشداد إلى الله تعالى. يتجلى ذلك بدقة التزامه في الأحكام الشرعية.. بصورة واعية تامة.. فإذا ما انفتل إلى صلاته تراه خاشعا خاضعا باكيا.. وأما إذا سكن الليل واختلى بربه تراه ناحبا متوسلا داعيا.. وكان يتستر على أعماله هذه بحيث يحاول ان لا

يعرفها أحد.. واما تكتمه على أعماله، وعدم ذكرها ابدا، فقد كان بدرجة عالية جدا
فما سمعته يوما قال انا الذي قمت بالعمل الفلاني، أو تحدث عن انجاز قام به، أو عن
هدف حققه، أو خطوة خطاها.. كان لا يحب ان تذكر أعماله ابدا، ويحرم على
الشخص الذي
عرفها ان يذكرها. وكان يبني اعداده الروحي على الحب، والخوف والرجاء. كما ذكر
ذلك
في كتابه الاعداد الروحي.

٩ - تطلعه إلى الشهادة:

أذكر يوما كنا جالسين في النجف مع مجموعة من الاخوة من طلبة العلم وبعض
الدعاة..
واخذ كل منهم يتحدث عن إعتقاله وتعذيبه ومواقفه وكان أبو سجاد صامتا يستمع
بدقة
لعرض الاخوة فتبسم وقال: (أظن أن الله لا يحبني ولذا فاني الوحيد منكم لم يبتلني
الله بما ابتلاكم) فضحكنا وعلقنا بفكاهة على كلامه وكثيرا ما سمعته يقول، وهو
ساجد: اللهم ارزقنا الشهادة في سبيلك.. وكان يؤكد دائما ان التطلع للشهادة من
العناصر الرئيسية التي يجب ان تتجلى في شخصية الداعية، ومن هذا المنطلق كتب في
ختام
وصيته: (وأوصي والدي إذا رزقني الله الشهادة ان يجعلا يوم شهادتي كيوم عرسي)
وفعلا عندما سلمت جثته الطاهرة وقفت والدته المثكولة به لتطلق نغمات الفرح التي
أطلقتها يوم عرسه..

١٠ - الهم الرسالي

كان الهم بأمر الاسلام، وحال المسلمين ووضع الأمة وأوضاع العاملين، هو الحالة
الملازمة لأبي سجاد حتى كان يسأل عن كل الأمور

المتعلقة بذلك، ويتابع الاخبار والاحداث ويهتم بجميع التفاصيل، ولطالما رأيته يفكر فيما ينبغي ان نعمله، ونسعى إليه للنهوض بحالة الأمة وتغييرها بالاسلام، حتى رأيته يستنكر على العامل في سبيل الله ان تكون له ساعات يخلد فيها إلى الراحة والدعة عن العمل، ومتابعته..

كان في إحدى المرات وفي شهر رمضان المبارك تواقا لزيارة الامامين العسكريين في سامراء ولكنه قال: ان الغياب عن العمل ولو لفترة قصيرة هو تفريط وتقصير فلا بد لي ان لا أسافر سفرة كهذه وان كان ذلك السفر طاعة تتحقق فيها زيارة الامامين (عليهما السلام) ولكن ظروف العمل لا تسمح بذلك، ولقد كان يتابع حالة إخوانه، ويتابع شؤونهم

المعاشية، وطبيعة أعمالهم الرسالية، فهو يسأل عن طبيعة الأعمال التي قام بها إخوانه من علماء المناطق، وعلاقة المؤمنين بهم، ويسعى جاهدا لتسديدهم ومناصحتهم (٢٥).

١١ - التقشف والزهد (٢٦):

لم يكن الشيخ أبو سجاد يرى الا وهو في حالة الكادحين المستضعفين حتى أن أحد الاخوة

ممن كان يراه في بيتي قد ظن أنه عامل، لأنه لم ير عليه، الا مظهر ضعاف الناس.

ولقد صحبته مدة تزيد على السنة وهو يرتدي نفس الثوب الذي كثيرا ما ألححت عليه بتركه وطلبت منه ان يتقبل مني هدية لاستبداله، لأنه بالي فرفض بشدة وكان يجيب إنه يكتفي به وهو يسد حاجته.

وحتى الكتاب الذي هو رأس مال طالب العلم، وقد يفرط في كل

شئ، ولكنه لا يفرط في كتابه، ولا يمكن ان يبيعه أو يهديه لاحد، الا ان شهيدنا
السعيد الشيخ حسين معن كان يشتري مجموعة من الكتب التي هو بحاجة إليها ثم
يسرع في
قراءتها. واستخراج ما هو محتاج منها إليه ثم يرسلها إلى صاحب المكتبة ليبيعها، أو
يستبدلها بكتب أخرى ينتفع بها بنفس الطريقة أو يحتفظ بما هو مهم منها، ويضعه
تحت
تصرف العاملين.

١٢ - صموده:

استمر شهيدنا في جهاده، حتى نصب له فخ كافر وقع فيه وادخل السجن باسم
مستعار.. وضرب
في السجن أرقى آيات الصمود والثبات والمهارة في التخلص من التهم الموجهة إليه..
الا
ان احكام البعثيين تصدر جزافا، وحسب المزاج وإلا كيف حكم عليه بالسجن المؤبد
باسم
مستعار غير معروف، وحامله مجهول، ونقل إلى أبي غريب كسجين حتى كشفت
الشخصية
الحقيقية. وكان يوما مشهودا في دوائر الامن حتى أقيمت الأفراح في مديرية الامن
العامة عندما اكتشفوا ان هذا الشخص هو الشيخ حسين معن، الذي قضوا ست سنوات
في
التفتيش عنه وفي هذا الوقت اعتقلت عائلته، والده وزوجته وطفلاه سجاد وعارف.
يروي لنا أحد الموقوفين معه انه حين صدر عليه حكم الاعدام عقدوا له مجلسا مع
أساتذة عمل النفس والسياسة والاجتماع باشراف مدير الامن المجرم سعدون شاكر
واخذوا
يوجهون له أسئلة حول حزب البعث وحزب الدعوة فانطلق يبين لهم مبادئ الدعوة
الاسلامية
وأصالتها، وفساد حزب البعث، وعمالته فقال له فاضل الزركاني:

- يا شيخ حسين. لو بقيت معهم ساعتين لجعلتهم دعاة.
فرد عليه شهيدنا البطل قاتلا:
- اعطني نصف ساعة أخرى لأجعلهم دعاة.
* * *

وهكذا مضى أبو سجاد إلى ربه، مضرجا بدمه الثائر مسطرا أحرفا من نور، لتبقى تضيء الدرب للأجيال السائرة في طريق ذات الشوكة اللاحب.
فسلام عليك يا أبا سجاد!
يوم ولدت.
ويوم جاهدت.
ويوم وقفت تتحدى الظالمين، وأنت تحمل نور السماء.
والسلام عليك:
يوم تقف بين يدي الله تعالى.
مخاصما أعداء الاسلام.
* * *

يا أبا سجاد.. وعارف!

.. إن حزني عليك لا ينقضي..
ولا يمكن ان أنساك..
فأذكرنا عند ربك..
فإننا إخوتك.
وعلى الدرب سائرون..
الحاج أبو حسين الربيعي
١ ربيع الأول ١٤٠٥ ه

---

(٢٣) - أحد الطلاب المهاجرين في الجمهورية الاسلامية
(٢٤) - تفضل بكتابة هذه النقاط الشيخ أبو محمد الرفاعي
(٢٥) - تفضل بكتابة هذه النقاط الشيخ أبو محمد الرفاعي
(٢٦) - تفضل بكتابة هذه النقاط الشيخ أبو محمد الرفاعي

نظرات عامة حول الاعداد الروحي
للشهيد الشيخ حسين معن

(٤٢)

بسم الله الرحمن الرحيم
(يا أيها المزمل * قم الليل الا قليلا * نصفه أو انقص منه قليلا * أو زد عليه ورتل القرآن ترتيلا * انا سنلقي عليك قولا ثقيلا * ان ناشئة الليل هي أشد وطئا وأقوم قيلا * ان لك في النهار سبحا طويلا * واذكر اسم ربك وتبتل إليه تبتيلا)
١ - ٨ / سورة المزمل.
(إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعدا عليه حقا في التوراة والإنجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم * التائبون العابدون الحامدون السائحون الراكعون الساجدون الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر والحافظون لحدود الله وبشر المؤمنين)
(١١١ - ١١٢ / سورة التوبة)

الفصل الأول المقصود من الجانب الروحي

لا نقصد بالجانب الروحي في شخصية الانسان المسلم كثرة الصلاة والصيام والتعبد.. وان
كان لكثرة التعبد والتنفل صلة وثيقة بالجانب الروحي في الشخصية..
ولا نقصد بالجانب الروحي كذلك حسن التعامل مع الناس والأخلاق الحسنة: كالشجاعة،
والعفة، والكرم، والحكمة، والاحسان، وما شاكل ذلك وان كان للأخلاق صلة وثيقة بالجانب الروحي.
وانما نقصد بالجانب الروحي في شخصية المسلم - والذي يعتبر جوهرها ومضمونها - الصلة
الداخلية للمؤمن بالله تعالى وانشداده النفسي والعاطفي به تعالى من حيث الايمان والحب والاخلاص، وما يرافق هذه المعاني الثلاثة الرئيسية من خوف، ورجاء، وتواضع...
الخ ان المضمون الداخلي المرتبط بالله تعالى هو الجانب الروحي وهو الذي يشكل الأساس الذي يقوم صرح الشخصية الاسلامية بالكامل وتصدر عنه عناصرها الأخرى، وسماتها، وخصائصها المميزة عن الناس وعلاقة الايمان بالله، وخوفه، ورجائه، والتواضع له والاخلاص.. بالعبادة الخارجية من صلاة وصيام وأذكار علاقة تأثير متبادل يؤثر المضمون الداخلي للمؤمن فينتج عبادة وتنفلا وصياما وقياما، وتؤثر العبادة الخارجية فتزيد في الايمان والحب، والاخلاص، والخوف، والرجاء، وكذلك الحال في
الأخلاق والتربية الروحية هي بالنتيجة بناء هذه العلاقة الداخلية للمؤمن بالله، وتنميتها،

وتحصينها، والحفاظ عليها.
وإذا تحددت الآن بصورة مجملة هوية الجانب الروحي والتربية الروحية فبإمكاننا ان نطرح السؤال التالي حولها:
ما هي درجة الاهتمام التي يلزم ان نعطيها للجانب الروحي، والتربية الروحية؟ وهل تستحق التربية الروحية لأنفسنا، وللآخرين جهدا معينا، وما هي درجة هذا الجهد؟.
وبكلمة أخرى: ما هو موقع التربية الروحية من العمل الاسلامي ومكانتها فيه؟
توجد في الجواب على هذا السؤال اتجاهات ثلاثة يسجلها التاريخ الاسلامي وهي:
(١) الاتجاه الصوفي.
(٢) الاتجاه السياسي والفكري.
(٣) الاتجاه الاسلامي المتكامل.
منهج التقييم
وقبل ان نستعرض هذه الاتجاهات بشئ من التفصيل من اجل تقييمها والتعليق عليها علينا
ان نلمح إلى المنهج الذي يحكم ويجب ان نحتكم إليه في تقييم الأفكار التي تنتسب إلى
الاسلام وتحسب عليه..

في كل خلاف فكري أو مهمة فكرية عامة علينا ان نرجع إلى المقاييس التي وضعها الاسلام
ونحتكم إليها ونستلهم منها.. كتاب الله تعالى وسنة رسوله وأهل البيت الذين اذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا، وسيرتهم العطرة الطاهرة، فعن علي (ع):
اما اني سمعت رسول الله (ص) يقول: ستكون فتن قلت: وما المخرج منها؟ قال: كتاب
الله، كتاب الله فيه نبأ ما قبلكم، وخبر ما بعدكم، وحكم ما بينكم هو الفصل ليس بالهزل هو الذي من تركه من جبار قصمه الله ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله..
هو الذي من قال به صدق، ومن حكم به عدل، ومن عمل به أجر، ومن دعا إليه هدى إلى صراط
مستقيم (١)
وقال تعالى:
(وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا واتقوا الله ان الله شديد العقاب) (٢).
وقال (ص):
(اني تركت فيكم من أن تمسكتم بهما لن تضلوا من بعدي: كتاب الله حبل ممدود

من السماء إلى الأرض، وعترتي أهل بيتي، ولن يفترقا حتى يردا علي الحوض فانظروا كيف
تخلفوني فيهما؟).
والرجوع إلى المقاييس التي وضعها الاسلام في معرفة مفاهيمه وعقائده وتشريعاته امر طبيعي لأننا لا يمكن ان نتعرف على أفكار أي شخص أو جهة الا من خلال ما يعد من أساليب وطرق في تحديد أفكاره ومواقفه ومن خلال ما يضعه من مقاييس في معرفتها.
والتصور الفكري والثقافي عن القرآن الكريم والسنة المطهرة - قولا وفعلا وتقريرا - والاحتكام إليهما في الخلافات لا يتم إلا بشرطين:
(١) الجهد الفكري بالتتبع والاستقراء لكل ما يتصل بالمسألة من آية، أو حديث، أو رواية، أو موقف. وعدم تسجيل المواقف، واتخاذ القرارات الفكرية الا بعد الدراسة الجادة، والتتبع المناسب لهذين المصدرين الأساسيين.
(٢) الانفتاح النفسي على الكتاب والسنة وأن تكون لدى الباحث فيهما (روح التلقي) منها، وعدم التجاسر، والتأويل والتدخل من خلال فرض الأهواء والمسبقات. فان (المؤمن
أخذ دينه عن ربه ولم يأخذه عن رأيه) كما ورد عن أمير المؤمنين (ع) وعن الإمام الباقر
(ع) في خبر صحيح: (والله إن أحب أصحابي إلي أورعهم وأفقههم واكتمهم لحديثنا، وان أسوأهم عندي حالا.. وأمقتهم الذي إذا سمع الحديث ينسب إلينا ويروى عنا فلم يقبله. اشمأز منه وجحده وكفر من دان به وهو لا يدري

لعل الحديث من عندنا خرج وإلينا أسند، فيكون بذلك خارجا عن ولايتنا) (٣).
وعلينا ان نتذكر بصدد تطبيق هذا المنهج، ان الله سبحانه خلقنا في هذه الحياة للمحنة، والابتلاء،
وليس الابتلاء، الذي خلقنا من اجله هو ابتلاء أخلاقيتنا وعبوديتنا لله سبحانه في إطار
الطاعة، والاستقامة على الخط الذي يشترعه للناس فقط، وانما أيضا في مجال (تلقي) هذا الخط
وتفهمه ووعيه، ومن هنا فإنه سبحانه عندما أنزل الرسالة بينها للناس. وهداهم إلى خطها وبصرهم بمفاهيمها وتشريعها، ولكن لم يكن هذا البيان من قبله حاسما حديا بل كان قابلا للأخذ والرد، والتملص والركون، والنفي والاثبات.. لم يجعل الله تعالى البيان حاسما حتى تكون فتنة واستجابات مختلفة من الناس ووضع المقاييس لكي يقيم الحجة على الفهم السليم ولكي يحيى من حي عن بينة..
ومن هنا كانت الفكرة مسؤولة وكان الانسان مسؤولا عن سمعه وبصره وفؤاده كما هو
مسؤول عن عمله.
(ولا تقف ما ليس لك به علم أن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولا) (٤).
وكان هناك الناجح في فتنة التلقي.
(وبشر عبادي الذين يستمعون القول

فيتبعون أحسنه) (٥).
والفاشل فيها.
(ومنهم من يستمع إليك وجعلنا على قلوبهم أكنة ان يفقهوه) (٦).
والآن نعود إلى البحث في الاتجاهات العملية الثلاثة في مسألة التربية الروحية، وندرسها بشئ من التفصيل.

(١) الاتجاه الصوفي

تلقى الاتجاهات الصوفية الآن اهتماما بالغا من قبل المستشرقين، والكتاب المسلمين التابعين لهم أو المستقلين عنهم في التفكير، وتدرس في العادة من التصوف موضوعات عديدة.. منها: لفظته، واشتقاقها، ونشأته وعواملها، وتطوره عبر القرون، ومفاهيمه التربوية والفلسفية والأدب المتأثر أو المعبر عنه.. الخ وتتوزع المواقف التقييمية – كالعادة – بين رافض للتصوف غاضب عليه، وبين مدافع عنه ومؤيد له ولا يقتصر المؤيدون
للتصوف والاتجاهات الصوفية على بعض الباحثين الأكاديميين أو المستشرقين المعجبين بل
نجد من له شأن يذكر في مجال العمل الاسلامي، وخدمة الاسلام من يدافه عن الاتجاهات
الصوفية، ويعتبر الروحية الخاصة أساسا للعمل الجهادي، ويربط تاريخيا بين المنظمات الصوفية، وبين الدعوة الاسلامية، ومن هؤلاء أبو الحسن الندوي في كتابه (ربانية لا رهبانية) الذي نشره كما يقول: (قياما بالواجب، واعترافا بالجميل،

ودفاعا عن جماعة تدين لها بعض الأجيال، وبعض الأقطار بالدخول في الاسلام، أو البقاء عليه) واكد فيه ان الجناية على التصوف جاءت من قبل المصطلح وكثيرا ما يجنى على الأفكار والمفاهيم بسبب المصطلحات.

والواقع انه إذا كان يقصد من الصوفية التأكيد على الجانب الروحي والمضمون الداخلي الباطن، وكثرة العبادة، والزهد في الدنيا، ومجاهدة النفس، وذكر الله كثيرا. لذلك تكون المنظمات الروحية القائمة على هذا الأساس داخل الإطار الاسلامي شريعة، وأخلاقا فكل هذا من الاسلام حث عليه الاسلام وربى أجيالا عليه وأما إذا كان يقصد من الاتجاه الصوفي هذا الاتجاه الذي نعرفه في التاريخ الاسلامي والذي نضج في القرنين الثالث والرابع الهجريين فهو اتجاه ينطوي على بعض نقاط الضعف من الناحية الاسلامية وانتهت به – عند بعض الصوفيين – إلى انحرافات واضحة، لسنا ننكر من هذا

الاتجاه كثرة العبادة، وعملية التحرير الداخلي للنفس من أسر الشهوة، والرضى والتوكل، فقد قلنا ان هذا كله من الاسلام انما ننكر منه كاتجاه تربوي أمرين الأول: انه يركز على التربية الروحية والعلاقة بالله منعزلا عن التأكيد على الجوانب

الأخرى الضرورية في الشخصية الاسلامية، والعمل التربوي الاسلامي يجب ان يهتم ببناء

الشخصية الاسلامية مضمونا، من حيث العلاقة بالله وحبه وخوفه ورجائه.. الخ، واطارا، من حيث الخلق والانفتاح الاجتماعي والعطاء والجهاد في سبيل الله، ومعرفة أحكام الشريعة، ومفاهيمها.. ولا يركز على جانب دون آخر.. وبالخصوص فأن التأكيد على

التربية الروحية عبر الرياضات، والأفكار، والمجاهدات – باعتبار ان التعامل مع الغيب

يصعب على الانسان ان يكون مستقيما فيه من دون نهج إلهي يسير عليه في ذلك بمعزل عن
الجوانب الاسلامية الأخرى من السهل أن ينتهي إلى الانحراف والخروج عن خط الاسلام
السلوكي والفكري في الحياة كما سوف نلاحظ ذلك في النتائج التي انتهت إليها الصوفية.. (الثاني) ان (هدف) التصوف لم يكن بناء الانسان العابد المطيع لله تعالى، الملتزم بشريعته المنزلة منه إلى عباده هدى، ونورا، ونهجا، وحياة، وانما كان هدفه الوصول إلى (مذاقات الاتصال بالوجود المطلق) و (الفناء) في الحقيقة المطلقة (الله)، أو ادراك الحقائق ادراكا بالعيان، والقلب، و (الكشف)، و (العرفان) وغير ذلك من المعاني التي ان صحت من الناحية العلمية، ولم تكن أوهاما ضائعة، فهي لا تصح هدفا لعمل تربوي واسع ينطلق من الاسلام وللاسلام..
ونتيجة لنقطتي الضعف هاتين في الاتجاه الصوفي، برزت انحرافات عديدة عند الكثير من
أهل التصوف على امتداد تأريخه الطويل، وهذه الانحرافات يتنكر بعض المتصوفة لبعضها
ويتنكر بعض آخر منهم لبعض آخر منها ولكننا نعتبرها نتيجة طبيعية لروح ومضمون الاتجاه الصوفي.. ومن هنا لم يخل من بعض هذه الانحرافات حتى التصوف السني الذي
يمثله الغزالي.. وفي (كتابه احياء علوم الدين) والذي يعتبر أقربها إلى الشريعة.
وترجع الانحرافات التي ابتلي بها الاتجاه الصوفي إلى انحرافات في الممارسات، وانحرافات في النتائج والأفكار، ومن هذه الانحرافات العزلة، وتطليق الحياة الاجتماعية وممارسة السماع والرقص، والحزن، وتعطيل

أحكام الشريعة باعتباره الوصول إلى درجة ترتفع معها التكاليف والهجوم المتكرر على العلوم الشرعية القائمة على أساس السماع لا الكشف، والاشراق، واشكال الانحراف العقائدي من حلول، وفناء، واتحاد، واللغة الخارجة عن حدود الأدب الشرعي مع الله تعالى، والطابع المستعلي على الرسالة الاسلامية الذي لا يفرق بينها، وبين غيرها من الشرائع.. إلى آخر ما هنالك من انحرافات سجلها التأريخ على الاتجاه الصوفي..

ولا أظن اننا بحاجة إلى تفصيل الكلام في هذه الأخطاء والانحرافات والرجوع إلى تأريخ
التصوف فيها..

شجب الرسالة لإرهاصات التصوف:

ان حركة التصوف تعتمد على ميل نفسي في كيان الانسان يؤدي عند تنميته، وتغذيته إلى
الانحراف.. وقد أدت تراكمات كثيرة إلى ظهور حركة التصوف في التأريخ الاسلامي (الانحلال) الأخلاقي في العالم الاسلامي دخول الكثيرين من غير المسلمين في الاسلام مع احتفاظهم بترسباتهم الفكرية، والروحية، والفلسفة اليونانية والاتجاهات الغنوصية فيها الخ..

الا ان كل ذلك لم يكن ليعطي أثره لولا أمران:

(١) - الانحراف بالميل الانساني الفطري إلى التعامل مع الغيب واكتشاف المجهول.

(٢) - سوء فهم تأكيد الاسلام على الصلة بالله والمعاني الروحية،

والأخلاقية الأخرى.. فكان من الانسان أن (اندفع) من خلال ميله الفطري إلى العزلة والتصوف و (برز) ذلك باسم القرآن الكريم، والسنة المعاصرة مع (صياغات) و (تأثرات)
بالتيارات الفكرية والدينية التي تلاقحت عندما تزاوجت الحضارات الانسانية في الاسلام.
وبسبب الميل الفطري، والتأثر غير المتوازن بتعليمات القرآن الكريم، والرسول (ص) ظهرت هنا، وهناك بوادر الاعتزال، وتطليق الحياة الاجتماعية من أجل العبادة ولكن أئمة الهدى كانوا يقفون امام هذه الحالات، ويحولون بينها، وبين التطور إلى ما لا ينسجم مع خط الاسلام في الحياة.
(١) – قال المفسرون: (جلس رسول الله يوما فذكر الناس ووصف القيامة فرق الناس، وبكوا، واجتمع عشرة من الصحابة في بيت عثمان بن مظعون الجمحي واتفقوا على أن يصوموا
النهار، ويقوموا الليل، ولا يناموا على الفراش، ولا يأكلوا اللحم، ولا الودك، ولا يقربوا النساء، والطيب، ويلبسوا المسوح، ويرفضوا الدنيا، ويسيحوا في الأرض، وهم بعضهم ان يجب مذاكيره، فبلغ ذلك رسول الله (ص).. فقال لهم: ألم أنبئكم انكم انقطعتم على كذا وكذا؟ قالوا بلى يا رسول الله (ص) وما أردنا الا الخير فقال رسول الله (ص): اني لم آمر بذلك ثم قال: ان لأنفسكم عليكم حقا فصوموا، وأفطروا وقوموا وناموا فاني أقوم وأنام وأصوم وأفطر، وآكل اللحم، والدسم، وآتي النساء، ومن رغب عن
سنتي فليس مني).
ثم جمع الناس (وهذا أمر له دلالة) وخطبهم وقال:

ما بال أقوام حرموا النساء، والطعام، والطيب، والنوم وشهوات الدنيا اما اني لست آمركم ان تكونوا قسيسين ورهبانا فإنه ليس في ديني ترك اللحم، ولا النساء، ولا اتخاذ الصوامع، وان سياحة أمتي الصوم، ورهبانيتهم الجهاد.
اعبدوا الله، ولا تشركوا به شيئا، وحجوا واعتمروا، وأقيموا الصلاة، وآتوا الزكاة، وصوموا رمضان، واستقيموا ليستقم لكم، فإنما هلك من كان قبلكم بالتشديد، شددوا على
أنفسهم فشدد الله عليهم فأولئك بقاياهم في الديارات والصوامع، فأنزل الله تعالى الآية.
(يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين) (٧).
(٢) – ونذكر حالة فردية في زمان الإمام علي (ع) وهي:
دخل أمير المؤمنين (ع) على العلاء بن زياد الحارثي في البصرة – وهو من أصحابه – يعوده، فلما رأى سعة داره قال (ع):
(ما كنت تصنع بسعة هذا الدار في

الدنيا، وأنت إليها في الآخرة أحوج؟ وبلى ان شئت بلغت بها الآخرة، تقري فيها الضيف، وتصل فيها الرحم، وتطلع منها الحقوق مطالعها فإذا أنت قد بلغت بها الآخرة).
فقال له العلاء: يا أمير المؤمنين، أشكو إليك أخي عاصم بن زياد، قال (ع): وما له ؟: قال: لبس العبادة وتخلى عن الدنيا قال علي (ع) علي به فلما جاء قال (ع):
(يا عدي نفسه: لقد استهام بك الخبيث اما رحمت أهلك وولدك، أترى الله قد أحل لك
الطيبات، وهو يكره ان تأخذها؟ أنت أهون على الله من ذلك).
قال: يا أمير المؤمنين هذا أنت في خشونة ملبسك، وجشوبة مأكلك قال: ويحك اني لست
كأنت ان الله فرض على أئمة العدل ان يقدروا أنفسهم بضعفة الناس، كيلا يتبيغ بالفقير فقره. (٨)
وفي زمن الإمام الصادق (ع) أصبح (الزهد) تيارا لشئ من الانحراف، وحاربه الإمام (ع)
أيضا يقول أحد أصحابه كما في الرواية (لأقعدن في بيتي ولأصلين ولأصومن ولأعبدن ربي فأما رزقي فسيأتيني فقال أبو عبد الله (ع): هذا أحد الثلاثة الذين لا يستجاب لهم.

وسأل عن رجل فقير اصابته الحاجة قال: فما يصنع اليوم؟ قيل في البيت يعبد ربه قال فمن أين قوته؟؟ فقيل: من عند بعض إخوانه، فقال أبو عبد الله (ع): والله للذي يقوته أشد عبادة منه).

٢ - الاتجاه الفكري والسياسي

قد لاحظنا ان التصوف يركز بطريقته الخاصة على التربية الروحية ولكن المنعزلة عن ذاتها.. والمتوقع لها ان تخرج باستمرار أفواجا من المنحرفين عن الخط الاسلامي في الحياة سلوكا، وأفكارا.. وقد ساعد على ظهور هذا الاتجاه كما سبق ان أشرنا إليه.. التحلل الأخلاقي، وتلاقح الفلسفات، والديانات مضافا إلى الميل الفطري، والنزوع الذاتي للتعامل مع الغيب وحث الاسلام على التربية الروحية، وتطهير النفس وتحريرها.

وفي المقابل أدى التحدي الثقافي الغربي، وهجمة التيارات الفكرية والاجتماعية المادية على العالم الاسلامي، وفقدان السيادة الاسلامية، والاستعمار العسكري والاقتصادي للبلاد الاسلامية أدى ذلك كله إلى (رد) فعل اسلامي يؤكد على الجوانب الفكرية، والاجتماعية، والاقتصادية في الاسلام، وتنبيه المسلمين إلى صلاحية الاسلام للتطبيق والانتهاج، وقدرته على اسعاد البشرية، وبناء المجتمع القائد من جديد.. كما فعل في الأمس. ويؤكد أيضا على محاربة الاستعمار، والفكر الاستعماري، والأدوات الاستعمارية في البلاد المسلمة.

ولأن هذه الأهداف بالمنظور الحسي انما تتحقق، بالتوعية الفكرية، والعلمية على الاسلام، وتحسيس المسلم بأوضاع المسلمين، وتخلف العالم

الاسلامي في كل الميادين.
ولأن الغرب تحدانا فكريا وفي المنهج الاجتماعي وثقافتنا المعاصرة للكثير من المسلمين هي (رد فعل) للتحدي الغربي أقول: لهذا، اكد بعض الناس في عملهم التربوي
على جانب التوعية الفكرية، والعلمية وأهملوا التربية الروحية، وبناء العلاقة بالله في نفوس المؤمنين بالاسلام، والعاملين في سبيل الله والمستضعفين في الأرض..
وهذا يؤدي عمليا إلى التورم الفكري، والعلمي، وعدم التوازن في شخصية الانسان المسلم، وتغليب الإطار على المضمون، والفكر على الروح..
والانسان المسلم - كما هو الحال في المجتمع المسلم - قد يمر بحالات يكون فيها نشاطه
العلمي، ونشاطه العقلي رد فعل لتيارات معادية.. ولكنه على العموم ينطلق من شخصية أصيلة، وثقافة أصيلة، وتاريخ أصيل.. وسرعان ما يعيد النظر في أوضاعه، ويبنيها لا على أساس (الرد)، وانما على أساس (الفعل) الأصيل الذي يمليه الانتساب إلى السماء، والارتباط المطلق بالله، والرسالة الخالدة ذات الشخصية المتميزة بين الرسالات.. ومن هنا كان عباد الرحمن يمشون على الأرض هونا.. وينشطون هونا لا يستثأرون، ولا يستفزون، وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما.. كيف؟ لأنهم لا تبعثهم المخاطبة الجاهلية إلى الرد.. وانما هم (سلام) إلى حين تقرر رسالتهم فيه الحرب.. وهم (سلام) لا يثأرون لأنفسهم ولا ينتقمون لأنفسهم، وشخصيتهم.. ولا يردون على التحديات ردا تستلب فيه ذاتهم

الرسالية، وشخصيتهم المستقلة.. (٩)
ولما كان كل عمل.. وكل تفكير.. انما هو من املاء الرسالة لا املاء سواها.. فعلينا باستمرار ان نرجع إليها، وننطلق منها لنؤكد بذلك نسبنا الأصيل، وشخصيتنا الاسلامية... وعبوديتنا الكاملة لله تعالى.. ونحن في مراجعة الرسالة كتابا، وسنة، وتاريخا.. نجد للتربية الروحية موقعا أكبر.. وأركز في طريقة العمل الاسلامي وأهدافه.. ولكن في ضمن الإطار الاسلامي.. والأهداف الاجتماعية للاسلام..

٣ - الاتجاه التربوي المتكامل

ويعطي هذا الاتجاه التربوي الروحي - بناء العلاقة الداخلية بالله من حيث الحب، والايمان، والأخلاق، والخوف، والرجاء، والزهد، وما شاكل ذلك، وبالوسائل المعهودة من
الاسلام من الصلاة، والصوم، والتنفل بالعبادات، والذكر ومخالفة الأهواء الخ...
يعطي هذا الاتجاه التربية الروحية أهمية بالغة لان الرسالة أكدت عليها تأكيدا بالغا، وأعلت من شأنها وركزت عليها، ولكن التأكيد البالغ على التربية الروحية والاعداد الروحي لم يكن تأكيدا مستقلا بهما دون الجوانب الأخرى، وانما هو ضمن الاهتمام العام بتربية وبناء الشخصية الاسلامية من جميع جهاتها.. حتى يكون الانسان المسلم مجسدا للاسلام في الفكر والروح والسلوك الشخصي والتعامل مع الناس أي متعلقا بالله تعالى، ومتعاملا معه بالطريقة التي يحددها الاسلام لهذا التعامل..
وبناء الشخصية الاسلامية.. هو الآخر جزء من الاهتمام بالمجتمع،

والناس، وعملية الاصلاح، والتغير الاجتماعي.. لان الاسلام كما ينظر في أخلاقه، وتربيته، واحكامه للافراد كذلك ينظر إلى المجتمع، والوحدات الاجتماعية التي يتألف منها الكيان الاجتماعي.

وهكذا فان الذي يقوله الاتجاه الاسلامي التربوي المتكامل هو:

(١) - التأكيد البالغ على الجانب الروحي، وتربية المضمون الداخلي المرتبط بالله تعالى.. ولكن باعتبار ذلك (جزء من كل) هو بناء الشخصية الاسلامية بمختلف جوانبها

الفكرية، العقائدية، الروحية، والأخلاقية، والاجتماعية.

(٢) - ان بناء الشخصية الاسلامية الذي تشكل التربية الروحية جزءا منه هو الآخر ليس سوى (جزء من كل).. وهذا الكل الذي يعتبر الشخصية الاسلامية جزءا منه هو الاصلاح

الاجتماعي وتغير أوضاع الناس لتلتئم مع الاسلام، وتصدر عنه.

مناشئ الاهتمام بالتربية الروحية

وللاهتمام بالجانب الروحي ضمن العمل التربوي الاسلامي منشآن أساسيان:

(الأول): ان الاصلاح الاجتماعي لا يتم من وجهه النظر الاسلامية السليمة، الا من خلال الاصلاح الفردي، ولن يصلح حال الجماعة الا بصلاح حال الفرد.. قال الله تعالى:

(إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم).
وهكذا فأن بناء المجتمع الاسلامي عملية لا تحدث الا من خلال نمو كمي وكيفي..
في
الافراد المؤمنين العابدين لله أي في الشخصية الاسلامية فان الشخصية الاسلامية من خلال تكاثرها وحدوث بعض المتغيرات الاجتماعية، تتجسد بشكل مجتمع اسلامي.
ولكن ما هي هذه الشخصية الاسلامية التي يبشر بروزها كظاهرة اجتماعية بالمجتمع الاسلامي؟
هل هي الشخصية التي (تفهم) الاسلام وتتحسس بآلام المسلمين؟! أم هي الشخصية المنعزلة التي تتعبد في زوايا المساجد معزولة عن الناس؟ أم هي الشخصية العالمة المتفقهة والمستوعبة للتاريخ؟ أم هي الشخصية الخلوقة، التي يشير لها الناس بالخلق الحسن، وطيب المعاملة، ولين العريكة؟!
الشخصية الاسلامية كل هذا.. وليست شيئا من هذا.. الشخصية الاسلامية هي التي تفهم
الاسلام وتعيه وتتحسس آلام المسلمين هذا صحيح لان.
(من لم يتفقه في دين الله لم ينظر الله إليه يوم القيامة ولم يزك له عملا) (١٠).
ولأن

(من أصبح لا يهتم بأمور المسلمين فليس بمسلم) (١١).
الشخصية الاسلامية كثيرة العبادة كثيرة التهجد تعتزل الناس أياما لأداء حق الله..
ثم.. تعود هذا صحيح أيضا.. وصحيح أيضا انه حسن الخلق من أهم سمات المؤمن لان
(أكمل الناس ايمانا أحسنهم خلقا)
كما ورد عن أبي جعفر عليه السلام (١٢).
صحيح هذا كله وصحيح ان الانسان المسلم انسان محسن معطاء أنفع الناس للناس وأنفع
الناس للرسالة.. الا ان كل هذا من العلم، والخلق والعطاء، والعبادة الخارجية انما هو (إطار) الشخصية الاسلامية.. وللشخصية الاسلامية (مضمون) كما لها إطار و (محتوى)
كما لها شكل..
ومضمون الشخصية الاسلامية.. هي العلاقة بالله، والتعلق القلبي به ايمانا، وحبا، ورجاء، وركونا، واخلاصا.. هو التحرر الداخلي من أسر الشهوات، والعبودية الكاملة لله تعالى.. وهذه العبودية الكاملة لله تعالى والعلاقة النفسية، والقلبية أول ما تشتمل عليه، أو تقتضيه هو السير وفق ما امر الله تعالى.
(قل ان كنتم تحبون الله فاتبعوني)
وتنفيذ ارادته التشريعية لله وهو الذي يحث على حسن الخلق، ويحث

على الجهاد، والعطاء، والتفقه، والعلم، والعبادة، والذكر، كانت هذه الأمور شروطا ضرورية في الشخصية الاسلامية، و (إطارا) لها نابعا عن المضمون المذكور.
بالإطار والمضمون تتكامل الشخصية الاسلامية، فالمضمون بلا إطار لا يشكل شخصية اسلامية، وكذلك الإطار بلا مضمون لا يشكل شخصية اسلامية.. وكل هذا واضح من قراءة
النصوص في ميادين العلاقة بالله تعالى، وميادين التعامل الاجتماعي، إذ كما تؤكد هذه النصوص على حسن الخلق والامر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والجهاد، كذلك تؤكد على
اليقين والزهد، والذكر، والعبادة، والتوكل، وقيام الليل الخ.. وكما تؤكد على هذه تؤكد على تلك..
لا يقبل الاسلام علاقة بالله.. الا من خلال الالتزام بالشريعة فعن الإمام جعفر الصادق (ع) عن آبائه عن أمير المؤمنين (ع) قال: قال رسول الله (ص):
(لا قول الا بعمل، ولا قول ولا عمل الا بنية، ولا قول، وعمل ونية الا بإصابة السنة) (١٣)
وأدانت النصوص أولئك المتعبدين الذين لم يقوموا بواجباتهم تجاه الرسالة..
وكذلك لا يقبل الاسلام جهادا، أو عملا، وغير ذلك الا بالاخلاص

وعلاقة بالله..
(انما الأعمال بالنيات، ولكل امرئ ما نوى فمن غزا ابتغاء مرضاة الله فقد وقع اجره على الله ومن غزا يريد عرض الدنيا أو نوى عقالا لم يكن له الا ما نوى) (١٤).
(ومن طلب العلم، ليباهي به العلماء، أو يماري به السفهاء أو يصرف به وجوه الناس إليه، فليتبوأ مقعده من النار ان الرئاسة لا تصلح الا لأهلها) (١٥).
والمضمون، والإطار يرتبطان بشكل وثيق، ويتفاعلان فيما بينهما فان المضمون – العلاقة
الروحية بالله – يخلق الإطار، والإطار يخلق المضمون، ويكمل أحدهما الآخر ليؤلفا الصورة السليمة للشخصية الاسلامية التي أرادها الله..
وقد يحدث أحيانا ان يكون أحدهما أضعف مستوى من الآخر دون ان يمس ذلك الصورة الكلية
الشخصية.. ولكن التفاوت قد يبلغ حدا معينا يعينه الاسلام يخرج بموجبه الانسان عن كونه شخصية اسلامية.
وعلى أي حال: فان الجانب الروحي، والمضمون الروحي للانسان المسلم هو جوهر، ومضمون
شخصيته الاسلامية فإذا ما أريد ان يبدأ بالاصلاح الاجتماعي من بناء الشخصية الاسلامية، فمعنى هذا ابتداء

الاصلاح الاجتماعي من تربية الجانب الروحي، وبناء الصلة بالله تعالى.. كجزء من كل،
هو بناء الشخصية الاسلامية والتوعية الفكرية على الاسلام لها دور خاص – يضاف إلى دور التربية الروحية في بناء الشخصية الاسلامية. لان الجهل، وعدم وعي الاسلام، روحا واحكاما، وأفكارا، كثيرا ما يفصل مضمون الشخصية الاسلامية عن إطارها لان
(العامل على غير بصيرة كالسائر على غير الطريق لا يزيده سرعة السير الا بعدا) (١٦)
(ولا يقبل الله عملا الا بمعرفة، ولا معرفة الا بعمل، فمن عرف دلته المعرفة على العمل، ومن لم يعمل فلا معرفة له، الا ان الايمان بعضه من بعض) (١٧)
ومن هنا ورد أيضا ان
(لا عمل الا بنية ولا عبادة الا بتفقه) (١٨)
ان الشيء الذي لا زال أكثر الناس يجهلونه هو ان (الايمان بعضه من بعض) أو التوازن في شخصية الانسان المسلم، واعطاء كل شئ من الاسلام حقه، الروح والعقل والقلب والإرادة فنرى بعض الناس يؤكدون على الفكر والثقافة الاسلامية المعاصرة.. ويدعون العبادة والتنفل وبناء القلب، والروح.. ونرى بعضهم على العكس يؤكد على التعبد.. والتنفل وبناء الصلة الداخلية بالله ولكنهم يهملون إطار الشخصية الاسلامية،

ويتركون التفقه والتفقيه والعمل لله تعالى.. وكل هذا فيما أظن منبعه عدم وعي الاسلام وعدم التلقي من كتاب الله.. الذي يعرض في لوحات خالدة هذا التلاحم، والتكامل، والترابط الوثيق بين جوانب شخصية المسلم، ويعضد كتاب الله تعالى، ويصدر
منه كما في باقي مجالات الحديث الوارد عن أهل البيت (ع).. ولنقتصر الآن على ذكر بعض
الآيات الشريفة على أمل ان نعمل في وقت آخر إن شاء الله تعالى على جمع النصوص الحديثية الواردة في خصال المؤمن، وملامح شخصيته.. لكي نعي جيدا هذا الشمول والتوازن، والتكامل في شخصية الانسان المؤمن..

(١) (ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعدا عليه حقا في التوراة والإنجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم (١١١) التائبون العابدون الحامدون السائحون الراكعون الساجدون الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر
والحافظون لحدود الله وبشر المؤمنين) (التوبة / ١١١ - ١١٢)
تبيين الآيتان الترابط بين الجانب الجهادي، والجانب العبادي، والعلمي

(الامر بالمعروف) في شخصية المسلم (١٩).
(٢) (وما كان المؤمنون لينفروا كافة فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين، ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون) (التوبة / ١١٣)
تبين الآية نحوا من الترابط بين الجانب الجهادي، والجانب العلمي، وان كان بالنسبة إلى المجتمع، لا بالنسبة إلى كل فرد.
(٣) (وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما (٦٣) والذين يبيتون لربهم سجدا وقياما (٦٤) والذين يقولون ربنا اصرف عنا عذاب جهنم ان عذابها كان غراما (٦٥) انها ساءت مستقرا ومقاما (٦٦) والذين إذا انفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما (٦٧) والذين لا يدعون مع الله إلها آخر ولا يقتلون النفس التي حرم الله الا بالحق ولا يزنون ومن يفعل ذلك يلق آثاما (٦٨) يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهانا (٦٩) الا من تاب وآمن وعمل عملا صالحا فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات

وكان الله غفورا رحيما (٧٠) ومن تاب وعمل صالحا فإنه يتوب إلى الله متابا (٧١)
والذين لا يشهدون الزور وإذا مروا باللغو مروا كراما (٧٢) والذين إذا ذكروا بآيات
ربهم لم يخروا عليها صما وعميانا (٧٣) والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا
وذرياتنا قرة أعين واجعلنا للمتقين إماما) (الفرقان / ٦٣ - ٧٣)
(٤) (محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعا سجدا
يبتغون فضلا من الله ورضوانا سيماهم في وجوههم من اثر السجود، ذلك مثلهم في
التوراة، ومثلهم في الإنجيل، كزرع اخرج شطأه، فآزره فاستغلظ، فاستوى على سوقه، يعجب
الزراع، ليغيظ بهم الكفار وعد الله الذين آمنوا، وعملوا الصالحات منهم مغفرة واجرا
عظيما) (الفتح / ٢٩)

الاعداد الروحي لتحمل القول الثقيل:

(المنشأ الثاني): للاهتمام الاسلامي بالتربية الروحية وبناء العلاقة بالله تعالى
هو، ان التربية الروحية اعداد لتحمل القول الثقيل، وأعباء طريق ذات الشوكة بما فيه
من تعرض للاغراءات، والضوابط، والمثبطات،

والفتن.. وهذا هو الذي قدره الله تعالى لرسوله الكريم قدر انه سيتعرض (ص) لألوان من
الضغوط الخارجية، والداخلية والاجتماعية والنفسية.. لتعذيب المشركين واستهزائهم واغرائهم، وطول مدة العمل معهم، وتصلبهم على الباطل.. الخ وسيتعرض (ص) إلى تفكك في
الصف، وتزلزل المؤمنين إلى آخر ما هنالك من مكاره، وفتن.. قدر هذا سبحانه كله بالنسبة إلى الرسول (ص) فأعده أولا... وفتح له دورة تربوية روحية شاقة، ولكنها ضرورية، وحاسمة.. فما هي هذه الدورة التربوية الروحية؟ هذا ما تشرحه الآيات الأولى
من سورة المزمل:
(يا أيها المزمل، قم الليل الا قليلا، نصفه أو انقص منه قليلا، أو زد عليه، ورتل القرآن ترتيلا، انا سنلقي عليك قولا ثقيلا، ان ناشئة الليل هي أشد وطأ وأقوم قيلا، ان لك في النهار سبحا طويلا، واذكر اسم ربك وتبتل إليه تبتيلا) (المزمل ١ - ٨)
وقد مر رسول الله بثلاث مراحل من الاعداد والتوجيه والتربية الروحية لتحمل القول الثقيل:
المرحلة الأولى: مرحلة ما قبل الوحي.. من اجل تلقي الكلمة والرسالة إذ كان رسول الله (ص) (يتحنث في غار حراء - قبل البعثة بثلاث سنوات - أي يتطهر ويتعبد - وكان
تحنثه عليه الصلاة والسلام شهرا من كل سنة، هو شهر رمضان يذهب فيه إلى غار حراء
على بعد ميلين

من مكة، ومعه أهله قريبا منه فيقيم فيه هذا الشهر ويطعم من جاءه من المساكين، ويقضي وقته في العبادة، والتفكير فيما حوله من مشاهد الكون، وفيما وراءها من قدرة مبدعة.. وكان اختياره (ص) لهذه العزلة طرفا من تدبير الله له، ليعده لما ينتظره من الامر العظيم.. ففي هذه العزلة كان يخلو إلى نفسه، ويخلص من زحمة الحياة، وشواغلها
الصغيرة، ويفرغ لموجبات، ودلائل الابداع، وتسبح روحه مع روح الوجود، وتتعانق مع هذا
الجمال، وهذا الكمال، وتتعامل مع الحقيقة الكبرى، وتتمرن على التعامل معها في ادراك
وفهم.
(ولا بد لأي روح يراد بها ان تؤثر في واقع الحياة البشرية فتحولها وجهة أخرى..
لا بد لهذه الروح من خلوة، وعزلة بعض الوقت وانقطاع عن شواغل الأرض وضجة الحياة،
وهموم الناس الصغيرة التي تشغل الحياة لا بد من فترة للتأمل والتدبر، والتعاون مع الكون الكبير، وحقائقه الطليقة، فالاستغراق في واقع الحياة يجعل النفس تألفه وتستنيم له فلا تحاول تغييره اما الانخلاع منه فترة، والانعزال عنه، والحياة في طلاقة كاملة من أسر الواقع الصغير، ومن الشواغل التافهة فهو الذي يؤهل الروح الكبيرة لرؤية ما هو أكبر، ويدربه على الشعور بتكامل ذاته بدون حاجة إلى عرف الناس والاستمداد من مصدر آخر غير هذا العرف الشائع..
(وهكذا دبر الله لمحمد (ص) وهو يعده لحمل الأمانة الكبرى، وتغيير وجه الأرض، وتعديل
مسار التاريخ، دبر له هذه العزلة له قبل تكليفه

بالرسالة بثلاث سنوات، ينطلق في هذه العزلة شهرا من الزمان، مع روح الوجود الطليقة، ويتدبر ما وراء الوجود من غيب مكنون، حتى يحين موعد هذا التعامل مع هذا الغيب عندما يأذن الله) (٢٠)

هذه هي فترة الاعداد الأولى في حياة الرسول (ص) وقد كان هدفها ان يصل الرسول (ص)

إلى مستوى تنزل الوحي عليه وان كان (ص) من جهة عامة اهلا لذلك في كل حين.. لم تكن

هذه الفترة من الاعداد بتوجيه مباشر (وحي) من الله.. لأنها اعداد الوحي.. وان كانت بهداية منه تعالى لرسوله الكريم.. واما الاعداد الثاني للرسول (ص) من الزاوية الروحية فهو الاعداد الروحي بعد الوحي من اجل الدعوة والتبليغ، وتنمية القدرة على المواجهة، والصبر، والتحمل، والاستقامة في معامع الطريق.. وهو الذي أمر الله تعالى رسوله به في أوائل سورتي المزمل والمدثر.. وإن كانت في السورة الأولى أوضح وأجلى..

وقد مرت آياتها بنا عن قريب.

ومن الواضح من خلال هذه الآية ان الله تعالى انما يأمر رسوله الكريم بقيام الليل نصفه، أو ثلثه، أو ثلثيه بسبب انه سيلقي عليه القول الثقيل.. وان قيام الليل بهذا المقدار هو أكثر من غيره قدرة على بناء الروح وربطها بالله تعالى لتتحمل القول الثقيل.. ومن الواضح أيضا ان القول الثقيل هنا ليس المراد به الوحي لان الآيات النازلة هي وحي، ومسبوقة بالوحي.. انما المراد به – والله تعالى اعلم – الامر بالتبليغ والدعوة والمجاهرة.. وهو امر ثقيل، بما يلزم عنه من ألوان الاضطهاد الجسمي والنفسي على الرسول (ص) والمؤمنين معه (وان الاستقامة على هذا الامر بلا تردد ولا ارتياب، ولا تلفت هنا أو هناك وراء الهواتف والجواذب، والمعوقات، لثقيل، يحتاج إلى

استعداد طويل - وان قيام الليل والناس نيام، والانقطاع عن غبش الحياة اليومية وسفاسفها والاتصال بالله، وتلقي فيضه ونوره، والانس بالوحدة معه، والخلوة إليه، وترتيل القرآن والكون ساكن، وكأنما يتنزل من الملأ الأعلى وتتجاوب به ارجاء الوجود
في لحظة الترتيل بلا لغط بشري ولا عبارة، واستقبال اشعاعاته وايحاءاته وايقاعاته في الليل الساجي. ان هذا كله هو الزاد لاحتمال القول الثقيل، والعبء الباهظ والجهد المرير الذي ينتظر الرسول وينتظر من يدعو بهذه الدعوة في كل جيل وينير القلب في الطريق الشاق والطويل، ويعصمه من وسوسة الشيطان، ومن التيه في الظلمات الحافة بهذا
الطريق المنير (٢١).
وتذكر بعض الروايات انه (ص) وأصحابه قاموا - بعد أن نزلت أوائل سورة المزمل - الليل
سنة كاملة. وقيل عشر سنين حتى تورمت اقدامهم، فأنزل الله تعالى عليهم التخفيف الذي
في آخر السورة..
ونعني بالاعداد الثالث للرسول (ص) تغذيته الروحية أو التوجيهات الروحية المتكررة من الله سبحانه.. باستمرار مسيرة دعوته المباركة.. وهي آيات مبثوثة في القرآن الكريم، ولعل في جمعها ودراستها هي وآيات الاعداد الثاني خيرا كثيرا للمؤمنين.. وهي على العموم كانت تتنزل من اجل تزويد الرسول (ص) بالطاقة الروحية اللازمة لمواجهة المكذبين والساخرين، والجو المتحجر الذي لا تنمو فيه دعوة الرسول (ص) الا قليلا..
وبالطبع فان هذه التوجيهات لا تقتصر فقط على الامر بالعبادة - بالمعنى الخاص - وانما تشمل مضافا إلى ذلك على التذكير.. والتصبير والامر بالتوكل، إلى غير ذلك من المعاني الروحية الأخرى.

لماذا الاعداد الروحي؟
عرفنا الآن كيف ان الله تعالى قدر لرسوله ان يمر بفترة اعداد روحي من اجل تحمل القول الثقيل.. وان ذلك هو زاد المترسمين خطاه في كل جيل.. ولكن لماذا؟ وما هي علاقة حب الله تعالى، والاخلاص له في خوفه ورجائه وربط القلب به بتحمل المكاره وأعباء طريق ذات الشوكة، وأثقال المسيرة؟
والجواب على ذلك: أن للتربية الروحية علاقة صميمة وارتباطا وثيقا ب (استقامة المسيرة) على خط الاسلام فكريا وعمليا و (بتجاوز فتنة الاضطهاد) والتعذيب الجسمي والنفسي التي يتعرض لها رسول الله (ص) وأصحابه ب (فعالية) علمهم و (تماسك) صفهم..
ولنعرض ذلك بشئ من التفصيل فيما يلي:
١) - التربية الروحية واستقامة المسيرة:
ليس من الهين ان تستقيم مسيرة المؤمنين العاملين في سبيل الله على الخط الذي يرتضيه الله تعالى، ويشترعه الاسلام من الناحية الفكرية المفاهيمية، والناحية العملية والسلوكية.
١) - لان الحضارة الجاهلية والمفاهيم الاجتماعية المادية التي كان يعيش في وسطها أصحاب الرسول (ص) تدعوهم إلى الانحراف.. بسبب انهم أبناء هذه البيئة التي تعيش هذه
المفاهيم الحضارية المادية فمن المعقول ان تؤثر فيهم عن طريق (الوراثة) الفكرية و (الايحاء) الثقافي..

والميل النفسي عند كل انسان إلى التوافق الاجتماعي واتخاذ الأخلاء، ولو عن طريق التنازل الفكري والسلوكي.
٢) - ولأن استعجال النصر.. والنزق واستباق المراحل تدعو هؤلاء المؤمنين إلى التنازل
عن بعض أفكارهم وتليين مواقفهم من اجل أن تجد دعوتهم طريقها إلى قلوب الناس، وتتقدم
في الجو الاجتماعي، ولو على حساب بعض جوانبها الرسالية.
٣) - ولأن الأهواء الشخصية هنا، وهناك قد تتجمع وتظهر في صيغ ثقافية لتعمل على حرف
المسيرة، وتمييع الشخصية الاسلامية الأصيلة، والارتباط بالله سبحانه وبرسالته..
هذه العوامل وغيرها دواع للانحراف ملازمة لكل عمل اجتماعي في عصر الرسول (ص) أو
بعده.. والتربية الروحية شرط ضروري للتعالي على هذه العوامل، والانفلات من تأثيرها لان التربية الروحية تقيم المؤمن في علاقة محكمة مع الله.. يعبده ولا يعبد سواه ويرجوه، ويعمل له لا لغيره.. يتأثر بوحيه، ورسالته، ويقطع صلته (التأثر) بالناس، ويقيم معهم بدل ذلك صلة (التأثير) والتوجيه..
لان الانفصال عن الناس وحضارتهم.. وعن أهواء النفس وشهواتها لا يتم الا من خلال عمل
تربوي جاد يبني الانسان فيه نفسه مع الله ويقطعها به عما سواه (يعبده ولا يعبد غيره، ويرجوه ولا يرجو غيره، ويخافه ولا يخاف غيره).. وبكلمة يقطع قلبه وشعوره وكيانه عن كل شئ عدا الله وما امر الله به (ان يوصل) بهذا وحده يمكن ان تستقيم وتثبت على

خط الاسلام.
ونكرر.. ليست الاستقامة المطلوبة هينة أو يسيره ونزيد هنا.. حتى على رسول الله (ص)
نفسه.. ومن هنا ينقل عنه (ص) انه كان يقول (شيبتني هود) إشارة إلى قوله تعالى في سورة هود:
(فاستقم كما أمرت)
وفي رواية عن ابن عباس (ما نزل على رسول الله (ص) آية كانت أشد عليه، ولا أشق من
هذه الآية ولذلك قال لأصحابه حين قالوا له أسرع إليك الشيب يا رسول الله: شيبتني هود والواقعة) (٢٢).
ولنقرأ هنا مجموعتين من الآيات الكريمة نزلت على رسول الله (ص) من اجل تحصينه – وهو
المعصوم – من الحيف، أو الانحراف عن خط الاسلام.. وهما مجموعتان عجيبتان تدعوان
للتفكير، والدرس، والتأمل الكثير.. بشكل واضح بين الاستقامة على الخط.. والتربية الروحية..
١) – (فلا تك في مرية مما يعبد هؤلاء ما يعبدون الا كما يعبد آباؤهم من قبل، وانا
لموفوهم نصيبهم غير منقوص ولقد آتينا موسى الكتاب، فاختلف فيه، ولولا كلمة سبقت من
ربك لقضي بينهم، وانهم لفي شك منه مريب. وان كلا لما ليوفينهم ربك أعمالهم انه بما
يعملون خبير،

فاستقم كما أمرت، ومن تاب معك ولا تطغوا انه بما تعملون بصير ولا تركنوا إلى
الذين
ظلموا فتمسكم النار، وما لكم من دون الله من أولياء ثم لا تنصرون وأقم الصلاة طرفي
النهار، وزلفا من الليل، ان الحسنات يذهبن السيئات ذلك ذكرى للذاكرين، واصبر فان
الله لا يضيع اجر المحسنين) (٢٣)
٢) - (وان كادوا ليفتنونك عن الذي أوحينا إليك لتفتري علينا غيره وإذا لاتخذوك
خليلا، ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئا قليلا، إذا لأذقناك ضعف الحياة
وضعف الممات ثم لا تجد لك علينا نصيرا.. أقم الصلاة لدلوك الشمس إلى غسق
الليل،
وقرآن الفجر ان قرآن الفجر كان مشهودا، ومن الليل فتهجد به نافلة لك عسى ان
يبعثك
ربك مقاما محمودا، وقل ربي أدخلني مدخل صدق، وأخرجني مخرج صدق، واجعل
لي من لدنك
سلطانا نصيرا..) (الاسراء ٧٣ - ٨٠)
والآيات التالية لها تعلق أيضا بما سبقتها..

٢) - التربية الروحية وتماسك الصف:
تماسك الصف يعتمد على وحدة الأهداف، والمنطلقات ووحدة المشاعر، والتعاطف القلبي..
ويتعرض تماسك الصف إلى عوامل التفتيت، والتجزئة باستمرار.. (اختلاف الآراء، والمصالح الشخصية التي تغلب على المصلحة العامة عند بعض الناس، واختلاف المذاقات
والمشاعر الخ)..
والتربية الروحية.. وبناء العلاقة بالله تعالى - وتنميتها هي دائما في صالح التماسك.. فان التربية الروحية تعمل على ما يلي:
أ - توحيد المنطلق النفسي للمؤمنين في العمل.. (الدافع والهدف).. حب الرسالة، والرغبة في نشرها وتطبيقها مقابل الرغبات الشخصية، والأهداف الذاتية التي تختلف عادة من شخص إلى آخر.
ب - الحب في الله تعالى، حب المؤمنين، والأنس بهم والاخوة فيما بينهم والمشاركة الوجدانية (٢٤).
ج - التقيد بالخلق الإسلامي في التعامل بين المؤمنين.
د - الحرص على المصلحة الدينية والخوف على الرسالة.
هذه المعاني الأربعة وما يتفرع عنها هي أساس التماسك والحصانة من التزلزل والتصدع..
وهي معان لا يبنيها سوى الايمان بالله، والاخلاص

له تعالى، وحبه الذي ينبسط على المؤمنين، وكذلك طاعته، والصبر عليها في مواجهة الأهواء الشخصية ومشاعر الأنا والاستقلال.. وهذه الأمور هي جوهر البناء الداخلي الروحي للمؤمن..

(وما انا بطارد الذين آمنوا انهم ملاقو ربهم ولكني أراكم قوما تجهلون، ويا قوم من ينصرني من الله ان طردتهم أفلا تذكرون) (٢٥)

(ان سرعة ائتلاف الأبرار إذا التقوا، وان لم يظهروا التودد كسرعة اختلاط ماء السماء بماء الأنهار وان بعد ائتلاف قلوب الفجار إذا التقوا وان أظهروا التودد بألسنتهم كبعد البهائم من التعاطف وان طال اعتلافها على مذود واحد).

٣) – التربية الروحية، والثبات على الدين:

وأوضح مما سبق صلة التربية الروحية، والثبات على الدين في الأيام الصعبة، وامتصاص المحن، والحرب النفسية والاضطهاد الجسمي، والنفسي الذي تواجه به الجاهلية أصحاب

الرسول (ص) ومن بعدهم، ومن قبلهم اتباع الرسل والأنبياء ان الصمود في المحن والبلاء.. وفتنة العذاب والمواجهة هو سمة المؤمنين في القرآن الكريم:

(وكأين من نبي قاتل معه ربيون كثير، فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله، وما ضعفوا، وما استكانوا، والله يحب

الصابرين، وما كان قولهم الا أن قالوا ربنا اغفر لنا ذنوبنا واسرافنا في أمرنا وثبت أقدامنا، وانصرنا على القوم الكافرين، فآتاهم الله ثواب الدنيا، وحسن ثواب الآخرة والله يحب المحسنين) (٢٦)
(الذين قال لهم الناس: ان الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم، فزادهم ايمانا، وقالوا: حسبنا الله ونعم الوكيل فانقلبوا بنعمة من الله، وفضل لم يمسسهم سوء، واتبعوا رضوان الله، والله ذو فضل عظيم) (٢٧)
(قال آمنتم له قبل ان آذن لكم انه لكبيركم الذي علمكم السحر، فلأقطعن أيديكم، وأرجلكم من خلاف، ولأصلبنكم في جذوع النخل، ولتعلمن أينا أشد عذابا، وأبقى، قالوا
لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات، والذي فطرنا فاقض ما أنت قاض، انما تقضي هذه الحياة الدنيا، انا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا، وما أكرهتنا عليه من السحر
والله خير وأبقى) (٢٨)

إلى آخر ما هنالك من آيات الصمود الايماني في مواجهة قوى الضغط والعذاب.
كيف أتيح لهذه الأفواج المؤمنة ان تصمد في وجه التحديات، وتواجه الآلام، والاغراءات، والاضطهاد بالصبر والثبات؟ وما هو غذاء أصحاب موسى، وأصحاب الأخدود
الربيين، وأصحاب محمد في رحلة المكاره، والمصاعب؟ وبأي وقود استطاعوا الثبات، والتحدي حتى وهم تحت سياط الجلادين، وقبضة الطغاة؟
كان غذاؤهم، وعزاؤهم، ووقودهم في كل هذه المرحلة الزهد.
(اقض ما أنت قاض انما تقضي هذه الحياة)
وذكر الله، والتوكل عليه، واحتسابه.
(وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل)
(والذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون)
(والله خير وأبقى)
والتطلع إلى ثواب الله تعالى في اليوم الآخر، واسترخاص هذه الحياة الزائلة إلى حيث تلك الحياة الخالدة.. والأفق الواسع في تصور الحياة، ووعي حركتها، وقلة متاع الظالمين.. وهكذا خوف الله واستشعار

مراقبته.. وهذا هو أيضا جوهر التربية الروحية..
وأمثلة الصابرين بالله تعالى في المحنة، والبلاء بسبب عمق صلتهم بالله تعالى، وشديد تعلقهم به كثيرة جدا نعرف الكثير منها، ونجهل الكثير..
سجل القرآن الكريم بعضها وسجل التأريخ بعضها الآخر، وأسدل ستار الزمن على الكثير من
صبر الصابرين في الله. ونحن هنا نستشهد بالمثالين التاليين، في كل تلك الحوادث:
١ – عن الفضل بن شاذان انه (سعي بمحمد بن أبي عمير إلى السلطان: انه يعرف أسامي
عامة الشيعة بالعراق، فأمره السلطان ان يسميهم فامتنع، فجر، وعلق بين (العقارين) نخلتين، وضرب مائة سوط قال الفضل فسمعت ابن أبي عمير يقول: لما ضربت فبلغ الضرب
مائة سوط أبلغ الضرب الألم إلي، فكدت ان اسمي فسمعت نداء محمد بن يونس بن عبد
الرحمن يقول: يا محمد بن أبي عمير أذكر موقفك بين يدي الله تعالى، فتقويت بقوله فصبرت، ولم أخبر، والحمد لله). (٢٩)
٢ – ومن أروع ما يرويه الأصفهاني عن مجموعة الحسنيين التي سجنت من قبل المنصور،
لعدم معرفته بمكان محمد بن عبد الله (ذو النفس الزكية) الذي كان قد بويع بالخلافة سرا منذ العهد الأموي، ما رواه عن علي بن الحسين العابد الذي كان ضمن هذه المجموعة
الصابرة.
(أ) – عن أحد السجناء منهم: حبسنا في المطبق، فما كنا نعرف

أوقات الصلاة إلا بأجزاء القرآن يقرأها علي بن الحسن.
(ب) – وفي رواية: لما حمل بنو الحسن إلى أبي جعفر أتى بأقياد يقيدونه بها، وكان علي بن الحسن قائما يصلي وكان في الأقياد قيد ثقيل، فجعل كلما قرب إلى رجل تفادى
منه واستعفى، فانفتل علي من صلاته فقال: لشد ما جزعتم من هذا.. ثم مد رجليه فقيد به.
(ج) وعن أحد السجناء: لما حبسنا كان معنا علي بن الحسن وكانت حلق أقيادنا قد اتسعت، فكنا إذا أردنا صلاة أو نوما جعلناها عنا، فإذا خفنا دخول الحراس أعدناها، وكان علي بن الحسن لا يفعل فقال له عمه: يا بني ما يمنعك أن تفعل؟ قال: لا والله لا أخلعه أبدا حتى أجتمع انا، وأبو جعفر عند الله تعالى فيسأله لم قيدني به؟
(د) – وعن أحدهم: لما دخلنا السجن قال علي بن الحسن:
(اللهم ان كان هذا من سخط منك علينا، فأشدد حتى ترضى)
(ه) – وعن الحسن بن نصر قال: حبسهم أبو جعفر في محبس ستين ليلة ما يدرون بالليل،
ولا بالنهار، ولا يعرفون وقت الصلاة الا بتسبيح علي بن الحسن، قال فضجر عبد الله (أبو محمد) ضجرة فقال: يا علي، الا ترى ما نحن فيه من البلاء؟ الا تطلب إلى ربك عز وجل ان يخرجنا من هذا الضيق والبلاء؟ قال: فسكت عنه طويلا، ثم قال: يا عم: ان لنا في الجنة درجة لم نكن لنلقيها الا بهذه البلية أو بما هو أعظم منها، وان لأبي جعفر المنصور

في النار موضعا، لم يكن ليبلغه حتى يبلغ منا مثل هذه البلية، أو أعظم منها. فإن تشأ تصبر فما أوشك فيما أحسبنا ان نموت، فنستريح من هذا الغم، كأن لم يكن منه شئ..
وان لم تشأ ان ندعو ربنا ان يخرجك من هذا الغم، ويقصد بأبي جعفر غايته التي له في النار فعلنا قال: لا، بل اصبر. فما مكثوا الا ثلاثا حتى قبضهم الله إليه.. (٣٠)
(ط) – ومن روايات أبي الفرج أيضا، وعن أبي عبد الله ابن موسى قال: سألت عبد الرحمن بن أبي الموالي وكان معه بنو الحسن بن الحسن في المطبق: كيف كان صبرهم على
ما هم فيه؟ قال: كانوا صبراء، وكان فيهم رجل مثل سبيكة كلما أوقدت عليه النار ازدادت خلاصا وهو إسماعيل بن إبراهيم، كان كلما اشتد عليه البلاء إزداد صبرا. (٣١).
هذه بعض الآثار العملية الهامة للجانب الروحي.. وهناك آثار أخرى: فالمؤمن العامل يصدر عن خلفية إيمانية، ورصيد روحي كبير، وعلاقة وثيقة بالله تعالى هو الأكثر اندفاعا، وأنتاجا، والأكثر ثباتا، واستقرارا في ظل المتغيرات الحياتية، من
رفاه، ورخاء إلى محنة وابتلاء ومن انفتاح الناس، وتقبلهم إلى جفائهم، وتكذيبهم، ومن بساطة العمل لله إلى التعقد، والتشابك، ان الايمان وحده بما له من آثار في النفس، والشعور هو وحده القادر على الجمع بين الاندفاع في العمل، والهدوء في المشاعر والتسامي في الوجدان. وهي معان من أصعب المعاني في مجال التربية.
كيف لا ينطلق المؤمن من الإثارة الخارجية؟ وكيف لا تهزه العواطف والمتغيرات؟ وكيف
لا ينشغل بجزئيات الحياة عن الاهتمامات الرسالية

الكبرى؟ وكيف لا يضيق صدره من مواجهات التكذيب والسخرية ويحتفظ بطمأنينة ورباطة
جأشه في أحرج اللحظات؟ وكيف يحتفظ بدرجة اندفاعه، وينمو عنده هذا الاندفاع في
مختلف الظروف والأحوال؟!
وأخيرا.. كيف يحافظ على استقامته الشرعية في معمعة العمل الاجتماعي، وضوضاء الحياة
؟
والجواب: ان كل هذا ليس له سوى منبع واحد.. هو الايمان حينما يثبت في الجوارح كلها
في القلب والمشاعر، والإرادة، والوجدان.
التربية الروحية وعمل الأئمة:
ومن الواضح تاريخيا، ان الأئمة كانوا عموما يعملون به لأجل بناء، وتكوين الشخصية الاسلامية المتكاملة كنقطة مشتركة ضمن النقاط المشتركة في عملهم (ع).. وكانت الشخصية الاسلامية في وعيهم. بوصفهم المعبرين الحقيقيين عن الاسلام هي هذا التلاحم،
والتكامل بين الإطار الأخلاقي الشامل للعطاء الاجتماعي، والعمل الرسالي، وبين المضمون والمحتوى الروحي الذي يتمثل في العلاقة بالله تعالى.
كانوا (ع) يواجهون عملية التحلل الأخلاقي، والانصراف للدنيا والبعد عن الله..
والتنصل عن عبادة الله تعالى، وكانوا يواجهون الانحرافات العملية في الجماعة، التي أفرزها عملهم، عندما حولت بعض قطاعاتهم الولاءات إلى أداة للتنصل عن الالتزام الشرعي، ولتبرير الوضع المتحلل بدلا من أن تفهمه على حقيقته، بوصفه عاملا من عوامل الاستقامة،

والالتزام بالشريعة، وكانوا أولا وأخيرا. ينطلقون من دورهم الايماني في الحياة الذي يتمثل - فيما يتمثل فيه - بتكوين أجيال مؤمنة تحمل الرسالة إلى العالم باستمرار.. فيعملون على ذلك بمختلف الأساليب..

وقد سجلت المجاميع الحديثية النصوص الواردة عنهم حول الايمان والأخلاق والتربية الروحية، حول الشخصية الاسلامية وبنائها فبلغ ذلك من الكثرة مبلغا عظيما.

ونحن هنا نسجل شيئا من تلك النصوص التي تربط بين الولاء، والتشيع لخط أهل البيت (ع)، وبين العلاقة الروحية بالله تعالى:

١) - عن أبي جعفر (ع):

(لا تذهب بكم المذاهب فوالله ما شيعتنا الا من أطاع الله عز وجل) (٣٢)

٢) - عن جابر عن أبي جعفر (ع) (قال: قال لي: يا جابر أيكتفي من ينتحل التشيع ان يقول بحبنا أهل البيت فوالله ما شيعتنا، الا من اتقى الله وأطاعه وما كانوا يعرفون يا جابر الا بالتواضع، والتخشع، والأمانة، وكثرة ذكر الله والصوم والصلاة) (٣٣)

٣) - عن أبي الصباح الكناني عن أبي عبد الله (ع) في حديث:

(ما أقل والله من يتبع جعفرا منكم انما أصحابي من اشتد ورعه، وعمل لخالقه،

ورجا ثوابه، فهؤلاء أصحابي) (٣٤)
٤) – وعنه (ع):
(ليس منا – ولا كرامة – من كان في مصر فيه مائة الف، أو يزيدون، وكان في ذلك المصر
أحد أورع منه) (٣٥)
٥) – وعنه (ع):
(شيعتنا الشاحبون الذابلون الناحلون الذين إذا جنهم الليل استقبلوه بحزن) (٣٦)
٦) – وعنه (ع):
(ان شيعة علي كانوا خمص البطون ذبل الشفاه، أهل رأفة، وعلم، وحلم، يعرفون بالرهبانية فأعينوا على ما أنتم بالورع والاجتهاد)
وعن أبي جعفر (ع):
(انما شيعة علي الحلماء العلماء الذبل الشفاه تعرف الرهبانية على وجوههم) (٣٧)

ومن المناسب ان نذكر هنا ان الجيل الأول للمسلمين قد خرج مجموعة من أهل
العبادة،
والورع والتقوى، كانوا بسببها موضع مدح أهل البيت (ع) إذ يروى عن أبي جعفر
(ع) في
خبر صحيح قال: صلى أمير المؤمنين (ع) بالناس الصبح بالعراق، فلما انصرف وعظهم
فبكى
وأبكاهم من خوف الله، ثم قال: اما والله لقد عهدت أقواما على عهد خليلي رسول
الله
(ص)، وانهم ليصبحون ويمسون شعثا غبرا خمصا، بين أعينهم كركب المعزى يبيتون
لربهم
سجدا وقياما يراوحون بين اقدامهم وجباههم يناجون ربهم، ويسألونه فكاك رقابهم من
النار والله لقد رأيتهم مع هذا، وهم خائفون، مشفقون).
هذه بعض النصوص الشاهدة على أن الأئمة (ع) كانوا يهدفون إلى بناء الشخصية
الاسلامية
بما تتضمنه من عبادة، وايمان، وحب، واخلاص، وكل عناصر الروحية الاسلامية
الأخرى.
ومن هنا فهم (ع) يربطون بين الولاء، وبين التربية الروحية.. وأما دراسة هذا الهدف
ضمن الأهداف العامة للأئمة (ع) من الزاوية التاريخية فلها موضع آخر..
الجانب الروحي والممارسات العبادية
توجد بصدد تحديد نوعية العلاقة بين الجانب الروحي والممارسات العبادية فكرتان
خاطئتان هما:
(١) - الفكرة التي تؤكد على أن الممارسات العبادية هي كل شئ.. وان الجانب
الروحي
انما هو الممارسات العبادية من أذكار، ونوافل، وتبتلات.

(٢) – الفكرة التي تقطع الصلة بين الجانب الروحي والممارسات العبادية، وتفترض ان بامكان الانسان المؤمن ان تكون لديه الملكة الروحية، وان ينمي علاقته الداخلية بالرسالة من دون حاجة إلى المستحبات والأذكار وغيرها من الأمور العبادية الخاصة.
والصحيح ان الممارسات العبادية شئ، والجانب الروحي شئ آخر، وان بينهما صلة وثيقة.. وذلك لان الجانب الروحي انما هو الارتباط النفسي، والروحي بالله تعالى هذا الارتباط والانشداد الداخلي، الذي يؤدي إلى الورع عن الاسلام.. وهذا المعنى هو الذي
يعتبر عنصرا من عناصر الشخصية الاسلامية، أو محتواها الحقيقي، واما العبادة الخارجية فهي ليست المحتوى الحقيقي للشخصية الاسلامية وانما لها دور آخر سنشير إليه.. والاسلام – كتابا وسنة – عندما يولي العبادة الخارجية من أذكار، وصلوات وأدعية.. اهتماما، وتأكيدا، فإنما هو من اجل زيادة الايمان بالله، وحبه، والاخلاص له، وتمثل ما رسمه للانسان في الحياة..
(كتب عليكم الصيام، كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون) (٣٨)
وتؤكد النصوص هذه الحقيقة.. وهي ان المهم انما هو البناء الداخلي والانشداد النفسي،
والعاطفي، والسلوكي بالله تعالى، بل وتحذر من الوقوع في خطأ الخلط بين البناء الذاتي والممارسات العبادية.. لما لهذا الخلط من آثار عملية وفكرية سيئة ومن أوضحها
التركيز على العبادة، والممارسات العبادية، واهمال المضمون الداخلي والتربوي للانسان..

(١) – عن مفضل بن عمرو قال: (كنت عند أبي عبد الله (ع) فذكرنا الأعمال فقلت انا:
ما أضعف عملي، فقال: مه، استغفر الله، ثم قال: ان قليل العمل مع التقوى خير من كثير العمل بلا تقوى (٣٩).
(٢) – عن أبي بصير قال: قال رجل لأبي جعفر (ع): أني ضعيف العمل قليل الصيام ولكني
أرجو أن لا آكل الا حلالا فقال له: أي الاجتهاد أفضل من عفة بطن وفرج؟ (٤٠)
وفي نص صحيح عن أبي جعفر (ع):
(ما عبد الله بشئ أفضل من عفة بطن وفرج) (٤١)
(١) – عن عيسى بن عبد الله انه قال لأبي عبد الله (ع):
جعلت فداك: ما العبادة؟ قال: حسن النية بالطاعة من الوجوه التي يطاع الله منها.. (٤٢)
إلى غير ذلك من النصوص الكثيرة الدالة على هذا المعنى..
اذن فالأساس في الجانب الروحي، والمهم في نظر الاسلام تربويا هو، الصلة الداخلية بالله، والانشداد النفسي والعمل.. لا كثرة العبادة..
هذا من جهة.. ولكن من الجهة الأخرى فان الممارسات العبادية، وكثرة الأذكار، والتنفلات هي جزء مهم من الاسلام وليست إضافة

غريبة عليه، وقد ورد الحث الشديد عليها في القرآن الكريم، والسنة المطهرة، وسجل لنا
التأريخ حرص الأئمة البالغ على أدائها، والقيام بها (٤٣).
ومن الواضح ان الاسلام إذ يؤكد على هذه الممارسات العبادية، فلا يؤكد عليها بما هي
أصوات، وحركات، وطقوس. وانما ينبع تأكيده عليها، لصلته الوثيقة بالارتباط النفسي والروحي بالله سبحانه.. أي بوصفها عاملا تربويا وسببا من أسباب تصعيد الايمان في المشاعر، والعواطف والإرادة.. فهذا الحث الأخلاقي والتشريعي يكشف عن (صلة واقعية) بين الممارسات العبادية والمحتوى الداخلي للشخصية الاسلامية، وهي صلة لا يمكن عمليا - بموجبها - ان نتصور مستوى روحيا جيدا، من دون ممارسة عبادية جادة،
تتمثل في مجموعة من الحركات العبادية والأذكار، والصلوات - المستحبة بالطبع - وهكذا
تلاوة القرآن الكريم، ومتابعة الأدعية، وما شاكل ذلك.
ان من حسنات الاسلام الكثيرة علينا - ومن نعم الله سبحانه - انه كما أوضح لنا الأهداف التربوية كذلك حدد لنا عموما وسائلها، ولم يترك هذا الانسان يتخبط في تحديد الوسائل، والأساليب التي تربطه نفسيا، وشعورا بالغيب، شخص الله سبحانه في تشريعه المنزل: الصلاة والأذكار، والصيام، وتلاوة القرآن الكريم، والدعاء.. كوسائل لتنمية الروح.. وبناء الذات الرسالية وليس بإمكاننا ان نقفز من على الأساليب
الربانية لنصل إلى هدفنا التربوي الخطير. انما نصل إليه بواسطة تمثل هذه الأساليب، وتبنيها عمليا.. وكما أن الممارسات العبادية (عامل)

تربية للبناء الروحي كذلك هي (نتائج) لان العلاقة الداخلية بالله تظهر على السلوك، لا بشكل طاعة، والتزام فقط، وانما عبادة، وخشوع، وتضرع، وأذكار أيضا.. نلخص من كل
هذا.
(أولا): ان الممارسات العبادية ليست هي الجانب الروحي في الشخصية الاسلامية.. ولا
هي المهم المباشر في نظر الاسلام وانما هي جزء مهم من الاسلام.
(ثانيا): أن هناك علاقة وثيقة بين الانشداد النفسي العاطفي، والشعوري، والعملي بالله، الجانب الروحي، وبين الممارسات العبادية لان تكوين الجانب الروحي وتنميته لا يتم من الناحية العملية، ومن زاوية النظرية الاسلامية التربوية إلا من خلال الممارسات العبادية وأمثالها، ونقصد من الممارسات العبادية في كل ما سبق الممارسات
العبادية، التي تمثل العبادات الواجبة المؤداة بصورتها الصحيحة، والفضلى، والعبادات المستحبة.

جنايات على التربية الروحية

نلاحظ: ان الانسان المسلم – وحتى بعض من كتب في هذه المجالات – يعاني من الضعف
الروحي.. وضعف الانشداد النفسي بالله تعالى.. من عوامل ذلك صعوبة التعامل النفسي مع
الغيب لان الانسان بحكم تكوينه المرتبط بالمادة، وانغماسه في الحس ذهنيا، ونفسيا لا يجد من السهل ان يتعالى على ذلك، ويعلق شعوره، وقلبه بالله سبحانه ويقطع نفسه من
الدنيا، ومعانيها الخداعة.. طبيعة المذهب البشري الميال إلى

التفكير الحسي (٤٤) وغرائز الانسان، وشهواته التي تتطلب السرعة، والعجلة في التنفيذ (٤٥) عاملان داخليان لاضعاف التوجه الروحي في المشاعر والوجدان، والإرادة.

ويضاف إلى ذلك، عوامل أخرى تساعد على ضعف البناء الروحي للانسان المسلم:

(١) - الصورة المشوهة التي كونتها الاتجاهات الروحية المنحرفة، إذ يقترن الآن في ذهن الانسان المسلم - أو بعض المؤمنين - التربية الروحية العبادية الكثيرة التي تهدف إلى خلق الروح الاسلامي المشدود إلى الله يقترن هذا باعتزال الناس، والقطيعة الاجتماعية، والتنصل عن المهام الرسالية في الحياة، والنماذج المتدينة، والاتجاهات المنحرفة في التربية الروحية. ان الافراط - لو صح هذا التعبير - في التربية الروحية واختلال التوازن السلوكي على حساب العمل الاجتماعي أدى إلى تفريط هذه التربية، وردود فعل نفسية سلبية تجاهها.

وان توضح المفهوم الاسلامي الصحيح حول الاعداد والتربية الروحية، والعمل على القاء الأضواء على حياة الرسول (ص) والأئمة الصالحين الذين عانوا في العمل الاجتماعي، في

جانبها العبادي المشرق، واقتران الدعوة إلى التربية الروحية بشجب التيارات المنحرفة فيها من الأمور الضرورية، في مواجهة هذا التعامل التاريخي السلبي.

(٢) - الجو الحضاري، والاجتماعي الذي يقوم على أسس أخلاقية،

وفلسفية تختلف عن قيم الاسلام، وأخلاقه وتصوراته عن الحياة ان هذه الحضارات
المادية
التي يشيع تأثيرها في كل مكان لقادرة على أن تستوعب تيارات اجتماعية، وفكرية
مختلفة
وهي لا تمانع مع انتشار هذه التيارات شريطة ان لا يكون لهذه التيارات مضمون
حياتي،
وأخلاقي، أو حضاري جديد يختلف عنها بامكان هذا الانسان المسلم ان يعمل
للاسلام
ويوضح أفكاره كمبدأ اقتصادي واجتماعي.. دون ان يشعره ب (ازدراء) اجتماعي
وحضاري خاصة
إذا فرغ الاسلام من مضمونه الأخلاقي.. اما ان يدعو هذا الانسان المسلم إلى صياغة
انسان جديد.. يقوم على أساس الانشداد النفسي والشعوري، بالله والزهد في الدنيا. أو
هو يبني نفسه على أساس من ذلك، فهذا (نشاز) في وعي الانسان المعاصر الذي
يزدري
بسهولة هذه المفاهيم وهذا عامل مهم من عوامل ضعف البناء الروحي لان للايحاء
الحضاري
والاجتماعي اثرا كبيرا في شخصية الفرد.
(٣) – التحدي الثقافي الغربي للانسان المسلم يفترض على هذا الانسان ان يقوم بعملية
رد على التحدي، والذي يحدث – عادة – في مثل هذه الحالات هو ان يفقد الانسان
المسلم
أصالته، وصدوره عن منبع ثقافي، وروحي أصيل.. وتكون ثقافته، ومواقفه مجرد ثقافة
ومواقف (دفاعية) وهذه مسألة مهمة تدعو إلى التفكير، والتأمل..
عناصر الجانب الروحي
تشتمل الروحية الاسلامية على ثلاثة عناصر رئيسية:
(الأول): الوعي الايماني وتعني – هنا – المدركات الذهنية التي

تتمتع بالاستحضار المستمر، والمعايشة الدائمة من قبل الانسان المؤمن، كالايمان بالله تعالى، واليوم الآخر والشعور بالحركة التاريخية، ووحدة المسيرة.. الخ

(الثاني): الوجدان الاسلامي ويشمل العواطف كحب الله تعالى، وحب المؤمنين، والانفعالات، كالخوف، والرجاء من الله، والغضب له.

(الثالث): الإرادة، والاخلاص، أو الدافع الديني في شخصية الانسان المسلم، الذي ينظم حركة هذه الشخصية وتصرفاتها، ويعتبر الجهاز الحاكم فيها.

وسندرس هذه العناصر إن شاء الله تعالى.. تباعا ثم نسجل بعد ذلك أن شاء الله الوسائل التي وضعها الاسلام لبناء الجانب الروحي وتنميته.

ومنه تعالى نستمد التوفيق والسداد..

الفصل الثاني: الايمان
(الوعي الكوني والرؤى الفكرية)
دور الفكر في الشخصية الاسلامية
الفكر.. هو الصورة الذهنية التي يحملها الانسان عن الواقع الخارجي عن الكون، أصله، ونشأته وتطوره ونهايته، والحياة ومعناها والمجتمع وقوانينه ودور الانسان في هذه الدنيا.. ومسؤوليته فيها وصلة الله تعالى بالعالم.. إلى آخر ما هنالك من موضوعات يتعلق بها الفكر الانساني، والفكر هو أحد أجهزة الشخصية الانسانية، التي تتفاعل فيما بينها، وتتبادل التأثير وهي (الفكرة، العاطفة، الإرادة) ففكر الانسان ليس منفصلا عن عاطفته وأسلوب حياته النفسية وانما هو متصل بها أوثق اتصال، يؤثر فها ويتأثر بها.. ومن هنا كان النمو الفكري للطفل البشري، والمجتمع البشري يؤثر باستمرار في طريقة حياته، وفي قيمه الأخلاقية والحضارية، ودرجة انفتاحه النفسي، ونضجه الانفعالي..
ومن هنا أيضا كانت أجدر الرسالات في التأثير بالناس، وقيادتهم، الرسالة التي تقدم لهم منهجا كاملا شاملا للفكر، والأخلاق، والسوك.. لان الانسان في ظل هذه الرسالة لا يشعر بالانفصال بين فكره، وسلوكه، وبين مفاهيمه بالحياة، وقيمه الأخلاقية ولأن كل جزء من هذه الرسالة يعزز الجزء الآخر ويكمله.
ومن هنا ندرك عظمة هذا الدين الذي تنزل من اجل بناء الانسان، حينما بدأ مشروعه التغييري الجبار من التحرير الفكري للانسان من أوهام

الجاهلية، والابداع وإعادة بنائه العقلي على أساس من وعي كوني جديد، يقوم على أساس
الايمان بالله، الواحد الأحد، المتفرد بالأسماء الحسنى، ذي الطول والنعم باعث الأنبياء والرسل لهداية الناس.. والايمان بمرحلية هذه الحياة، وعود الناس إلى الحياة من جديد، ليروا أعمالهم.
(فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره)
وما أسهل ان ندرك قيمة هذا الوعي الكوني في شخصية الانسان المسلم واثره العميق في
الحياة النفسية لهذا الانسان هذا الوعي الذي يبعث وينمي الاحساس الأخلاقي بالحياة، ويعمل على خلق المشاعر المتعالية على جزئيات الحياة، وصغائر الأمور.. هذا الوعي الذي يقاوم التقييم النفسي للظواهر، والأشخاص، ويوسع الآفاق.. ويخلق طمأنينة النفس،
وهدوء المشاعر، والانفعالات، هذا الوعي الذي ينمي روح التفاؤل بالحياة، والانفتاح عليها، ويترك لأهل الضلال السأم، والتطير، والقلق، والغثيان.. ولا يقتصر الوعي الذي يشيعه الاسلام بين المؤمنين على الوعي الديني الخاص، الذي يتمثل بالايمان بالله، واليوم الآخر بل يتعدى ذلك إلى مجالات أخرى سنأتي عليها إن شاء الله بعد قليل.

الوعي الفكري والفهم

ان الفكر الذي يعتبر عنصرا من عناصر شخصية الانسان المسلم ليس هو (الفهم) والتصديق
الساذج بقضايا الايمان، وتقريرها تقريرا منطقيا، أو عمليا، انما هو الوعي والفكر المستحضر المعاش في الذهن، والمتذكر

باستمرار فهؤلاء الذين يؤمنون بالله تعالى كما يؤمنون بكروية الأرض، ودورانها حول الشمس، ولا يتعاملون شعوريا مع هذه الفكرة الخطيرة.. لا يتمثلون في ذلك الوعي الديني والكوني وانما هم فقط (يفهمونه) ويبقى الوعي لهذا الانسان الذي يفكر في الأشياء، ويحسها من خلال ارتباطها بالله ويتذكر الله باستمرار.

وما يشترط بالانسان المسلم غير ما يشترط في الشخصية الاسلامية ان ما يشترط في الانسان المسلم من اجل ان ينتمي رسميا إلى الاسلام هو، ان يؤمن بالله، ورسوله ايمان فهم، ويعلق هذا الايمان بكلمة الشهادة مثلا لأكثر فهم ولكن ما يشترط في الشخصية الاسلامية، ويعتبر العنصر الأول من عناصرها شئ آخر هو، الوعي الايماني، أو

الايمان بوعي، بمعايشة ذهنية.. بالنظر إلى الأشياء، والعالم من خلال الارتباط بالله تعالى. وبهذه يصبح الفكر الاسلامي شيئا آخر، أو بالأحرى ينتقل إلى مرحلة أخرى هي مرحلة (الرؤية الفكرية) أو (البصيرة) شئ تحسه، وتراه.. وتؤمن به كما تؤمن بالأشياء التي تواجهها، وتقوم في حسك، وعقلك (١) فمثلما ترى نفسك، وأنت تشاهد الأشياء،

وتبصرها.. وينشد ذهنك إليها.. كذلك ترى نفسك، وأنت تؤمن بالله وتؤمن باليوم الآخر

ومرحلية هذه الحياة.

مراحل الاعتقاد

في هذا العالم ناس ملحدون، تمردوا على خالقهم، فأنكروا وجوده، أو عاشوا في هذه الحياة معيشة ضنكا، وفيه أيضا مشككون، قد أتعبتهم

الحيرة، واستحكم فيهم القلق، والتردد.. إلى جانب هؤلاء، هناك مؤمنون بالله تعالى عند حدود (الفهم) ويقررون وجود الله تعالى كما يقررون وجود الحياة على كوكب المريخ،
أو كما يشرحون لك تحول السدم إلى مجرات.. فهم يؤمنون بالله من الناحية الفعلية، والمنطقية، ولكنهم لا يؤمنون به شعوريا، ولا يحسون وجوده المقدس.. وهنالك المؤمنون
الذين تجاوزوا مرحلة (الفهم) إلى مرحلة (الوعي).
وايمان الوعي هو ان تبصر الله في خلقه، وعند نعمه ولا تنساه نسيان شعور بل تعيش وجوده، وتستشعر به تعالى وهناك من يتجاوز مرحلة (الوعي) إلى مرحلة (الاحساس) واليقين، فهم والجنة كمن قد رآها فهم فيها منعمون، وهم والنار كمن قد رآها، فهم فيها معذبون..
وهكذا فمراحل الاعتقاد ثلاثة كما ورد عن الإمام الصادق (ع):
(ان الايمان أفضل من الاسلام، وان اليقين أفضل من الايمان، وما من شئ أعز من اليقين) (٢)
المرحلة الأولى: مرحلة الاسلام، وهي ان تؤمن ايمان (فهم) بشهادة (لا إله إلا الله، محمد رسول الله)، ولا تقتضي هذه المرحلة سوى التصديق بالله تعالى، وكماله وتوحيده، ونبوة الرسول (ص)، وتؤمن اجمالا بما جاء به كما تصدق بالنظريات العلمية
مثلا من دون معايشة ومشاركة، ومن هنا جاء في خبر سماعة عن الصادق (ع):

(الاسلام شهادة ان لا الله الا الله، والتصديق برسول الله (ص) به حقنت الدماء وعليه جرت المناكح، والمواريث، وعلى ظاهره جماعة الناس) (٣)
المرحلة الثانية: مرحلة الايمان، وهي ان تؤمن بالحقائق الدينية الكبرى ايمان (وعي) لا ايمان فهم.. وبالايمان تخرج من مستوى الفهم، والتقدير العقلي لقضية الوجود الإلهي، واليوم الآخر، وارتباط الخلق ببارئه إلى مستوى الوعي ودخول القضية إلى القلب، والمعايشة الروحية، واستشعار الهداية والطمأنينة.
(قالت الاعراب آمنا قل لم تؤمنوا، ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الايمان في قلوبكم).
وفي خبر سماعة عن الصادق (ع):
(.. والايمان الهدى وما ثبت في القلوب من صفة الاسلام، وما ظهر من العمل به، والايمان ارفع من الاسلام درجة..) (٤)
وعن الفضيل بن يسار عن الصادق (ع):
(ان الايمان ما وقر في القلوب) (٥)

يبقى هنا: ان العمل بالشريعة انما هو نتيجة للايمان لأنه من عناصره، ومظهر له لا مخبر.. وبهذا نجمع بين ما دل على دخالة العمل في الايمان، وما دل على خروجه عنه من
النصوص..
ويبقى أيضا: ان من الممكن في مرحلة الايمان ان يقع شئ من الوسوسة، ولا يضر ذلك في ايمان المؤمن، فان الايمان اطمئنان القلب، وعقدة الهداية التي تسري في النفس، وهذا لا يلغيه وقوع خاطرة شيطانية في الذهن.. ففي حديث صحيح عن أبي عبد الله (ع)
قال: جاء رجل إلى النبي (ص) فقال: يا رسول الله هلكت. فقال له: اتاك الخبيث، فقال لك: من خلقك؟ فقلت: الله، فقال لك: الله من خلقه؟ قال: اي، والذي بعثك بالحق نبيا لكان كذا، فقال رسول الله (ص): ذاك، والله محض الايمان (٦) إلى غير ذلك
من النصوص الواردة في عدم منافاة الوسوسة للايمان.
المرحلة الثالثة: مرحلة اليقين، وهي أعلى المراحل وأسماها، وأعزها، وهي مرحلة الاحساس، وانكشاف الغطاء.
(لو كشف لي الغطاء ما ازددت يقينا)
وتحول الغيب إلى شهادة..
وليس هنا وسوسة، أو فراغ، وانما هو تواجد مستمر للقضية في الاحساس، والشعور.
وأنت تستطيع ان تجد الكثير من المؤمنين الذين عاشوا قضية الايمان، ودخل الايمان قلوبهم، وشاع الهدى في نفوسهم، ولكن اليقين امر عزيز لا

يأتي الا للفرد النادر من الناس.. فعن الرضا (ع):
(الايمان فوق الاسلام بدرجة والتقوى فوق الايمان بدرجة واليقين فوق التقوى بدرجة ولم يقسم بين الناس شئ أقل من اليقين) (٧)
ومن نماذج أهل اليقين ما جاء في نص معتبر عن أبي عبد الله (ع):
(ان رسول الله (ص) صلى بالناس الصبح فنظر إلى شاب، وهو يخفق، ويهوي برأسه (تأخذه
سنة من النعاس فيميل رأسه) مصفرا لونه، قد نحف جسمه، وغارت عيناه في رأسه فقال
رسول الله: كيف أصبحت يا فلان؟ قال: أصبحت يا رسول الله موقنا. فعجب رسول الله
من قوله، وقال: (ان لكل يقين حقيقة فما حقيقة يقينك؟ فقال: ان يقيني يا رسول الله هو الذي أحزنني، وأسهر ليلي، واظمأ هواجري، فعزفت نفسي عن الدنيا وما فيها، حتى كأني انظر إلى عرض ربي، وقد نصب للحساب، وحشر الخلائق لذلك، وانا فيهم، وكأني
انظر إلى أهل الجنة يتنعمون في الجنة، ويتعارفون، وعلى الأرائك متكئون وكأني انظر إلى أهل النار، وهم فيها معذبون، مصطرخون وكأني الآن اسمع زفير النار يدور في مسامعي. فقال رسول الله (ص) لأصحابه: هذا عبد نور الله قلبه بالايمان ثم قال:
الزم ما أنت عليه. فقال الشاب: ادع الله لي يا رسول الله ان ارزق الشهادة معك. فدعا له رسول الله (ص) فلم يلبث ان خرج في بعض غزوات النبي (ص) فاستشهد بعد تسعة نفر
فكان هو العاشر) (٨)

ذكر الله

ان مرحلة الايمان التي تمثل الحد الأدنى في الشخصية الاسلامية، ويعيش معها الكثير من المؤمنين.. تتضمن عنصرين: -

الأول: عدم الارتياب، والشك في وجود الله تعالى وأية حقيقة دينية أخرى، لقد بحث المتكلمون في أن الظن وهو الاحتمال الراجح الذي يعاكسه احتمال آخر مرجوح هل يكفي في
تحقق الاسلام، وانتماء الانسان إلى الاسلام؟ وهذا على مستوى البحث الكلامي بحث وجيه.. واما على المستوى التربوي.. فان من الواضح ان أي احتمال معاكس وأي ارتياب في
أي حقيقة دينية فهو يتكافأ مع الحد الأدنى المطلوب في الشخصية الاسلامية.

يقول تعالى:

(انما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله، ثم لم يرتابوا، وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم أولئك هم الصادقون) (٩)

الثاني: ذكر الله.. وذكر الشيء، حفظه في النفس والشعور به، وذكر الله تعالى: هو ان يكون وجدانك، وشعورك ممتلئ به منشدا إليه.. أي ان تعيش خشية الله تعالى في مشاعرك، وتفكيرك، ومن نتائج هذا الحضور الشعوري لله تعالى في ذهن المؤمن ذكره على
اللسان، وتسبيحه وحمده.

فذهن المؤمن وشعوره (ميال) بطبعه إلى ذكر الله تعالى، والارتباط المستمر به..
و (تداعيات) ذهنه تكون عادة إليه تعالى، لان الله تعالى هو (وجهة) حياته ومحور تفكيره، وشعوره وتوجهه النفسي فهو إذا تجددت عليه نعمة ذكر الله، وإذا نزلت به نازلة ذكر الله واسترجع، وإذا أقدم على فعل ذكر الله، وإذا أذنب ذكر الله واستغفر إليه، وإذا نظر إلى ابداع الخلق، وشئ من ملكوت السماوات والأرض ذكر الله، هكذا..
وهكذا فإن أغلب أحاسيسه وأفكاره (تدعوه) إلى ذكر الله تعالى، وهذا هو العيش الشعوري، والحياة الذهنية المؤمنة مع خالق الكون العظيم المتعال.. اما ان يكون الايمان بالله تعالى مجرد كلمة تتردد على الأفواه، وفهم لا يخرج عن دائرة الجزم والتصديق الساذج دون أن يشيع في العقل والشعور والتفكير.. فليس هذا من الايمان في
شئ.. وغاية الامر انه خطوة نحو الايمان.. وأرضية من الممكن ان يبنى عليه الايمان، والذكر..
كان متمم بن نويرة يبكي أخاه مالكا.. يذكره ويبكيه عندما يرى نارا لأنه بذاك يذكر نار أخيه الموقدة إلى الصباح تنتظر الضيوف، ويبكيه، ويذكره كلما رأى قبرا، لقبر ثوى بين اللوى فالدكائك، ولامه صاحبه على ذلك على هذه التوسعة في معايشة ذكرى مالك على
هذا البكاء عند كل قبر.. وكان جواب متمم أبياتا من الشعر يقف إلى الآن عندها الأديب، وعالم النفس والمؤمن الذي يبحث عن تجارب شعورية تشبه تجربة المؤمنين مع
الله:

لقد لامني عند القبور على البكا * رفيقي لتذارف الدموع السوافكي
فقال أتبكي كل قبر رأيته * لقبر ثوى بين اللوى والدكائك

فقلت له: إن الشجا يبعث الشجا * فدعني فهذا كله قبر مالك
ان شدة مقتل مالك في نفس متمم وسعت من نقاط التفاعل الشعوري بين الأخ وأخيه، وأظهرت
الترابطات الخفية بين ما يشاهده ويحسه من قبر، ونار، وغير ذلك، وبين الأخ القتيل.
والمؤمن كذلك مع الله وان شدة تعلقه بالله تعالى وانشداده إليه يجعله دائم الذكر له سريع الادراك.
للترابطات الموجودة بين الأمور المحسوسة من حوادث وأشياء، وظواهر، وبين الخالق العظيم.
ان تجربة ذكر الله تعالى، ومعايشته الشعورية والذهنية تقوم على أساس توسعة المثيرات الباعثة للذكر شعوريا.. فبينما لا يتذكر الانسان العادي الله الا عند حوادث استثنائية فان الانسان المؤمن، يذكره عند عدد كبير جدا من الحوادث، والظواهر، والأشياء، والافعال.. من خلال ادراكه للترابطات الخفية والظاهرة بين هذه الأمور وبين الله – ويفترق هنا الانسان المؤمن مهما بلغ من الانشداد إلى الله تعالى عن الانسان المتصوف المغالي في العمليات التصوفية. إذ يحتفظ الانسان المؤمن بقدرته العقلية على التمييز بين (ما يذكره) بالله تعالى، وبينه سبحانه دون ان يوحد بين المذكر والمذكر به. اما الانسان الصوفي الذي يغالي في التصوف فهو يفقد قدرته العقلية على التمييز ويؤكد – في شطحاته – وحدة المخلوقات مع الخالق.
هذا وبما ان حالة التواجد الشعوري المستمر لفكرة الايمان بالله تعالى في

النفس امر غير ممكن – عمليا – فلذا كان ما يربي عليه القرآن الكريم هو، ان نذكر الله ذكرا كثيرا مع إتاحة الفرصة للذكر المستمر.. الدائم لله:
وقد تنوع الحث القرآني على ذكر الله تعالى:
(١) – ذكر الله كثيرا:
(واذكر ربك كثيرا)
(يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكرا كثيرا) (١٠)
(٢) – ذكره تعالى عند الذنب:
(والذين إذا فعلوا فاحشة، أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله، فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب الا الله) (١١)
(٣) – ذكر الله في مواطن العبادة وأوقاتها:
(فإذا أفضتم من عرفات، فاذكروا الله عند المشعر الحرام) (١٢)
(وسبح بالعشي والابكار)
(وسبحوه بكرة وأصيلا)
(٤) ذكره تعالى في الشدة والبلاء:

(يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيرا) (١٣)
(والذين إذا أصابتهم مصيبة، قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون) (١٤)
(٥) - ذكره تعالى عند التذكير:
(والذين إذا ذكروا بآيات ربهم لم يخروا عليها صما وعميانا) (١٥)
(انما يؤمن بآياتنا الذين إذا ذكروا بها خروا سجدا) (١٦)
(٦) - ذكر الله تعالى بصورة مطلقة.
(واذكر ربك في نفسك تضرعا وخفية) (١٧)
إلى آخر ما ورد من الحث على ذكر الله، واستحضاره في مختلف مجالات حياة الانسان.
وهذه الآيات الكريمة اما ان تحث على الذكر الذهني لله تعالى بشكل مباشر أو انها تحث
على الذكر اللفظي، ليكون ذلك سببا للذكر الذهني وعلى أي حال فهي لا تهدف إلى اللفظ
وتكرار الأصوات، وانما إلى الذكر الحقيقي، والمعايشة الذهنية..

من عطاء الذكر
قلنا ان ذكر الله هو المعايشة الشعورية له، والاحساس بوجوده المقدس باستمرار. وللذكر هذا آثار عظيمة في شخصية الانسان المؤمن. نذكرها فيما يلي:
١ - أن ذكر الله تعالى شعور بمراقبته، ورصده لافعال العبد وتصرفاته وفي هذا قوة عظيمة (دافعة) على الالتزام والتقيد بالحدود، والقيود الاسلامية عن أبي عبد الله (ع):
(من أشد ما فرض الله على خلقه ذكر الله كثيرا.. ثم قال: لا أعني سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله والله أكبر، وان كان منه، ولكن ذكر الله عندما حل وحرم، فان كان طاعة عمل بها، وان كان معصية تركها) (١٨)
وفي هذا الخبر دلالة واضحة على أن المفهوم السليم للذكر هو ذكر الله في النفس خيفة،
وتضرعا وان كان للذكر اللفظي دور، وأهمية تربوية كما مر.
٢ - ان تجاوز الأشياء الحاضرة المتناهية، والعيش الشعوري مع الله تعالى يخلق حالة التعالي، والتسامي في شخصية الانسان المسلم، هذه الحالة التي تعد من أكبر مميزاته الشخصية، وسماته الذاتية.. فان من يعيش

حلاوة الذكر ويتنعم باستشعار الله تعالى يقترن ذلك لديه الشعور بالتعالي، والتسامي على صغائر الأمور وجزئيات الحياة التي تشغل هم الناس وتقع موردا لتنافسهم، وتصارعهم.

٣ - وهذا (التجاوز) الشعوري، والتعالي، والتسامي في المشاعر، والمدركات هو الذي يخلق في شخصية الانسان المسلم حالة أخرى هي (الاطمئنان)، والاستقرار النفسي و (السكينة)، و (الوقار) - في مفهومه الأخلاقي الأصيل - قال الله تعالى:

(الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله الا بذكر الله تطمئن القلوب) (١٩)

والسبب في الاطمئنان بذكر الله تعالى.. هو ان الاستقرار النفسي، أنما يتحقق للشخصية

فيما إذا ارتبطت شعوريا بمنطلقات غير متغيرة. أما إذا أنشدت إلى أشياء متحركة، مضطربة، فان هذا الاضطراب سينعكس على النفس بصورة قلق على شئ يخشى زواله، أو شئ

يخشى وقوعه، وبصورة خوف، وهم، وحزن.. وجزع.. والمؤمن إذ يعزف عن الدنيا، ويكفر

بقيمها الفانية، ويعيش شعوريا مع الله.. ويرتبط نفسيا به، فان الاستقرار عندئذ هو النتيجة الطبيعية المترتبة على ثبات الله تعالى الذي تتعلق به النفس، والشعور.

(يا أيتها النفس المطمئنة ارجعي إلى ربك راضية مرضية فادخلي في عبادي وادخلي جنتي) (٢٠)

(ان الانسان خلق هلوعا، إذا مسه الشر جزوعا وإذا مسه الخير منوعا، الا المصلين) (٢١)
٤ - ويتعرض الانسان في مسيرته إلى ألوان من المكاره والمضايقات، والوحدة والغربة،
إذ يتفرق الناس عنه ويسخرون منه، ويكذبونه، ويعيشون في عالم غير ما يعيش فيه..
وهنا قد ينتهي إلى (ضيق) نفسي يمنع عقله من الحركة ونفسه من الانطلاق، وارادته من
الثبات والصمود، وقد ينتهي به هذا الضيق إلى (اليأس)، و (التشاؤم)، والشعور بالضعف،
والانكسار، والذي يعالج هذه الحالة ويبعث في النفس الانفتاح، والتفاؤل، ويجدد لها
حيويتها، ونشاطها واندفاعها في حقول العمل لله.. والجهاد في سبيله هو ذكر الله..
واستشعاره، والاحساس به كما يوجه إلى ذلك ويدل عليه الاعداد القرآني للرسول (ص) في
لحظات المعاناة من التكذيب، والسخرية فاقرأ هذه الآيات المباركة، ولاحظ كيف تعالج
حالة (الضيق) النفسي بذكر الله تعالى.. واستشعاره والاحساس به.
(فاصبر على ما يقولون، وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس، وقبل غروبها، ومن آناء الليل
فسبح، وأطراف النهار لعلك ترضى) (٢٢)
(فاصبر ان وعد الله حق، واستغفر

لذنبك، وسبح بحمد ربك بالعشي والابكار) (٢٣)
(فاصبر على ما يقولون وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس، وقبل الغروب، ومن الليل فسبحه،
وادبار السجود) (٢٤)
المكانة الشعورية للحياة في نفس المؤمن
ان أشياء الحياة، وظواهرها، تدرك في شعور المؤمن في سياق مركب شامل يضم أطراف
الوجود كله من حيث المبدأ والغاية، والسنن الجارية فيه وفي هذا المركب الشامل الذي
يضع المؤمن فيه أشياء الحياة، وظواهرها سوف يعطي كل شئ منها، قيمته الحقيقية فلا (يحقر) ولا (يصم).
وقد نشأ في أطوار الحضارة المادية، وحتى في الحضارة المادية المعاصرة اتجاهان مختلفان، يمثلان الانعكاس الطبيعي للنظرة المادية إلى العالم.
(الأول): الاتجاه القائم على تصنيم ظواهر الحياة وبالخصوص ما يتعلق منها بالهوى، والشهوة ومن هنا أصبحت عبادة الدنيا البديل الطبيعي عن عبادة الله، والتواجد الشعوري للدنيا في نفس الانسان بديلا عن التواجد الشعوري لله، وحقائق الوجود الكبرى.

(الثاني): الاتجاه القائم على تحقير الحياة، وتفريغها من أي معنى وهنا يشعر الانسان بالغربة في هذا الوجود والعبث، والغثيان، والقلق، الخ.
نتيجة لعدم الايمان بارتباط هذا الكون بمبدأ وغاية وجودية والانسان المؤمن في ارتباطه بالله عز وجل وتعامله مع العالم من خلال التصور الاسلامي له يضع الأشياء، والحياة في مواضعها الطبيعية ويمنحها القيم التي تستحقها.
فلأنه يدرك ان كل هذه الظواهر الكونية اعراض وجودية – لو صح التعبير – وان الحقيقة
الوجودية الكاملة التامة هي الله، والله وحده وان كل ما في الكون يأتي ويروح وكل شئ فان، وان أشياء هذه الحياة من أموال وبنين، ونساء ليس لها قيمة الا من خلال كونها (نعما) الهية، ووسيلة خير فهو – لهذا – لا يمكن ان يصنم هذه الأشياء، والظواهر ولا يمكن ان تحتل في شعوره وتفكيره ما يحتله الله تعالى.
ولأنه يدرك ان هذا الكون هو فعل الله تعالى وان الحياة نعمة من نعمه، هي وما فيها من أشياء، وانها يمكن ان تكون طريقا، ووسيلة تنتهي به إلى خير دائم.. وسعادة أبدية يغطيها رضوان الله تعالى. فهو لا يمكن بحال أن (يحقر) الحياة أو يتعامل معها – والعياذ بالله – كعبث لا معنى له.
ولأنه يدرك، ويعلم بان هذه الحياة مرحلة من الحياة كلفه الله تعالى فيها، واختبره واستخلفه للقيام بدور معين ونمط معين من السلوك والاعتقاد، فهي ليست لديه تحللا من
القيم، وانهماكا في اللذات، وركضا وراء الشهوة، والأهواء.

وهكذا فان لدى المؤمن ثلاثة احساسات تجاه الحياة:
١ - الاحساس بهذه الحياة ك (نعمة الهية) وخير الهي يتفضل به الله على هذا الكائن الفقير.
وهو احساس لا ينتهي إلى (الشكر) فقط، وانما إلى الانفتاح النفسي على الحياة، والتجاوب الشعوري معها أيضا وبعض الناس ينظرون إلى النعم الإلهية من مال وبنين ونساء.. بنظر شؤم، وتطير.. لأنها في اعتقاده هي مصائد الشيطان، وحبائل مكره، وخدعه
وهذا خطأ.. فان أشياء هذه الحياة نعم الله.. وخيره، وبركاته، وتفضلاته على الناس.. وحبائل الشيطان، وخدعه ليست هذه الأشياء بذاتها.. وانما هي أهواء النفس المرتبطة والمتعلقة بها.
٢ - الاحساس بهذه الحياة كمرحلة عابرة في مسيرة الحياة تمهد إلى حياة دائمة خالدة،
والاحساس بقصر مدتها وحركة أحداثها، وعدم استقرارها لاحد.. وهي بهذا تسمى (دنيا)
لأنها أدنى من أن تمتلك قلب المؤمن أو تكون محطا لعبادته، وهواه.
وتربية هذا الاحساس من أهم ما حاوله القرآن الكريم والهداة المعصومون (ع) باعتباره من قمم الاحساسات والمشاعر الايمانية التي بتميز بها الانسان المؤمن..
(أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة؟ فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة الا قليل) (٢٥)

(انما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس، والانعام، حتى إذا اخذت الأرض زخرفها، وازينت، وظن أهلها انهم قادرون عليها
اتاها أمرنا ليلا، أو نهارا، فجعلناها حصيدا كأن لم تغن بالأمس، كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون) (٢٦)
(وفرحوا بالحياة الدنيا، وما الحياة الدنيا في الآخرة الا متاع) (٢٧)
(واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض، فأصبح هشيما تذروه الرياح وكان الله على كل شئ مقتدرا، المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير املا) (٢٨)
(وما هذه الحياة الدنيا الا لهو ولعب وان الدار الآخرة لهي الحيوان لو كانوا يعلمون) (٢٩)
وهناك آيات كثيرة تؤكد هذا المعنى، وهناك عدد هائل من النصوص

الواردة في تصوير عرضية الحياة الدنيا وزوالها.. وكونها منطقة عبور، وممر للآخرة، ومرحلة تمهيدية لها.. والغرض من هذا ليس (تفهيم) المسلمين هذه القضية الواضحة لديهم، وانما (تحسيسهم) بذلك وتوعيتهم عليه حتى تكون لديهم (بصيرة) من بصائرهم
ورؤية فكرية واضحة لديهم تهديهم الطريق، وتدفعهم إلى العمل.
ان وعي الحياة الدنيا على حقيقتها، والاحساس بنهايتها ومرحليتها هو الطريق الطبيعي لانهاء حالة الركون إلى الدنيا، ومعانيها، والركض وراءها والهم لها.. يضيع الانسان المؤمن أحيانا في هذه الدنيا.. فتراه يبني له أحلاما واسعة، يستهدف بها الجاه، والمركز.. والمجد والذكر الحسن عند الناس، وينهمك في هذه الحياة.. فيتصارع مع اخوته
على معان زائفة فيها.. لماذا؟ لأنه يفتقد في هذه اللحظات أحاسيس المؤمنين، ومشاعرهم ولا يملك فعلا وعيا كونيا عاما يهديه الطريق ويحدد له القيم الكبيرة لمعاني الايمان، والقيم الصغيرة لتوافه الحياة الدنيا، ومعانيها المبتذلة.
ان مشكلة الانسان المسلم، وكل انسان أن يفهم أكثر بكثير مما يعي، ويعيش في مداركه،
ومشاعره، ويعي أكثر مما يطبق، وينسجم نفسيا مع ما يعيه، ويشعر به.
ان هذا الوعي بعرضية الحياة الدنيا، ومرحليتها لا يعطي قيمته في مقام العمل الاعتيادي.. وانما أيضا في مجال المواجهة، والتصدي لاضطهاد الجاهلية وسخرية الناس
واستهزائهم، ومن هنا أكد عليه القرآن الكريم في عملية إعداد الرسول (ص) في موارد متعددة.

(واصبر على ما يقولون، واهجرهم هجرا جميلا. وذرني والمكذبين اولي النعمة، ومهلهم
قليلا. ان لدينا أنكالا، وجحيما، وطعاما ذا غصة، وعذابا أليما) (٣٠)
(لا يغرنك تقلب الذين كفروا في البلاد. متاع قليل ثم مأواهم جهنم، وبئس المهاد)
(٣١)
(فاصبر صبرا جميلا.. انهم يرونه بعيدا. ونراه قريبا. يوم تكون السماء كالمهل.
وتكون الجبال كالعهن. ولا يسأل حميم حميما) (٣٢)
ان تنمية الوعي الكوني، وتوسيع أفق المؤمن، وأطار تفكيره من أهم ما يعتني به القرآن الكريم.. وذلك أن شخصية الانسان تنمو بمقدار توسع آفاقه، ونمو وعيه الكوني الكلي الشامل، فأنت إذ تتحسس الحياة بشمولها وتعي هذه الحياة مرحلة عابرة. وتعيش هذا الوعي فسوف ترى كم يكون الطغيان تافها، وكم يكون الطغاة صغارا في الحساب التأريخي، وحساب الحياة في شمولها وسعتها.. وحساب الكون، وخالق الكون.. وسوف تبصر
بعينيك القيمة الصغيرة لكل جاهلية، وللجاهلية كلها في حساب الحياة.
٣ - الاحساس بالحياة الدنيا على انها دار فتنة واختبار، على انها مرحلة لاختبار الفعالية البشرية، وأخلاقية هذا الانسان في مقام عبوديته،

وتعامله مع الله، ودوره في هذه الحياة.
(الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا، وهو العزيز الغفور) (٣٣)
(وان اليوم عمل ولا حساب، وغدا حساب، ولا عمل)
ذكر الموت والاحساس بالآخرة
ولا تنفصل عملية الاحساس بمرحلية الحياة الدنيا وعرضيتها عن الاحساس بالموت، واليوم
الآخر.. ويمكن ان نعد كل هذه الأحاسيس احساسا واحدا.. بنظرة إلى الحياة نظرة شاملة وبعيشها بشمولها هذا الذي يستوعب الحياة الدنيا، ومرحلة الانتقال، والمرحلة الأخيرة الأبدية.
وقد حفل نهج البلاغة بالوعظ، والتذكير بحقيقة الدنيا والموت، والآخرة، لان عصر الإمام (ع) كان يعيش طغيان الروح الدنيوية والركون إلى الحياة الدنيا، وكانت المهمات التي أناطها (ع) بالأمة آنذاك مع ظروفها النفسية، وحديثه في تطبيق الاسلام بصورته الأصيلة تستدعي الكثير من الوعظ والتذكير.. هذا كله مضافا إلى أنه (ع) كان بصدد بناء

الشخصية الاسلامية الذاكرة والمذكرة في الخضم المتلاطم من المسلمين الذين لم يحسن
تربيتهم أحد:
كان (ع) يقول: -
(وأوصيكم بذكر الموت، واقلال الغفلة عنه، وكيف غفلتكم عما ليس يغفلكم؟ وطمعكم فيمن
ليس يمهلكم، فكفى واعظا بموتى عاينتموهم حملوا إلى قبورهم غير راكبين وانزلوا فيها
غير نازلين، فسابقوا - رحمكم الله - إلى منازلكم التي أمرتم ان تعمروها، والتي رغبتم فيها ودعيتم إليها، واستتموا نعم الله عليكم بالصبر على طاعته والمجانبة لمعصيته فإن غدا من اليوم قريب ما أسرع الساعات في اليوم، وما أسرع الأيام في الشهر، وما أسرع الشهور في السنة، وأسرع السنين في العمر) (٣٤)
(وأحذركم الدنيا فإنها منزل قلعة، وليست بدار نجعة قد تزينت بغرورها وغرت بزينتها دار هانت على ربها، فخلط حلالها بحرامها، وخيرها بشرها، وحياتها بموتها، وحلوها بمرها، لم يصفها الله تعالى لأوليائه، ولم يضن بها على أعدائه،

خيرها زهيد، وشرها عتيد.. واسمعوا دعوة الموت وآذانكم قبل ان يدعى بكم إن الزاهدين
في الدنيا تبكي قلوبهم، وان ضحكوا، ويشتد حزنهم، وان فرحوا ويكثر مقتهم أنفسهم وان
اغتبطوا بما رزقوا قد غاب عن قلوبهم ذكر الآجال، وحضرتكم كواذب الآمال، فصارت
الدنيا أملك بكم من الآخرة، والعاجلة اذهب بكم من الآجلة) (٣٥)
وفي كلام طويل عن وصف المتقين، يقول (ع):
(اما الليل فصافون اقدامهم، تالين لاجزاء القرآن يرتلونها ترتيلا.. فإذا مروا بآية
فيها تشويق ركنوا إليها طمعا، وتطلعت نفوسهم إليها شوقا، وظنوا انها نصب أعينهم،
وإذا مروا بآية فيها تخويف أصغوا إليها مسامع قلوبهم، وظنوا ان زفير جهنم، وشهيقها
في أصول آذانهم) (٣٦)
الوعي الكوني
إلى الآن تحدثنا عن الوعي الكوني في شخصية الانسان المسلم، ويتمثل في الأساس بوجود
الله تعالى، وارتباط الاحداث، والأشياء به وتذكره، ومعايشته الشعورية، وفي الادراك
- بوعي - لمرحلية هذه الحياة،

والاحساس بالموت. (انك ميت وانهم ميتون) وبالحياة الأخرى.
ونستدرك هنا ونضيف الاحساس بحكمة الحياة والتقدير الشامل في الوجود، والاحساس بهذين
الامرين (التقدير، الحكمة) دور حياتي مهم قد تأتي الإشارة إليه فيما بعد عند الحديث عن الرضا بالقضاء، والقدر.
وقد قلنا سابقا، ان كل انسان مسلم يؤمن بهذه الأمور، ويفهمها، ومهمة الاعداد الروحي الذي يهدف إلى بناء الشخصية الاسلامية التي لا يكفي فيها ان تفهم وتؤمن بهذه
الأشياء وانما هو (تحسيس) المسلم بهذه الأشياء وتوعيته الوجودية.. التي يوسع من خلالها أفقه، ويرتبط بالله تعالى، وينمي من شخصيته باتجاه النصح، وامتلاك النفس امام صغائر الأمور، وتفاهات الحياة الدنيا، وخلق حالة الطمأنينة النفسية،
والاستقرار الانفعالي، وغير ذلك من الأمور، والمعاني النفسية: التي لا يمكن بناؤها، وتربيتها الا من خلال التوعية الوجودية، والتحسيس بالحقائق الوجودية الكبرى التي تدرك الشخصية الاسلامية من خلال ادراكها والتحسس بهذه الأشياء في إطار شامل،
ونظرة كلية وتعيها في سياقها الوجودي، وارتباطاته الكونية الثابتة.
و (التوعية) الوجودية في المنطق التربوي الاسلامي هي منطلق التغيير ومبتدأه الأساسي، الذي يقوم عليه التغير الاسلامي، والتربية الاسلامية. والتربية التي تنطلق من
التوعية على الله، وتقديره، وحكمته والتحسيس بالحياة نعمها، وفتنها، والمسؤولية فيها، وبالآخرة نعيمها، وعذابها وغير ذلك من عناصر الوعي الكوني الاسلامي، هي التربية السليمة الأمينة

التي لا يخشى من نتائجها وآثارها لا من الناحية الدينية، ولا من الناحية النفسية، ولا من الناحية الجهادية.

ونشير أخيرا إلى أن التربيات المعاصرة الممثلة للحضارة الغربية، وقيمها يتوزعهما اتجاهان كل منهما يتناقض مع التربية الاسلامية ذلك أن أحدهما يقوم على أساس اهمال
التوعية الوجودية، أو التحسيس الكوني الشامل مدعوما باتجاه فلسفي، وضعي، يميل إلى
التعرف على المعاني الكلية الشاملة، ويقصر دور الانسان المعرفي والادراك البشري في حدود الجزئي والواقع ان هذا الاتجاه الفلسفي (اتجاه الوضعية والوضعية المنطقية) اتجاه مرفوض من الزاوية المنطقية وفهما اجتماعيا باعتباره اتجاها فكريا، يقصد
من ورائه تثبيت الواقع الغربي الراهن، وتجميد قوة الرفض، والثورة التي لا يمكن ان تقوم الا على أساس فكرة شاملة تخرج عن الإطار الضيق للجزئيات، والوقائع الحياتية الحاضرة بحيث تحدد الممكن والضروري.. والسليم من وجهة نظر السياق العام للتاريخ،
والطبيعة، والمنطق الأخلاقي، وهي معاني مستحيلة من وجهة النظر الوضعية.

والاتجاه الآخر يقوم على أساس التوعية الالحادية.. في:

١ - انكار وجود الاله الحكيم.

٢ - وقصر حياة الكائن الانساني في حدود هذه التجربة الضيقة من الحياة.. وهي توعية
لا تفرق - من حيث الآثار السلبية - عن التوعية الأولى القائمة على أساس تحديد الأفق البشري داخل الإطار الحسي، والجزئي، إن لم تزد عليها في السلبيات.

ونحن هنا لا نريد ان ندرس الاتجاهات التربوية المعاصرة، بل ولا حتى الاتجاه التربوي الاسلامي من الزاوية العلمية.. لان أسلوب هذا البحث وهدفه ينحصران داخل الإطار العملي ولا يتصلان بحال بالأبحاث العلمية والجوانب النظرية.. وانما يهم هنا ان نشير إلى طابع (التجاوز) تجاوز الأطر الحسية، والجزئية، الذي يتمثل بالتوعية الاسلامية الوجودية حيث يستعلي الانسان المسلم على هذه الأطر، ويتعامل مع الكائن الوجودي المحض الذي يميزه عن عرض المادة، وهيمنة الحس البشري. وهو يحقق بذلك مرحلة جديدة
للانسان تترك وراءه كل المراحل ضيقة الأفق، محدودة الشعور.. وفي طابع (التجاوز) على
الأطر الحسية، و (الشمول)، وادراك الأشياء في سياق كلي، ونظرة شاملة و (المعنى) الذي
يضيفه الاسلام على الحياة، والترابطات التي تحكم الاحياء، والأشياء، تلخص سمات الوعي الاسلامي للكون والحياة، وهي سمات ذات اثر خطير على الحياة النفسية للانسان
المسلم. وقد يمكن تلخيصه في الانفتاح على الحياة، وفي عدم تصنيمها وعبادة ما فيها من أشياء، وفي الاستقرار النفسي، وروح الالتزام الأخلاقي التي يبعثها التعامل الشعوري مع الله ذي الأسماء الحسنى وكل سمات الخير، والجمال.

الوعي التاريخي

والى جانب التحسيس الوجودي، والتوعية الكونية، يقوم القرآن الكريم، والسنة المطهرة بعملية توعية تاريخية تحسس الانسان المسلم بمجموعة من القضايا التاريخية التي تتصل
بالنشاط الانساني التاريخي، والصراع بين الحق والباطل، والهدى والضلال في التاريخ البشري.

ونستعرض هذه القضايا بشئ من الشرح، والتفصيل فيما يلي من نقاط:
أ – الشعور بحركة الاحداث:
قد يمر الانسان بمرحلة تاريخية تنغلق فيها أبواب العمل وتتجمد فيها حركة الدعوة، يغلب فيها الباطل في جولة خاطفة مع الحق، ويجد الجاهلية في حالة من القوة والسيادة والتمكن في الأرض، ويجد أهل الجاهلية يتقلبون في الأرض ويعثون فيها الفساد بلا رادع
ولا معارض، والمؤمنون إلى جانب هذا مستضعفون محاربون من كل حدب وصوب ومضيق عليهم في
كل جوانب حياتهم الايمانية.
قد يمر الانسان المؤمن بهذه المرحلة، ويجمد عقليا بهذه الفترة القصيرة من عمر الزمن، وعمر الحياة.. ويفكر بهذا الوضع على أنه امر واقع، لا مفر منه، ولا دافع له ويخلده ويصنمه. وهو في هذه اللحظة يجمد التاريخ ويثبت ظواهره الفانية الزائلة.
والقرآن الكريم يعالج هذه الحالة فيما يعالجها عن طريق التحسيس بحركة التاريخ، وحركة الاحداث، والظواهر التاريخية.. وعن طريق توسيع أفق الانسان المسلم وتكوين العقلية التاريخية لديه، وتعليمه على أن يفكر في هذه اللحظات، بما هو جزء من مسلسل
الحدث التاريخي المتغير باستمرار، والمتحرك على الدوام. ومن اجل هذا الهدف التربوي
الكبير نفسر مجيء الكثير من القصص التاريخية في القرآن الكريم.

(لا يغرنك تقلب الذين كفروا في البلاد، متاع قليل ثم مأواهم جهنم، وبئس المهاد)
(٣٧)
(وان يكذبوك، فقد كذبت قبلهم قوم نوح، وعاد، وثمود، وقوام إبراهيم، وقوم لوط، وأصحاب مدين، وكذب موسى فأمليت للكافرين ثم اخذتهم فكيف كان نكير، فكأين من قرية
أهلكناها، وهي ظالمة فهي خاوية على عروشها، وبئر معطلة، وقصر مشيد، أفلم يسيروا في
الأرض؟ فتكون لهم قلوب يعقلون بها، أو آذان يسمعون بها، فإنها لا تعمى الابصار، ولكن تعمى القلوب التي في الصدور) (٣٨)
(وكأين من قرية أمليت لها وهي ظالمة ثم اخذتها والي المصير) (٣٩)
(وقال فرعون يا أيها الملأ ما علمت لكم من إله غيري فأوقد لي يا هامان على الطين، فاجعل لي صرحا لعلي اطلع إلى إله موسى، واني لأظنه من الكاذبين، واستكبر هو وجنوده
في الأرض بغير الحق، وظنوا أنهم

إلينا لا يرجعون فأخذناه، وجنوده، فنبذناهم في اليم، فانظر كيف كان عاقبة
الظالمين) (٤٠)
(ان قارون كان من قوم موسى فبغى عليهم وآتيناه من الكنوز ما ان مفاتحه لتنوء
بالعصبة اولي القوة. إذ قال له قومه لا تفرح ان الله لا يحب الفرحين.. قال: انما
أوتيته على علم عندي أولم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه،
وأكثر جمعا؟ ولا يسئل عن ذنوبهم المجرمون) (٤١)
هذا وتحفل النصوص الواردة عن أهل البيت (ع) في تركيز تربوي، يعمق للاحساس
بحركة
الاحداث وهي الآيات القرآنية تهدف إلى ذلك بالنسبة إلى جهتين: جهة أصحاب
السلطان،
والغنى، وأهل النعمة، والثراء.
والجهة الأخرى، هي الجهة المؤمنة المجاهدة التي تتعرض لألوان الاضطهاد،
والتكذيب.
تقول النصوص لأصحاب السلطان، والغنى، وأهل النعمة واليسار ان لا تطغوا.. واعتبروا
بمن كان قبلكم قبل ان يعتبر بكم من يأتي بعدكم، واعلموا ان الدنيا في حركة مستمرة
تطحن كل المستغلين المتكبرين في

الأرض والراكضين وراء المراكز والمكانات.. والظالمين للناس.
وتقول للمؤمنين لا تنظروا إلى أوضاع الجاهلية كأمر واقع لا مرد له ولا دافع..
وسعوا من أفقكم التاريخي.. وانظروا الأشياء، والأوضاع في حركة مستمرة، والى حياة الطغاة كمتاع قليل.. لا تيأسوا ولا تقنطوا فان الفراعنة إلى انتهاء وان أوضاع الكفر إلى زوال.
ان ضيق الأفق التاريخي، وتصنيم المرحلة العابرة، والنظر إلى أوضاع الانحراف، كأمر واقع مستقر ينتهي إلى نتائج سلبية عديدة.
ينتهي أولا: إلى حالة الضيق، وفقدان الامل.. واليأس مما يضعف، أو يعدم الاندفاع الرسالي، والحركة، والفعالية المؤمنة.
وينتهي ثانيا: إلى التنازلات العملية من اجل الانصهار في التيار، والتواجد في المجتمع الذي لا يؤمل في تغييره، والقاعدة في هذا المجال تقول: ان الانسان الذي يفقد الامل في عملية التغيير الاجتماعي، يبدأ في تغيير ذاته ومواقفه من اجل الانصهار في المجتمع، والذوبان فيه.
وينتهي ثالثا: إلى التنازل الفكري، أو مراجعة الذات والتشكيك في الموقف المبدئي الذي يعتنقه الانسان الذي يصنم المرحلة.
هذا إلى غير ذلك من الآثار والنتائج المترتبة - بحكم قوانين نفسية - على النظرة المصنمة للمرحلة.
ومن هنا نعرف قيمة التدخل الرباني، والتوجيه القرآني الكريم

للرسول (ص) عندما تجمدت دعوته في مكة وتجمد عمله – بعد وفاة أبي طالب – إذ من
الممكن في هذه الحالة ان يصاب الصف المؤمن بهذه المعاني السلبية من جراء هيمنة الجاهلية، وحيلولتها دون تقدم العمل الاسلامي آنذاك.

فنزل – فيما يقال – قوله تعالى:

(فلا تك في مرية مما يعبد هؤلاء، ما يعبدون الا كما يعبد آباؤهم من قبل)

(والمرية هي الأثر الفكري السلبي لعملية التصنيم).

(فاستقم كما أمرت، ومن تاب معك، ولا تطغوا انه بما تعملون بصير، ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار) (٤٢)

(والركون إلى الذين ظلموا هو الأثر العملي السلبي الذي يحذر منه الله تبارك وتعالى رسوله ومن تاب معه).

ب – الشعور بوحدة المسيرة:

ان وراء التعدد الهائل والكثرة الهائلة للأنبياء والمرسلين والأئمة، والصالحين، ووراء هذا التعدد في رسالتهم وشرائعهم، ووراء التعدد في أساليبهم، ومراحلهم.. وراء كل ذلك وحدة.. وحدة.. في النموذج الرسالي، وشخصية الدعاة (الرسل، الأنبياء، الأئمة)، ووحدة الرسالة

التي يحملونها رغم الاختلاف، الذي يبدو في بعض التشريعات ووحدة في الدعوة، والعمل،
وترابط في المراحل والمهمات.
اما كيف يكون هذا الترابط؟ وكيف تكون الوحدة فهذا موضوع آخر للبحث، والتفكير.. غير أن
المهم هنا الإشارة إلى ضرورة التحسيس بهذا المعنى.. وضرورة استشعاره للمؤمن،.
فان هذا الشعور ينتهي من الناحية النفسية إلى أرقى المعاني التي تكون زاد المؤمنين العاملين، ووقودهم في الجهاد، التوحد مع الأنبياء والصالحين، ومحاولة الانصهار في نهجهم الرباني، وعبادتهم، وعبوديتهم لله تعالى والاعتزاز بالنسب التاريخي العريق.. والثقة بالنفس والتعزي عند البلاء والمواجهة بمواجهات الموكب الكريم والرهط الكريم
والاستفادة من تجاربهم في العمل والجهاد (والمؤمن ذو نسب عريق ضارب في شعاب الزمان
انه واحد من ذلك الموكب الكريم الذي يقود خطاه ذلك الرهط الكريم: نوح، وإبراهيم،
وإسماعيل، وإسحاق، ويعقوب، ويوسف، وموسى، وعيسى، ومحمد عليهم الصلاة والسلام).
(وان هذه أمتكم أمة واحدة، وانا ربكم فاتقون)
هذا الموكب الكريم الممتد في شعاب الزمان من قديم، يواجه - كما يتجلى في ظلال القرآن - مواقف متشابهة، وأزمات متشابهة وتجارب متشابهة على تطاول العصور، وكر
الدهور، وتغيير المكان، وتعدد الأقوام، يواجه: الضلال، والعمى، والطغيان، والهوى، والاضطهاد، والبغي،

والتهديد، والتشريد، ولكنه يمضي في طريق ثابت الخطو، مطمئن الضمير، واثقا من نصر
الله، متعلقا بالرجاء فيه، متوقعا في كل لحظة وعد الله الصادق والأكيد.
(وقال الذين كفروا لرسلهم لنخرجنكم من أرضنا أو لتعودن في ملتنا فأوحى إليهم ربهم لنهلكن الظالمين ولنسكننكم في الأرض من بعدهم ذلك لمن خاف مقامي وخاف وعيد) (٤٣)
(موقف واحد، وتجربة واحدة، وتهديد واحد ويقين واحد، ووعد واحد للموكب الكريم..
وعاقبة واحدة ينتظرها المؤمنون في نهاية المطاف وهم يتلقون الاضطهاد، والتهديد، والوعيد).
ولعل في اعتبار القرآن الكريم الايمان بما انزل من قبل الرسول الايمان بالرسل السابقين وصفا للمتقين.
(ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين، الذين يؤمنون بالغيب.. والذين يؤمنون بما انزل
إليك، وما انزل من قبلك) (٤٤)
وأمره بذلك.
(قولوا آمنا بالله وما انزل إلينا وما انزل إلى

إبراهيم، وإسماعيل، وإسحاق، ويعقوب، والأسباط وما أوتي موسى، وعيسى، وما أوتي
النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم، ونحن له مسلمون) (٤٥)
لعل في ذلك، وغيره تربية للمؤمنين على هذا الشعور، والاحساس بوحدة المسيرة.
ولعل في قوله تعالى:
(يا أيها الرسل كلوا من الطيبات، واعملوا صالحا اني بما تعملون عليم، وإن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون، فتقطعوا أمرهم بينهم زبرا كل حزب بما لديهم فرحون) (٤٦)
دلالة على تحسيس الله تعالى رسله بوحدة خطهم، ووحدة ملتهم، ودعوتهم، واشعارهم بان
خطهم مترابط الحلقات، مترابط المراحل.. حتى جاء اتباع الرسل فقطعوا أمرهم، وحولوا
الوحدة إلى تعدد في الخطوط والاتجاهات، وصنمت كل طبقة منهم المرحلة التي فيها حتى
أصبحوا أحزابا، وشيعا كل حزب بما لديهم فرحون. فمن الواضح اننا عندما نقول: بان خط الرسل واحد ومسيرتهم واحدة، فلا يعني هذا انه لا يوجد تنوع ضمن هذه الوحدة.
إذ من الواضح ان الله سبحانه قد جعل لكل شرعة ومنهاجا، ومن هنا

تنوعا في تفصيلات الرسالة، ومراحل العمل غير أن هذا التنوع يخدم الوحدة.. والهدف الواحد للمسيرة كلها.. والانسان الذي يتلقى من الله سبحانه هذه الرسالة الواحدة يعمل على توزيعها إلى اتجاهات متناحرة مستغلا الفوارق المرحلية في خطوط العمل لهذه
الرسالة الواحدة.

ج - الاحساس بحتمية الانتصار النهائي:

والى جانب الشعورين الأولين: الشعور بحركة الاحداث، والشعور بوحدة المسيرة المؤمنة، يوجد لدى المؤمن شعور تاريخي ثالث هو، الشعور بحتمية الانتصار.. انتصار قضية الرسالة الربانية وان كل هذا الصراع، وكل هذه المعاناة والجولات بين الحق والباطل، انما هي تمهيدات ضرورية للتغير الاجتماعي الاسلامي العالمي بالصيغة التي يريدها الله تعالى، وان كل يوم يمر هو اسراع زمني بالنصر، وتقدم نحو اليوم الموعود.

أرأيت وعد الله:

(وعد الله الذين آمنوا منكم، وعملوا الصالحات، ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم، وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم امنا يعبدونني لا يشركون بي شيئا ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون) (٤٧)

(ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر، ان الأرض يرثها عبادي الصالحون) (٤٨)
فمهما طال النصر على أجيال الرسالة، وضاقت الأرض بهم فان النتيجة الحاسمة.. في المنطق الرباني الذي لا يكذب ولا يخطأ.. هي للذين آمنوا، وعملوا الصالحات، وللايمان
والعمل الصالح.. ذلك أن الله سبحانه قد خلق هذا الانسان، وكل ما سخر له، وانزل كل
الكتب، وأرسل كل الأنبياء الذين نعرفهم، والذين لا نعرفهم من اجل هذه الغاية.
(وما خلقت الجن والإنس الا ليعبدون)
وما تجارب الصراع.. بين الهدى، والضلال الا من اجل الوصول إلى هذه الغاية.
وقد تسأل هنا: اذن لماذا هذه المدة الطويلة والزمن المديد، ولم تتحقق النبوءة الاسلامية، ولم يتحقق النصر الكامل للايمان على وجه الأرض؟
ان الله سبحانه – – خلق هذا الكون للفتنة والاختبار، لفتنة الانسان واختبار فعاليته الذاتية، ووجدانه الأخلاقي ولم يشأ سبحانه ان يفرض عليه قضية الايمان – لو شاء ذلك
لهدى الناس جميعا لان في فرض هذه القضية نقضا للغرض الكوني الأصيل وهو (ان يحقق
الانسان انسانيته وأخلاقيته باختياره ومن خلال الهدي الإلهي والهدي الإلهي فقط)
فيقتصر دور الله سبحانه في عملية التغيير الشامل على الهداية العامة.. والهدي النازل على الأنبياء، وبعض التدخلات الأخرى.. اما الفعل التغييري،

فللانسان ومن الواضح أن التغيير الاسلامي الشامل إذ يوكل إلى الانسان ويعتبر مسؤوليته له سيكون عملية بطيئة طويلة الأمد تحتاج إلى قرون عديدة، وتأريخ مديد..

وحتمية انتصار الحق، واختتام المسيرة بالنصر الشامل ليست حتمية جبر والجاء، كالحتميات المادية المزعومة، وحتمية الجبر الديني المزعوم، وانما هي حتمية وقوع.. في علم الله تعالى ان سيختار للبشر الهداية، والاسلام.. وعلم الله لا يخطئ ولا يزل، وعلم الله تعالى لا يقلب الواقع وانما يعكسه ويكشفه ويحكيه وما دام سبحانه قد علم بان الانسان سيقوم بعملية التغيير الشامل باختياره - من خلال تدخل الهي لا يصل إلى حد الجبر والالجاء، فسوف تقع علمية التغيير الاسلامي الشامل باختيار هذا الانسان وارادته من دون جبر، ولا الجاء.

لقد فشلت كل الحتميات المزعومة في الجمع بين (انسانية) التاريخ، وحتمية الحل المقترح لمشاكل الانسان.. وبقيت فقط الحتمية الإلهية قائمة من دون جبر ولا الجاء (ولتفصيل البحث في ذلك مجال آخر).

وفي القرآن.. شكلان من الوعد بالنصر.

١ - الوعد المشروط، وهو ما كان من قبيل:

(ان تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم)

(وكان حقا علينا نصر المؤمنين) (٤٩)

وهو وعد يعبر عن قانون اجتماعي يتدخل بموجبه الله تعالى إلى جانب الفئة المؤمنة في صراعها مع الباطل، إذا أحسنت اختيار خطتها وصدقتها في عزمها، ونيتها.

٢ - الوعد المطلق.. وهو الوعد الإلهي الذي ينص على أن التغيير الاسلامي الواقع باختيار الانسان واقع لا محالة في مستقبل التاريخ.

(وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض) (٥٠)

(ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر، ان الأرض يرثها عبادي الصالحون) (٥١)

وكل من الوعدين يجب معايشتهما، والاحساس بهما من اجل المزيد من الدفع، والأمل،

ومزيد من الانفتاح، والتفاعل مع الحياة الاسلامية، والعمل في سبيل الله.

د - الشعور بالائتمام:

لقد ادخر الله سبحانه لعملية التغيير الشامل القائم على أساس الاسلام القائد المعصوم الامام الثاني عشر من أهل البيت (ع) وكان من فضله تعالى ان أبقى الامام حيا مدخرا إلى اليوم الموعود، حيا يعيش بيننا، ويتعرف على أخبارنا، ويستطلع تجاربنا، فشلنا، ونجاحنا، ونحن نخوض ونواجه عملية التمحيص والاختبار، من اجل ان يستمر الشعور بوجود القدوة في وعي الناس.. ومن اجل أن يستشعر الانسان المسلم هيمنة الامام، وقيادته

ليزداد دفعا، وحرصا واقداما، وشعورا بالاتزان والسكينة: بعد أن كانت الأعمال تعرض عليه في شبه تقارير أسبوعية يتعرف بها (ع) على نمو هذا وسقوط ذاك، وتوقف الثالث عند نقطة محدودة لا يحيد عنها.

وانتظار الإمام (ع) له قيمة عملية كبيرة، سواء في كونها قوة دفع كبرى، أو في كونها تأكيدا لتعامل الانسان المسلم مع الغيب والايمان به.. ومن هنا الحت النصوص الواردة عنهم (ع) في ذلك واكدت على ثواب الانتظار وكونه من صفات المؤمنين هناك..
كما أكدت

على المعنى الايجابي للانتظار نذكر منها:

عن الرضا (ع) عن آبائه (ع) قال:

قال رسول الله:

(أفضل أعمال أمتي انتظار فرج الله تعالى)

وعن السجاد (ع) قال:

(تمتد الغيبة بولي الله الثاني عشر من أوصياء رسول الله (ص)، والأئمة من بعده، وأن أهل زمان غيبته القائلون بإمامته المنتظرون لظهوره أفضل أهل كل زمان لان الله تعالى ذكره أعطاهم من العقول، والأفهام والمعرفة، ما صارت به

الغيبة عندهم بمنزلة المشاهدة وجعلهم في ذلك الزمان بمنزلة المجاهدين بين يدي
رسول
الله بالسيف أولئك المخلصون حقا، وشيعتنا صدقا، والدعاة إلى دين الله سرا،
وجهرا)
وقال (ع):
(انتظار الفرج من أعظم الفرج)
(من ثبت على ولايتنا في غيبة قائمنا أعطاه الله اجر الف شهيد، مثل شهداء بدر،
واحد) (٥٢)
وفي سبيل تربية الشعور بوجود الامام، والاحساس بذلك وتربية الشعور بهيمنته،
وقيادته، وخلق روح الانتظار له والتطلع ليومه المبارك توجد مجموعة من الأدعية،
والزيارات والشعائر ينبغي للمسلم ممارستها لذلك وقد ورد الكثير منها عن أهل البيت
(ع).
ويتصل بمسألة الشعور بالائتمام والاحساس بوجود الامام مسألة التواصل الشعوري مع
الأنبياء، والأئمة (ع)، ونصبهم شعوريا رموزا، ونماذج للاقتداء، والاحتذاء،
والتأسي بهم في المجالات كافة، وهذا معنى اكد عليه القرآن الكريم في عملية توجيه
الرسول (ص) واعداده. ومن هنا وردت الكثير من الآيات لحثه (ص) على الصبر كما
صبر
أولو العزم، وعلى

ذكرهم، وتمثلهم الذهني.
من اجل الاقتداء بهم عمليا من قبيل قوله تعالى:
(اصبر على ما يقولون واذكر عبدنا داود ذا الأيد انه أواب) (٥٣)
(واذكر عبدنا أيوب، إذ نادى ربه اني مسني الشيطان بنصب وعذاب) (٥٤)
(واذكر عبادنا إبراهيم وإسحاق ويعقوب اولي الأيدي والابصار انا أخلصناهم بخالصة ذكرى الدار، وانهم عندنا لمن المصطفين الأخيار، واذكر إسماعيل، واليسع، وذا الكفل،
وكل من الأخيار. هذا ذكر وان للمتقين لحسن مآب) (٥٥)
الوعي الذاتي
وللانسان المسلم رؤي فكرية تتصل بالذات كماله ذلك في مجال الوجود والحياة، والتاريخ.. ووعي الذات والتحسس بالمعاني المرتبطة بها.. هو الطريق الطبيعي أو الخطوة الطبيعية والتي يجب ان تضاف إلى خطوة الوعي الرسالي.. و.. في سبيل التنمية،
والبناء.
وللوعي الذاتي.. اشكال، وعناصر:

١ – الاحساس الأخلاقي، والشعور بالمسؤولية. وكما يختلف الانسان المؤمن عن الانسان
الجاهلي في طريقة الشعور بالحياة، وقيمتها ومعناها، كذلك يختلف عنه في الاحساس الأخلاقي، ونحن نعرف: ان للعقل البشري مدركاته العملية التي بها ما ينبغي وما لا ينبغي فعله، الا ان الانساني الجاهلي – بسبب اتجاهه إلى الدنيا من الناحية العملية – يجمد هذا الشعور الانساني الرائع فلا يعيش أي مسؤولية أخلاقية في الحياة، اما الانسان المؤمن، فان طريقته في التعامل مع الكون، ومع الله تعالى، ومع الذات تنشط عنده كافة المشاعر الأخلاقية، والاحساس الأخلاقي بالالزام والمسؤولية. والمقاييس الثابتة للسلوك التي تفوق معاني اللذة والشهوة.
ان افتقاد الشعور بالمسؤولية، والالزام، والقيمة الأخلاقية للأفعال من أوضح معالم الشعور الجاهلي، شعور الانسان الضائع الذي ينغمس في لذته ما أمكنه الانغماس، والتردي والقلق الذي جعله يتذبذب بين العوالم المشتتة للنفس، والسلوك.
(والذين كفروا يأكلون، ويتمتعون كما تأكل الانعام)
بينما يعليه الانسان المؤمن (فما خلقت ليشغلني اكل الطيبات كالبهيمة المربوطة همها علفها أو المرسلة شغلها تقممها، تكترش من أعلافها، وتلهو عما يراد بها، أو اترك سدى، وأهمل عابثا). (٥٦)
والانسان المؤمن لا يحس احساسا أخلاقيا بالحياة وينمي مدركاته العملية من خلال تنميته للاحساس بالعبودية لله تعالى فقط، وانما يشعر

بالمسؤولية امام ظواهر معينة في الحياة، وبأهداف معينة محددة.
فالانسان المؤمن يشعر بالمسؤولية تجاه ذاته.. ومن اجل تغييرها، وتوجيهها نحو الله تعالى، مسؤولية التوبة والعودة إلى الله والاستغفار من الذنوب، والاقلاع عن السيئات مسؤولية تنمية العلاقات مع الله تعالى، ومسؤولية التنمية الثقافية، وتلافي نقاط الضعف الروحي والنفسي، والعملي، التي لا ينفك عنها انسان وكذلك يشعر بالمسؤولية
تجاه الناس والانحراف الذي يعيشون فيه ويشعر بأنه راع، ومسؤول عن رعيته و (ان الامر
بالمعروف والنهي عن المنكر فريضة عظيمة بها تقام الفرائض. ان الامر بالمعروف والنهي
عن المنكر سبيل الأنبياء، ومنهاج الصلحاء فريضة عظيمة بها تقام الفرائض، وتأمن المذاهب، وتحل المكاسب وترد المظالم، وتعمر الأرض، وينتصف من الأعداء، ويستقيم
الامر). (٥٧)
وقد تدرس نصوص الامر بالمعروف، والنهي عن المنكر وتشكل انطباعا بان الاسلام يعتبر
كل فرد مسلم مسؤولا عن تصرفات الآخرين الا بعذر.. هو مسؤول عن (دفع) الفساد كما هو
مسؤول عن (رفعه) وان الانسان الذي يسكت عن المنكرات، والمحارم مشارك فيها.. معاقب
عليها.
ان الشعور بالمسؤولية تجاه الانحراف الاجتماعي هو بداية افتراق الانسان المسلم العامل عن غيره من المسلمين ومن المؤكد عندئذ ان الشعور بالمسؤولية ليس (فضلا) للانسان العامل على غيره من الناس عند الله تعالى وقد يكون الانسان الذي لا يحس بمسؤولية تجاه الناس نتيجة لعدم احساسه بالانحراف، أو نتيجة لاتجاهه إلى اعمال اسلامية أخرى، أو نتيجة لايمانه

بمعذوريته من الناحية الشرعية قد يكون هذا الانسان أفضل مكانا عند الله تعالى.. ان منازل الناس عند الله تعالى لا يحددها الوعي والشعور بالمسؤولية وانما تحددها درجة (الانقياد) إلى الله تعالى، والقرب منه، والعبودية له. وان هذا لا يعني بالطبع الغض من قيمة الشعور بالمسؤولية، والاحساس بالانحراف أمران ضروريان.. ويجب التوصل إليهما

بمختلف الوسائل، والأساليب لأنهما بداية انطلاق العمل الجهادي في سبيل الله، ودفع المنكرات التي تسخط الله.. وغاية ما نريد ان القيمة الدينية والأخلاقية ليست للشعور بالمسؤولية، والاحساس بالانحراف.. وانما للانقياد إلى الله، وتنفيذ المسؤوليات المستشعرة وأنت تستطيع أن تقول ان الانسان المؤمن الذي يعي انحراف الناس، ويشعر بمسؤوليته عن تغيير معالم الانحراف (أنفع) للاسلام عمليا، وأكثر عطاء وفائدة للمسلمين، ولكنك لا تستطيع ان تقول بأي حال من الأحوال انه أقرب إلى الله من هذا الانسان المتعبد الذي لم تتح له الظروف ان يعي مسؤوليته الشرعية، فقد يكون هذا الانسان لجهله معذورا امام الله، بينه وبين الله سر نجهله أو ولاية لا نعرفها..

وقد اخفى الله سبحانه - كما في الرواية - أولياءه في عباده..

الاعتزاز بالله

٢ - الشعور بالعزة والاستعلاء: قال الله تعالى:

(ولا تهنوا، ولا تحزنوا، وأنتم الأعلون. ان كنتم مؤمنين) (٥٨)

(ولله العزة، ولرسوله، وللمؤمنين) (٥٩)

والمقصود بالاعتزاز الذي يشكل شعورا لامعا من المشاعر المؤمنة، هو

الاعتزاز بالايمان، والانتساب إلى الاسلام، والعمل في سبيل الله.
فليس يرضى الله للمؤمن بالانكسار، والشعور بالخيبة حتى في أحرج اللحظات التي يطغى
فيها الكفر، ويقتل فيها المؤمنون، وتضيق الأرض الواسعة بهم حتى في هذه اللحظات الحرجة، والأوقات العصبية لا يشعر المؤمن بالضعف، والانكسار، والوهن، والضعة.. وكيف
يشعر بالضعة والوهن، والذل، والانكسار من إلى صفه الجبار العزيز المهيمن، والقادر المتعال؟ فالمؤمن - كما في الرواية - عزيز في دينه وقد فوض الله أموره إليه، ولكنه لم يفوض إليه ان يذل نفسه.
ان لحظة استشعار الذل، أو الانكسار هي لحظة كافرة ولا يكون المؤمن في حالة هذا الشعور لأنه شعور قائم اما على أساس نسيان الله، والانتساب إلى السماء أو على أساس الاستهانة بالعلاقة مع الله تعالى - والعياذ بالله -.
وليس الشعور بالاعتزاز، والقوة في نفس المؤمن ناشئا عن الشعور بالمكانة الاجتماعية، أو القدرات العلمية، أو غير ذلك من معاني الدنيا، وانما ينشأ هذا الشعور من الاحساس بالصلة بالله تعالى، والاحساس بعزته، وعظمته، وعزة المؤمنين به، والكادحين إليه. فهو في حقيقته اعتزاز بالمعنى الايماني الذي يشعره في نفسه، واحساس
بقيمة الصلة بالله.
وكما يريد الله تعالى من المؤمن ان يكون عزيزا في نفسه عزيزا في مشاعره، كذلك يريد منه ان يكون عزيزا في مواقفه عملاقا شامخا مستعليا على الطغاة، واتباع الطواغيت حتى في أحرج اللحظات، عندما يقسو الزمن

وتخون دنيا الناس ويتحكم في مصائر الأمة شياطينها وطغاتها.
عن أبي عبد الله (ع):
(ان الله فوض إلى المؤمن أموره كلها ولم يفوض إليه ان يكون ذليلا، اما تسمع ان الله عز وجل يقول:
فالمؤمن يكون عزيزا ولا يكون ذليلا ثم قال: ان المؤمن أعز من الجبل، ان الجبل يستقل منه بالمعاول، والمؤمن لا يستقل من دينه شئ) (٦٠)
(فالمؤمن ينبغي ان يكون عزيزا، ولا يكون ذليلا يعزه الله بالايمان والاسلام)
(ولله العزة، ولرسوله، وللمؤمنين)
ان استرحام الكافر، واستعطافه، والتذلل للطغاة بداية التنازل والانحراف، فعلى المؤمن ان يكون صلبا حازما لا يستجدي العطف، وان كان يستعمل المرونة، والمداراة ولا يطلب الرحمة من الجبابرة وان كان يدخل معهم في فنون التعامل الحكيم، والمناقشات
المبدئية.
الشعور الجماعي والشعور بالإخاء
٣ - والشعور الجماعي هو ان يعيش المؤمن ذاته كعضو في جماعة.. وكفرد في أمة مؤمنة من
الناس.. وهذا الشعور إذا لاحظناه بالنسبة إلى الامتداد الزماني سميناه - كما سميناه - بالشعور بوحدة المسيرة... وإذا

لاحظنا بالنسبة إلى الامتداد المكاني، والمؤمنين المعاصرين سميناه بالشعور
الجماعي.. وفي الشعور الجماعي.. كما يشعر المؤمن بذاته كفرد له خصوصياته
الفردية أي
يشعر بأناه الخاصة، كذلك يشعر بأناه الاسلامية العامة.. أناه كمؤمن، أو بكلمة أخرى
يشعر بأنه، جزء من جبهة الايمان وتكتل المؤمنين لله تعالى.. يشعر بذات عامة تجمع
المؤمنين جميعا.. وبالخصوص المؤمنين الذين يسيرون في طريق العمل، والجهاد في
سبيل
الله تعالى وليس في هذا التخصيص مانع أو حزازة، وقد سجله القرآن الكريم.
(ان الذين آمنوا، وهاجروا، وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله، والذين آووا،
ونصروا، أولئك بعضهم أولياء بعض والذين آمنوا، ولم يهاجروا، ما لكم من ولايتهم من
شئ حتى يهاجروا) (٦١)
والشعور بالإخاء قريب من الشعور الجماعي.. والشعور الجماعي هو الشعور بالتكامل
الايماني كجسد واحد فيه أعضاء واجزاء والشعور بالإخاء، هو الشعور بوحدة النسب
نسب
الايمان، والعقيدة.. نسب السماء لا نسب الأرض ومعاني الأرض من العنصرية،
والإقليمية
وغيرها.
وينتهي هذان الشعوران إلى ما نسميه اليوم ب (المشاركة الوجدانية) أي شعور المؤمن
بما
يشعر به إخوانه من آلام، وأفراح، وعواطف.
يألم إذا تألموا، ويفرح إذا فرحوا.

عن أبي عبد الله (ع)
(انما المؤمنون اخوة بنو أب وأم وإذا ضرب على رجل منهم عرق سهر لها الآخرون) (٦٢)

وعنه (ع):
(المؤمن أخو المؤمن كالجسد الواحد ان اشتكى شئ منه، وجد ألم ذلك في سائر جسده،
وأرواحهما من روح واحدة، وان روح المؤمن لأشد اتصالا بروح الله من اتصال شعاع الشمس بها) (٦٣)

٤ - التواضع:

أ: التواضع لله.. ويقصد به الاستشعار المستمر لنقاط الضعف الروحي، والنفسي، والتقصير امام الله سبحانه وتعالى، وهو بهذا المعنى يتقابل مع الاعجاب بالذات والتكبر امام الله تعالى.. والعياذ بالله.. والمن عليه بالاسلام، والعمل. وفي الرواية انه سئل الرضا (ع) عن حد التواضع الذي إذا فعله العبد كان متواضعا؟ فقال:
(التواضع ان يعرف المرء قدر نفسه فينزلها منزلتها بقلب سليم)
والتواضع - عندئذ - يكتسب قيمته من أمرين.

(١): ان التواضع هو الاستشعار الكامل للعبودية لله تعالى ولا يمكن لهذا الكائن الصغير ان يؤدي حق الله كاملا، وكيف يؤدي حق من أداء حقه إليه، يثبت له حقا جديدا، وشكره يحتاج إلى شكر؟.. وأيضا فان التواضع ادراك لقضية واقعية هي وجود الضعف الأخلاقي، والنفسي والروحي في الانسان وأي انسان يخلو من الضعف، والقصور،
والتقصير؟ قد يطغى الانسان ويتصور نفسه خالصا مخلصا من العيب والضعف، والذنوب،
ولكن لا يوجد انسان في العالم يصدق مع نفسه إذا اعتقد بذلك.
(٢) - ان التواضع خلافا للعجب بالنفس، والتواضع له قيمة عملية كبرى باعتباره انه لا يجمد وضع الانسان المسلم عند حد معين، ونقطة معينة من النمو، والتطور، بخلاف العجب الذي يتصور فيه الانسان انه وصل إلى نقطة الكمال الأخلاقي والروحي، فيعتقد الانسان عندئذ حرارة المعاناة التي تحرك، وتدفع إلى امام.. والانسان الذي يفقد نار المعاناة ما أسهل ما يستحوذ عليه الشيطان. ففي نص عن أبي عبد الله (ع) قال رسول الله (ص):
(ان موسى سأل إبليس عن الذنب الذي إذا أذنبه ابن آدم استحوذت عليه؟ قال - أي إبليس
- إذا أعجبته نفسه، واستكثر عمله وصغر في عينه ذنبه) (٦٤)
ويظهر من النصوص الواردة عن أهل البيت (ع) ان المؤمن في حالة المعاناة، وحرارة الاندفاع، - والحرقة في التوجه أفضل - حتى مع الذنب -

منه وهو في حالة الاستقامة والعجب بذاته..
عن أبي عبد الله (ع) في خبر صحيح:
(ان الرجل ليذنب الذنب، فيندم عليه، ويعمل العمل، فيسره ذلك فيتراخى عن حاله تلك فلئن يكون على حاله تلك، خير له مما دخل فيه)
وعنه:
(ان الله علم أن الذنب خير للمؤمن من العجب ولولا ذلك ما ابتلي المؤمن بذنب ابدا)
وعن أحدهما (ع): (دخل رجلان المسجد أحدهما عابد، والآخر فاسق فخرجا من المسجد،
والفاسق صديق والعابد فاسق. وذلك أنه يدخل العابد المسجد مدلا بعبادته، يدل بها فتكون فكرته في ذلك وتكون فكرة الفاسق في الندم على فسقه، ويستغفر الله عز وجل مما
صنع من الذنوب) (٦٥)
وفي نص آخر (ان الله تعالى من حنانه على عبده المؤمن انه يلقي مما عليه في بعض الليالي نعاسا، فتفوته صلاة الليل حتى لا يدل، ويعجب بنفسه، وهو يداوم عليها).
والسبب ان التواضع لله تعالى من أخص خواص الشخصية الاسلامية

كانت لغة الأنبياء، والأئمة (ع) مع الله تعالى في منتهى الأدب، والتذلل، والخضوع لله فيها اعتراف بالتقصير، والذنوب، والحاح في طلب المغفرة والتوبة والقبول، والشعور الدائم بحق الله تعالى عليهم، وبعدم ادائهم لحق الله.

(وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل، ربنا تقبل منا، انك أنت السميع العليم، ربنا واجعلنا مسلمين لك، ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا، وتب علينا انك أنت التواب الرحيم) (٦٦)

وأما موسى فقد

(قال: رب اني ظلمت نفسي فاغفر لي)

(وظن داود انما فتناه فاستغفر ربه وخر راكعا وأناب) (٦٧)

ومن أروع معاني التواضع لله تعالى والأدب معه سبحانه ما سجلته الصحيفة السجادية من

ألوان الاعتراف بالتقصير ونقد الذات والاستغفار واستشعار الضعف والقصور فاقرأ ان شئت من مناجاة الشاكين.

(الهي إليك أشكو نفسا بالسوء أمارة والى الخطيئة مبادرة وبمعاصيك مولعة، ولسخطك

متعرضة تسلك بي مسالك

المهالك، وتجعلني عندك أهون هالك، كثيرة العلل، طويلة الامل ان مسها الخير تمنع، وان مسها الشر تجزع، ميالة إلى اللعب واللهو، مملوءة بالغفلة والسهو)
ومن مناجاة التائبين.
(الهي ألبستني الخطايا ثوب مذلتي وجللني التباعد منك لباس مسكنتي وأمات قلبي عظيم
جنايتي فأحيه بتوبة منك يا أملي وبغيتي)
واقرأ في الصحيفة تجد الكثير من هذا الأدب الرفيع.. حتى لتكاد تشعر بان قلب زين العابدين (ع) يتقطع من خشية الله وشدة التألم من التقصير والمخالفات، ولأننا لا نعيش معنى للأدب لله، ونتناسى ان كل امام مهما كان وكل نبي له مخالفات وتقصيرات
داخل إطار العصمة، فإننا نحاول ان نصنع المشاكل، ونثير الأبحاث الطويلة، ونحاول ان
نجمع الإجابات المختلفة عن السؤال القديم: كيف يمكن لزين العابدين وهو الامام المعصوم ان يعترف بالذنوب والتقصيرات والمخالفات امام الله؟ وننسى ان زين العابدين
لو آمن بأنه لا تقصير له، ولا مخالفة عنده، لما كان معصوما بحال من الأحوال.
ب: التواضع للمؤمنين: ومن ألوان الوعي الذاتي التواضع للمؤمنين وليس المقصود منه التأدب معهم واحترامهم وحسن الخلق والمداراة وغير

ذلك من التعاملات الخارجية الحسنة فان هذا نتيجة للتواضع لا التواضع نفسه اما التواضع فهو الا تشعر بكونك أعلى منزلة ودرجة من أي مؤمن تلقاه.. أو هو أن تشعر بأنك أقل المؤمنين حظا، وأخفضهم منزلة.. وهو شعور ضروري ومهم بالقدر الذي هو طبيعي
من الانسان المؤمن، وذلك لان مقياس المسلم في الضعة والرفعة انما هو درجة القرب من
الله تعالى ومدى قبوله سبحانه للانسان وقد تعلم انك أكثر من أخيك المؤمن في العلم والثقافة، كما قد تعلم انك أكثر خدمة منه للدين والمسلمين، بل قد تعلم انك تصلي أكثر مما يصلي، وتعبد أكثر مما يعبد ولكنك لا يمكن ان تطمئن إلى أن مقامك عند الله
تعالى أرفع من مقامه، ومنزلتك أعلى من منزلته. ومن الممكن ان يكون هذا الانسان الذي
تحتقره عيناك ممن ترجو شفاعته غدا، لان له سرا مع الله لا تعلمه أنت ولا غيرك.
ومن هنا يحكي القرآن الكريم عن بعض أهل النار قولهم.
(ما لنا لا نرى رجالا كنا نعدهم من الأشرار اتخذناهم سخريا، أم زاغت عنهم الابصار) (٦٨)
وعن أبي جعفر الباقر (ع) عن آبائه عن علي (ع) قال:
(ان الله اخفى أربعة في أربعة.. إلى أن قال: وأخفى وليه في عباده فلا تستصغرن عبدا من عبيد الله فربما يكون وليه، وأنت لا تعلم) (٦٩)

والانسان الذي قد يسقط في أعيننا لذنب ارتكبه أو خطأ وقع فيه، قد يتوب في مستقبله،
ويكون في مراتب القرب من الله تعالى، ونبقى نحن في أوضاعنا الفعلية.
ونتيجة لشعور المؤمن بالتواضع للمؤمنين، واحترامهم الذاتي يتسم سلوكه معهم بالتقدير، والاحترام، والخدمة والانس يصافح الغني، والفقير، والصغير، والكبير، ويسلم مبتدئا على كل مؤمن، ولو كان عبدا من أهل الصلاة هين المؤنة، لين الخلق، كريم الطبيعة جميل المعاشرة.. كما ورد في صفة الرسول (ص).

الفصل الثالث:

الوجدان (العاطفة المبدئية والانفعال الرسالي)

في الفصل السابق تناولنا الوعي الديني، والوعي التاريخي والوعي الذاتي.. وهي مجموعات تؤلف جانب البصيرة والرؤية الفكرية للشخصية الاسلامية.. وهذا هو الجانب
الأول في الشخصية الاسلامية.. والمرتكز الأساس الذي تقوم عليه، اما الجانب الآخر -
والأساس هو الآخر.. فهو الوجدان الاسلامي بالمعنى الواسع الذي يشمل العاطفة كالحب
والبغض، والانفعال كالخوف، والرجاء، والغضب، والفرح.
دور الوجدان في الحياة الانسانية
وللوجدان بالمعنى المذكور دور كبير في حياة الفرد البشري. فليس الانسان مركبا آليا يتحرك بسبب الإثارات أو بالأحرى الحركات الخارجية، كما هو شأن كل جسم مادي لا
يملك الحيوية الذاتية، والاندفاع الذاتي، وليس الانسان كذلك كائنا عقليا صرفا يعقل، فيتحرك بسبب رؤيته العقلية فقط، ويتصرف بإرادة محضة لا يشاركها حب، ولا بغض،
ولا غضب، ولا سرور.. ليس الانسان كذلك ولا يمكن ان يكون كذلك، وان أصرت مجموعة من
الفلاسفة على أن يكون الانسان إرادة محضة، وعقلا محضا، وان ينطلق من أفعاله، وتصرفاته من الاحساس بالواجب الأخلاقي والشعور بالالزام فقط.
وبسبب هذا الامر..
وبسبب ان للوجدان - عاطفة وانفعالا - اثرا كبيرا في الفكر، وفي السلوك إذ يدفع نحو بعض المواقف ويمنع من بعض، ويقرر بعض الأفكار، ويحول دون بعضها الآخر، بسبب
هذين الامرين (عدم انفكاك الانسان

عن العاطفة، والانفعال، وأثرهما الكبير في الفكر، والسلوك) اكد الاسلام في مفاهيمه الأخلاقية ومناهجه التربوية على كل من الميول النفسية (العواطف)، وعلى الاستجابات النفسية الثائرة من غضب، وفرح، ومن خوف، ورجاء.

مبدآن اسلاميان للحياة الوجدانية

وكان التأكيد الاسلامي، والعمل الذي تقوم به التربية الاسلامية، باتجاه الحياة الوجدانية للانسان، مرتكزا على أساسين أو مبدأين:

المبدأ الأول:

تكوين وجدان اسلامي خاص بالانسان المسلم. وقد أعد الاسلام بهذا الصدد قائمة طويلة
للمعاني التي يجب ان يبتني عليها الانسان المسلم، وتقوم على أساسه الشخصية الاسلامية والتي تتألف من عناصر عديدة كحب الله تعالى، والانس به، والاشتياق إليه والخوف منه، ورجاؤه والرضا بقضائه وقدره، وحب المؤمنين، وحب الرسالة، وبغض الكافرين، والمنحرفين، والشريرين، والسرور بالحسنة والتضايق من المعصية والانفتاح النفسي على الحياة والابتهاج بها إلى غير ذلك من المعاني الاسلامية الكثيرة في هذا المجال.. وتوجد إلى جانب ذلك عناصر سلبية في الوجدان المسلم.. كالزهد الذي يعني
تفريغ الانسان المسلم لوجدانه من حب الدنيا.. والخوف عليها ورجائها.

لماذا يصر الاسلام على تكوين وجدان خاص بالانسان المسلم، ولا يكتفي منه بالعمل؟ ان
السبب في هذا الاصرار من قبل الاسلام يعود

إلى أمرين:
١ - ان هدف الاسلام ليس مجموعة من التصرفات، والمواقف، والحركات يؤديها الانسان
المسلم، وانما هو بناء الانسان الصالح بكل ما يعنيه الانسان من الفكر، والروح، والوجدان والسلوك. ان الاسلام يهدف إلى ايجاد صيغة جديدة للانسان تختلف عن كل الصيغ
المعروفة للانسان في مختلف الحضارات، صيغة كاملة شاملة.. وليست محصورة ضمن نطاق
الفعل، والسلوك الاجتماعي وبهذا يختلف الاسلام عن مجموعة من أنظمة الأرض التي لا
تريد سوى ان تؤكد سلطتها وسيطرتها السياسية، والاجتماعية على الناس..
٢ - ينظر الاسلام إلى الشخصية الانسانية وحدة متكاملة يؤثر كل جانب منها، وكل جزء
في الجانب الآخر، والاجزاء الأخرى، ومن هنا فهو يرى أن من غير الممكن ان نؤمن جانبا من الشخصية الانسانية دون تأمين كافة الجوانب الأخرى، ليس من الممكن للاسلام
ان يحكم السلوك الاجتماعي، والسياسي للناس دون ان يغير من مضمونهم العاطفي، والانفعالي، والوجداني، ودون ان يغير من مفاهيمهم الحياتية ورؤاهم الفكرية حول الكون، والحياة كما لا يمكنه ان يؤكد على جوانب الفكر، والوجدان في شخصية الانسان
المسلم دون ان يؤكد على جانب السلوك، والنظام الاجتماعي، والسلطة الزمنية.
المبدأ الثاني:
تحكيم العقل والدين على العاطفة والانفعال، فمهما كانت

العواطف، والانفعالات رسالية، وانسانية عامة أو منحرفة فهي – محكومة – في شخصية
الانسان المسلم – لإرادة الله تعالى التي يعرفها العقل.
وعلى هذا فالعاطفة والانفعال – ولو كانا مبدأين – يعتبرهما الاسلام (طاقة نفسية) لا بد منها، اما الجهاز الحاكم في الشخصية فليس هو العاطفة، ولا الانفعال وانما العقل، والإرادة، أولهما: يوضح الصحيح من الخطأ والحلال من الحرام في ضوء المنطق الشرعي،
وثانيهما ينفذ ويقرر عمليا ويرتكز ذلك على ما يلي:
١ – ان ارتباط الغريزة، والعاطفة، والانفعال الذي تقتضيه هذه الدوافع ليس ارتباطا حتميا، وانما هو ارتباط اقتضائي. إذ يمكن للانسان ان يحول بين العاطفة والانفعال وبين نتائجهما العملية.
٢ – ان مقتضى العبودية لله تعالى هو، ان ينسجم الانسان سلوكيا مع ارادته تعالى، سواء كانت مثبتة تشريعيا على شكل الزام، أو على شكل ترجيح، أو كانت ارادته تعالى هي ترجيح أحد الأطراف المتزاحمة من وجهة نظر المصالح، والمفاسد.
٣ – ان العواطف ولو كانت دينية – لا تقتضي دائما الفعل الذي ينسجم مع إرادة الله تعالى، بل قد تختلف مقتضياتها مع مقتضيات الإرادة الإلهية فقد يسب المؤمن – لعاطفته الدينية – الذين كفروا فيسبوا الله تعالى، وقد ينفعل – غاضبا لله تعالى فيتعجل بموقف يعود بالضرر على الدين وعلى هذا أناط الاسلام (الفعل) بالتدبر بالعاقبة والتعقل كما جاء في حديث عن رسول الله (ص):

(إذا هممت بأمر فتدبر عاقبته فان يك رشدا فامضه، وان يكن غيا فدعه).
الضغط على العواطف الرسالية في حياة
القادة
والأمثلة على الضغط على العواطف الرسالية، في سبيل المصلحة العليا للرسالة كثيرة في حياة الرسول (ص)، والأئمة (ع).
أذكر من سيرة الرسول (ص) موقفه في صلح الحديبية، في شكل الكتاب بينه، وبين موفد
المشركين إذ رفض المشرك (سهيل بن عمرو) ان يفتتح الكتاب ب (بسم الله الرحمن الرحيم)
وان يسمي فيه محمدا برسول الله (ص) وأقره الرسول بذلك، وان يرد (ص) بعض المسلمين
المهاجرين إليه من العذاب الجاهلي فيردهم إلى المشركين لموقع العهد بينه (ص) وبينهم
وهو موقف في قمة الضغط على العاطفة الرسالية لمجرد الوفاء بشرط اشترطه (ص) للمشركين. (١)
واذكر من سيرة الإمام علي (ع) موقفه عندما غلب الانحراف على الخط الاسلامي الأصيل
بعد وفاة الرسول (ص) وفي ذلك يقول (ع) كما في الخطبة الشقشقية: (وطفقت أرتئي بين
ان أصول بيد جذاء، أو اصبر على طخية عمياء، يشيب فيها الصغير، ويهرم فيها الكبير، ويكدح فيها مؤمن، حتى يلقى ربه فرأيت أن الصبر على هاتا أحجى، فصبرت وفي العين
قذى، وفي الحلق شجا، أرى تراثي نهبا) (٢).
ومن سيرة الإمام الحسن (ع) عملية الصلح مع معاوية التي لم تتحملها

حتى القلوب المؤمنة.. فتفجرت على شكل ملاحظات، وكلمات نابية قوبل بها الإمام (ع) من
قبل خيرة أصحابه.. ولكن المرحلة، ومصلحة الاسلام العليا التي هي المقياس في صحة الموقف، والانفعالات كانت تقتضي منه (ع) ان يقبل بالصلح ضمن شروط معينة.
واما الآن فإلى مجموعة من العواطف الاسلامية والانفعالات المؤمنة.

حب الله

أولى عناصر العاطفة الايمانية، حب الله تعالى قال سبحانه:
(ومن الناس من يتخذ من دون الله أندادا، يحبونهم كحب الله والذين آمنوا أشد حبا لله) (٣).
(قل ان كان آباؤكم وأبناؤكم، واخوانكم، وأزواجكم، وعشيرتكم وأموال اقترفتموها، وتجارة تخشون كسادها، ومساكن ترضونها، أحب إليكم من الله، ورسوله، وجهاد في سبيله
فتربصوا حتى يأتي الله بأمره، والله لا يهدي القوم الفاسقين) (٤)
وعاطفة الحب أوسع العواطف الايمانية، وأشملها، وتتمثل في الميل النفسي إلى الله تعالى والاستعداد الدائم للانس والالتذاذ بلقائه وينبسط

هذا الحب، ويتفرع إلى معاني أخرى بسبب ارتباطها بالله، بنحو من أنحاء الارتباط.
ويرتكز حب الله في نفس المؤمن على أوسع المرتكزات النفسية، وأوثقها وهي اثنتان:
١ - حب الذات.. وحب الذات امر فطري في الانسان بمعنى ان الانسان مجبول على
حب ذاته
وهو حب يمتد وينبسط على خالق الذات، والمنعم عليها، ومن يمدها بالنعم صباحا
ومساء.. ومن هنا جاء في الحديث عن الرسول (ص):
(أحبوا الله لما يغذوكم من نعمه، وأحبوني لحب الله).
٢ - حب الكمال، والجمال، وهو حب آخر جبل عليه الانسان، غير حب الذات..
والله
سبحانه منتهى الجمال، والكمال، والصفات الحسنى كلها له.
من عطاء الحب الإلهي
ولحب الله تعالى آثار كبيرة على شخصية الانسان المؤمن:
١ - الأثر العملي: وهو الطاعة والاستقامة على خط الله تعالى في الحياة.
(قل ان كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم

الله) ٣١ / آل عمران.
وفي المعاني للصدوق عن الصادق (ع) قال: ما أحب الله من عصاه ثم تمثل بقوله:
تعصي الاله وأنت تظهر حبه * * * هذا لعمري في الفعال بديع
لو كان حبك صادقا لأطعته * * * ان المحب لمن أحب مطيع
وفي مناجاة المحبين للسجاد (ع) (الهي من ذا الذي ذاق حلاوة محبتك فرام منه بدلا، ومن ذا الذي انس بقربك فابتغى عنك حولا) وفيها أيضا (يا منى قلوب المشتاقين، ويا غاية آمال المحبين، أسألك حبك وحب من يحبك، وحب كل عمل يوصلني إلى قربك، وان يجعلك
أحب إلي مما سواك، وان يجعل حبي إياك قائدا إلى رضوانك، وشوقي إليك ذائدا عن عصيانك).
وفي قصة مصعب بن عمير، وهو أحد المؤمنين الذين تربوا على يد رسول الله (ص) وكان
فتى مترفا في بيت مرفه، يصفه رسول الله (ص) - كما في الرواية - ما رأيت بمكة أحسن
لمة، ولا أرق حلقة، ولا أنعم من مصعب بن عمير، في هذه القصة: ان رسول الله (ص)
رآه بعد ذلك وعليه جلد كبش من اثر الحرمان في الله ومن اجل الله تعالى، فقال (انظروا إلى هذا الذي نور الله قلبه، لقد رأيته بين أبوين يغذوانه بأطيب الطعام، والشراب، ولقد رأيت عليه حلة (ثوبا) شراها بمائتي درهم، فدعاه حب الله، ورسوله إلى ما ترون).

٢ – الانس بالله ورسوله في الوحدة.. والانس بعبادة الله تعالى في الأيام المعتادة وأيام الوحدة، والغربة من أهم آثار أو أسس حب الله تعالى وقد كانت عبادة الله تعالى قرة عين الرسول (ص) والأئمة (ع) من بعده. وقد كانوا عليهم السلام عندما تحدد
ممارساتهم الاجتماعية، وصلاتهم بالناس يأنسون بالصلاة، وتلاوة القرآن الكريم ويملأون كل أوقاتهم بالعبادة، والصلاة، انسا بربهم، وحبا، وعبودية.
بل نلاحظهم انهم (ع) وان كانوا يؤدون واجبهم في العمل الاجتماعي، ويعملون تخطيطا
وجهودا من اجل قضية الاسلام، يتمنون لو أتاحت لهم الظروف ان يتفرغوا للعبادة والالتقاء المباشر بالله تعالى وليس في هذا غض واقلال من قيمة وشأن العمل الاجتماعي، والجهاد في سبيل الله ولكن المؤمن يأنس بالله تعالى، وعبادته المباشرة من سجود، وركوع، وذكره أكثر مما يأنس بالممارسات الاجتماعية والاختلاط مع الناس.
وفي الرواية: ان موسى بن جعفر (ع) كان كثيرا ما يسمع في دعائه – عندما كان في السجن – يقول: (اللهم انك تعلم اني كنت أسألك ان تفرغني لعبادتك، اللهم وقد فعلت
فلك الحمد) (٥) وكان (ع) مشغولا يحيي الليل كله صلاة، وقراءة للقرآن، ودعاء، واجتهادا، ويصوم النهار في أكثر الأيام، ولا يصرف وجهه عن المحراب (٦).
ويرد الكلام نفسه، وان كان بصيغة أخرى عن الحسن العسكري (ع) ففي الخبر (دخل العباسيون على صالح بن وصيف عندما حبس أبو محمد (ع) فقالوا له: ضيق عليه ولا توسع
فقال لهم صالح: ما اصنع به

وقد وكلت به رجلين شر من قدرت عليه، فقد صارا من العبادة، والصلاة والصيام إلى أمر
عظيم ثم امر باحضار الموكلين به. فقال لهما: ويحكما ما شأنكما في امر هذا الرجل
فقالا: ما نقول في رجل يصوم النهار ويقوم الليل كله لا يتكلم ولا يتشاغل بغير
العبادة فإذا نظر إلينا ارتعدت فرائصنا وداخلنا ما لا نملك من أنفسنا) (٧).
وهذا علي بن الحسين (ع) الذي كانت ظروفه لا تسمح له بالعمل الاجتماعي المكشوف بحال
من الأحوال، فأتاحت له شيئا من الوحدة والتفرغ، سجل لنا تاريخه أروع درجات الانس،
والتوجه، والشوق إلى الله تعالى.. فكان من ادعيته ما تقرأه في الصحيفة قطعا من
قلبه الخاشع، وروحه المتحفزة وانسه بالله تعالى العلي العظيم.. وكان من عبادته ما
حكاه أبو عبد الله (عليه السلام) من دخول الباقر (ع) (فإذا هو قد بلغ من العبادة
ما لم يبلغه أحد، فرآه قد اصفر لونه من السهر، ورمضت عيناه من البكاء، ودبرت جبهته
وانحرف أنفه من السجود، وورمت ساقاه وقدماه من القيام في الصلاة. وقال أبو جعفر
(ع) فلم أملك - حين رأيته بتلك الحال - البكاء - فبكيت رحمة له) هكذا روي عن أبي
عبد الله (ع) في الوسائل - أبواب مقدمات العبادات ب ٢٠ -).
٣ - حب الرسالة والعمل من اجلها، فمن شؤون حب الله تعالى حب دينه الذي شرعه للناس
لينهجوه في هذه الحياة، وحب تقدم الناس نحو هذه الرسالة، وتطبيقهم لها وحب الاسلام
والرسالة الاسلامية يكون على نحوين:

أ – حب الرسالة والعمل من اجلها باعتبار انها تحقق للانسان سعادته، وتتمثل فيها كافة المصالح الانسانية أو أحبها باعتبار اقتناع الانسان بها، وكونها جزءا من شخصيته وكيانه، أو باعتبارها من دين الآباء، وما شاكل ذلك من الشؤون والاعتبارات التي لا يكون فيها أي نحو من الارتباط بالله تعالى، وليس لهذا الحب والعمل قيمة من وجهة نظر الأخلاقية الاسلامية، ولا يعتبر من المعاني التي يتشكل منها وجدان الانسان المسلم، وانما هو من قبيل حب أي انسان لعقيدته، وقومه، أو وطنه، وأمثالها من المعاني التي يضحي بعض الناس بمصالحهم الشخصية في سبيلها، وتعتبر توسعا لدائرة الذات، والمصلحة الشخصية.

ب – حب الاسلام لأنه دين الله تعالى وارادته التي يجب ان تطبق في الأرض.. وهذا هو
الحب الذي ينبع عن حب الله تعالى ويتفرع عنه، ويعتبر اثرا من آثاره في الحياة النفسية، والعملية للانسان المسلم، ويقابل هذا الحب بغض الانحراف وانكار المنكر في
القلب.. كما سوف يأتي إن شاء الله تعالى.

ومن آثار حب الله تعالى، الزهد في الدنيا، ومن آثاره أيضا حب المؤمنين..

حب المؤمنين أو الحب في الله

عن أبي عبد الله (ع) قال: قال رسول الله (ص):

(ود المؤمن للمؤمن في الله من أعظم شعب

الايمان. الا ومن أحب في الله، وابغض في الله، وأعطى في الله، ومنع في الله، فهو من أصفياء الله).

وعن علي بن الحسين (ع) قال:

(إذا جمع الله عز وجل الأولين والآخرين قام مناد فنادى ليسمع الناس فيقول: أين المتحابون في الله؟ قال: فيقوم عنق من الناس فيقال لهم اذهبوا إلى الجنة بغير حساب).

وعن أبي عبد الله (ع):

(كل من لم يحب على الدين ولم يبغض على الدين فلا دين له) (٨)

ان حب المؤمنين نتيجة طبيعية لحب الله تعالى. لأنهم مرتبطون بالله بأسمى معاني الارتباط، وحب الشيء ينبسط وينسحب على ارتباطاته، ومتعلقاته.

امر على الديار ديار سلمى * * * اقبل ذا الجدار وذا الجدارا
وما حب الديار شغفن قلبي * * * ولكن حب من سكن الديارا

وينتج حب المؤمنين من جهة أخرى من التجانس في العلاقة بالله

تعالى، والعقيدة، والحياة في عالم يغترب فيه المؤمنون الحقيقيون، والانسان يألف مجانسه، ومماثله..
ويفرز تحاب المؤمنين فيما بينهم وينميه الخلق الاسلامي من الأدب، والاحترام، والتزاور، والتكافل.. وغير ذلك من التعامل الذي يهدف الاسلام من التشجيع عليه توثيق
الصلة بين المؤمنين، وتركيز علاقتهم العاطفية.
ان حياة المؤمنين فيما بينهم هي حياة الحب، والانس، والانفتاح، والاحترام، والتواضع.. فلا حقد، ولا بغضاء ولا كراهية، ولا انقباض.. هي حياة ملؤها الرحمة، والحنان، والعطف لا تشوبها شائبة. من غلظة، وجفاء، وقطيعة..
وقد نلاحظ في حياتنا اليومية بعض المؤمنين الذي يتنافرون، بسبب اختلافهم في الرأي حول قضية اسلامية، فتشيع بينهم العداوة، والتحاقد، والعياذ بالله، ان هؤلاء لم يعرفوا حدود الاخوة الايمانية، ومستلزماتها.. ولم يعوا بعد أن اختلاف الرأي لا يفسد، للحب قضية، وان لكل مجتهد أجرين، ان أصاب اجر، وان أخطأ اجر، وان حياة
الايمان، والوحدة الروحية بين المؤمنين أهم بكثير من الموقف الفلاني الذي يؤمن به أحدهما، ويكفر به الآخر، حتى ولو كان هذا الموقف صحيحا.
وقد نلاحظ في حياتنا اليومية أيضا بعض المسلمين الذي تنافرون بسبب مصالح شخصية -
قد تظهر بمظهر ديني - فيحقد أحدهما على الآخر بسبب انه أخطأ في حقه، أو نقده أو
نصحه بأسلوب حاد، أو زاحمه على

مركزه، أو لم يتابعه في رأيه، وغير ذلك من الأسباب السخيفة.
ان المؤمن يتجاوز الخطيئة، ويكظم الغيظ، ويغفر زلات إخوانه، ويتغاضى عن سيئاتهم..
أو ليس أخلاق المؤمن من أخلاق الله؟ ومن راجع النصوص الواردة عن أهل البيت (ع) في
اخوة المؤمنين، وحقوق الاخوة، وجد فيها ما يقصم الظهر.. وسنأتي على ذكر الكثير منها
إن شاء الله تعالى في القسم الثالث من هذا الكتاب ويكفينا هنا ان نذكر بعض هذه النصوص:
عن أبي عبد الله (ع): (قال الله عز وجل: ليأذن بحرب مني من آذى عبدي المؤمن)
وعنه (ع) عن أبيه: (أقرب ما يكون العبد إلى الكفر ان يواخي الرجل على الدين، فيحصي
عليه عثراته، وزلاته ليعنفه بها يوما ما).
وعنه (ع): (من روى على أخيه المؤمن رواية يريد بها شينه، وهدم مروءته ليسقط من أعين الناس، أخرجه الله تعالى من ولايته إلى ولاية الشيطان فلا يقبله الشيطان).
(وإذا اتهم المؤمن أخاه انماث الايمان من قلبه كما ينماث الملح في الماء) وعن أبي جعفر (ع): (أيما مسلم اتى مسلما زائرا، أو طالب حاجة، وهو في منزله، فاستأذن له، ولم يخرج إليه لم يزل في لعنة الله حتى يلتقيا) وأخيرا عن أبي عبد الله (ع)
: (إذا غاب المؤمن فاحفظه في غيبته، وإذا شهد فزره، واجله، وأكرمه، فإنه منك، وأنت
منه، فان كان عليك عاتبا، فلا تفارقه حتى تسأل سميحته، وان اصابه خير فاحمد الله، وان ابتلي فاعضده، وان تمحل له فأعنه. وإذا قال

الرجل لأخيه: أف، انقطع ما بينهما من الولاية، وإذا قال: أنت عدوي كفر أحدهما فإذا اتهمه انماث الايمان في قلبه كما ينماث الملح في الماء). (٩)

المشاركة الوجدانية

والمشاركة الوجدانية هي، ان يكون المؤمنون في حالة من التعاطف، والانسجام الوجداني،
وكأنهم مشتركون في وجدان واحد، ومن هنا إذا تألم واحد منهم تألم الآخرون وإذا فرح
فرح له الآخرون، وهكذا في الحزن والهم والسرور.. وفي المشاركة الوجدانية لا يفقد الفرد المؤمن شخصيته الفردية ضمن المجموع المركب من المؤمنين وانما يوسع من دائرة
روحه الاجتماعية.. وارتباطه النفسي بإخوته في الله تعالى..

وقد قرأنا فيما سبق بصدد المشاركة الوجدانية روايتين:

١ - عن أبي عبد الله (ع) (انما المؤمنون بنو أب وأم وإذا ضرب على رجل منهم عرق سهر
له الآخرون).

٢ - وعنه (ع) (المؤمن أخو المؤمن، كالجسد الواحد إذا اشتكى شيئا منه وجد ألم ذلك
في سائر جسده، وأرواحهما من روح واحدة. وان روح المؤمن لأشد اتصالا بروح الله من
اتصال شعاع الشمس بها) (راجع الروايتين في الأصول - ج ٢ ص ١٦٥ - ١٦٦).

خوف الله ورجاؤه، وتعلق القلب به
قد تجد الكثير من الناس الذين يتسمون بالايمان، يتلهون عن الله تعالى، ويشدون قلوبهم إلى غيره. يخافون من الأرض، ولا يخافونه، ويرجون الدنيا، وزخارف الحياة، ولا
يرجون رزقه أو نعيمه، ولا يستشعرون عندما يذكرون الله تعالى لا خوفا، ولا رجاء، ولا خشية، ولا خشوعا، وانما هي كلمة تجري على اللسان، وفكرة تمر على الخاطر ثم
ينزاحا ليحل محلهما الثرثرة، وأحلام، وهموم الدنيا، قد تتلمس قلبك أحيانا فلا تجد فيه عند ذكر الله ايمانا، ولا كفرا ولا خوفا ولا رجاء.
غير أن المؤمن يعرض لنا في كتاب الله تعالى، وكلمات المعصومين من خلفه في صورة
أخرى.
١ - يعرض لنا قلب المؤمن رقيقا، حساسا، مرهفا.. يتأثر، ويتحرك، وينفعل، ويخشى، ويخاف، ويتطلع.. وليس كومة لحم هامدة غليظة قاسية.. (لمتان: (لمة من الشيطان ولمة من الملك قلبك الملك، الرقة، والفهم، ولمة الشيطان السهو، والقسوة (يا موسى لا تطول في الدنيا أملك فيقسو قلبك، والقاسي القلب مني بعيد)
(ألم يئن للذين آمنوا ان تخشع قلوبهم لذكر الله، ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون) (١٠).

٢ – هذه الرقة في القلب هذه الحساسية.. والانفعال بكل معانيه واشكاله مرتبطة في قلب
المؤمن بالله تعالى وليس بالمنصب الشخصي، ولا بالمركز الاجتماعي، والمال.. ولا من
القوم، والعشيرة، وغير ذلك من المعاني الدنيوية.. الكثيرة التي تتعلق قلوب الناس بها، فتنفعل بحركتها وتنعكس عليها تقلبات هذه المعاني وأضرابها، ولنأخذ الآن اشكال
تعلق قلب المؤمن بالله تعالى.
١ – رجاء الله تعالى في النوائب.. عن أبي عبد الله (ع) (انه قرأ في بعض الكتب ان الله تبارك وتعالى يقول وعزتي وجلالي ومجدي وارتفاعي على عرشي لأقطعن امل كل مؤمل
من الناس غيري باليأس، ولأكسونه ثوب المذلة عند الناس، ولأنحينه من قربي، ولأبعدنه من فضلي. أيؤمل غيري في الشدائد، والشدائد بيدي؟ ويرجو غيري، ويقرع بالفكر باب غيري وبيدي مفاتيح الأبواب، وهي مغلقة وبابي مفتوح لمن دعاني؟ فمن ذا
الذي أملني لنائبة فقطعته دونها؟ ومن الذي رجاني لعظيمة فقطعت رجاءه مني؟ جعلت آمال عبادي عندي محفوظة، فلم يرضوا بحفظني وملأت سماواتي ممن لا يمل من تسبيحي،
وامرتهم ان لا يغلقوا الأبواب بيني وبين عبادي، فلم يثقوا بقولي ألم يعلم من طرقته نائبة من نوائبي، انه لا يملك أحد كشفها غيري إلا من بعد اذني، فما لي أراه لاهيا عني؟ أعطيته بجودي ما لم يسألني ثم انتزعته منه فلم يسألني رده وسأل غيري، أبخيل انا فيبخلني عبدي؟ أو ليس الجود والكرم لي؟ أو ليس العفو والرحمة بيدي؟ أو ليس انا محل الآمال فمن يقطعها دوني؟ أفلا يخشى المؤملون ان يؤملوا غيري؟ فيا بؤسا من القانطين من رحمتي ويا بؤسا لمن

عصاني ولم يراقبني) (١١).
عن الصادق (ع) (كان فيما أوصى به لقمان لابنه ان قال: يا بني خف الله خوفا، لو جئته ببر الثقلين خفت ان يعذبك الله، وارج الله رجاء، لو جئته بذنوب الثقلين رجوت ان يغفر الله لك).
وعنه (ع) (كان أبي يقول: ليس من عبد مؤمن الا وفي قلبه نوران: نور خيفة، ونور رجاء، لو وزن هذا لم يزد هذا على هذا، ولو وزن هذا لم يزد على هذا).
وعنه (ع) (ارج الله رجاء لا يجرئك على معصيته، وخف الله خوفا لا ييئسك من رحمته) (١٢).
ان كلا من الرجاء، والخوف لو اخذا منفصلين أحدهما عن الآخر، لاثر هذا على سلوك الانسان المسلم تأثيرا سلبيا - كما يبدو ذلك من هذا النص وغيره، لان الرجاء بلا خوف يجرى على المعصية، والخوف بلا رجاء ييئس من رحمة الله تعالى، وسلوك اليائسين
سلوك منحرف والانسان يعمل لآماله العريضة، ورجائه بالله تعالى أن يثيبه وينجيه من عذاب اليم.
٢ - خشية الله تعالى.. والخشية هي الانفعال المأخوذ بعظمة الله تعالى وهيبته.
(ألم يئن للذين آمنوا ان تخشع قلوبهم لذكر الله).

(انما يخشى الله من عباده العلماء)
٤ - الانس بالله تعالى. والرضا بقضائه، وعدم الجزع والضيق والسخط من قضاء الله تعالى وقدره.
الرضا بقضاء الله وقدره
هذه الحياة بما فيها من أشياء، وحوادث هي محل رضا الانسان المؤمن، لان الانسان إذ
يرتبط بعلاقة الحب مع الله تعالى، فإنه يرضى بكل
من آثار تعلق القلب بالله تعالى من آثار تعلق القلب بالله تعالى
من آثار تعلق وربط القلب بالله تعالى في خوفه، وتطلعه وخشوعه، وحركته الوجدانية.. الانقطاع عن معاني الدنيا، والتسامي على قيمها، وأشياءها.. والقلب الذي لم ينشد إلى الله في انفعالاته وحبه، من الطبيعي ان ينشد إلى معاني الجاه، والمال، ويرجو الناس، ويخافهم، ويكون قلبه كريشة في مهب الريح، تتذبذب، وتتقلب، وتتحرك، متأثرة
بأبسط التغيرات التي تحدث في عالم المعاني الدنيوية فإذا اصابه الخير كان منوعا، وإذا اصابه الشر كان جزوعا همه لا ينقطع، وقلقه لا ينتهي بحال..
ومن هنا جاء عن أبي عبد الله (ع) (ان القلب إذا صفا ضاقت به الأرض، حتى يسمو) و (من
عرف الله خاف الله، ومن خاف الله سمت نفسه عن الدنيا) (وان حب الشر، والذكر لا
يكون في قلب الخائف الراهب) وفي الآثار من حديث قدسي (لأقطعن أمل كل مؤمل من الناس
غيري باليأس، ولأكسونه ثوب المذلة عند الناس).

ما يصدر عنه تعالى من مخلوقات وحوادث.. وقد عد الرضا بالقضاء والقدر من أهم صفات
الانسان المؤمن وعناصر ايمانه، واكد عليه في النصوص تأكيدا بالغا.. وهو بلا شك ذو أهمية عظيمة في الحياة، ويشكل ميزة للانسان المؤمن على الانسان الكافر أو الانسان الذي لا يعيش قضية الايمان.
فالأشياء، والحياة، وحوادث الطبيعة كما هي محط خلاف بين الانسان المسلم، والانسان
الجاهلي المادي من الناحية الفكرية والعقائدية.. كذلك هي محط خلاف بينهما من الناحية النفسية. كيف نتعامل مع الحياة وحوادث الحياة؟ هل نعيشها برضا، وقناعة وابتسام، وانفتاح، أو نعيشها ضيقا وضنكا، وجزعا، وسخطا؟.
ان المؤمن يعيش هذه الحياة الدنيا بالرضا، والقناعة، والابتسام والانفتاح، ويتعامل مع حوادث الطبيعة كانسان متعاطف منسجم قانع.. وينطلق المؤمن في ذلك من أمرين يرجعان
إلى أن كل ما في هذا الكون من أشياء، وظواهر، واحداث فهو من صنع الله (١) علاقة الحب بالله تعالى.. التي تقتضي من الانسان المسلم الذي يحب الله تعالى ان يرضى بافعاله، ومخلوقاته، وكل ألوان التدخل منه تعالى في هذا العالم الفسيح (٢) ايمان المسلم بأن كل ما في هذا الكون من أشياء، وكلما يقع فيه من حوادث خاضع للتقدير، هادف للحكمة ويوجد وراءه هدف مرسوم، وغرض، وقصد في صالح الكون والحياة.
عن الصادق (ع):

(ان اعلم الناس بالله أرضاهم بقضاء الله عز وجل)
وعنه (ع):
(عجبت للمرء المسلم لا يقضي الله عز وجل له قضاء الا كان خيرا له. وان قرض بالمقاريض كان خيرا له. وان ملك مشارق الأرض ومغاربها كان خيرا له) (١٣)
وعن أبي جعفر (ع):
(أحق خلق الله ان يسلم لما قضى الله عز وجل من عرف الله عز وجل. ومن رضي بالقضاء
اتى عليه القضاء وعظم الله اجره ومن سخط القضاء مضى عليه القضاء وأحبط الله اجره)
(ثم إن صاحب الرضى أبدا في روح وراحة وسرور وبهجة، لأنه يشاهد كل شئ بعين الرضى
وينظر في كل شئ إلى نور الرحمة الإلهية، وسر الحكمة الأزلية، فكأن كل ما حصل وفق
مراده وهواه. وفائدة الرضا عاجلا فراغ القلب للعبادة

والراحة من الهموم، وآجلا رضوان الله، والنجاة من غضب الله) (١٤)
وليس من الرضا بالقضاء، والقدر، الرضا بالمنكر، والانحراف، حتى ولو أصر على ذلك المتصوفة والمنحرفون.
لان الانحراف والمنكر سببه، وفاعله الانسان، ولا يرضى الله به وانما يرضى المؤمن لرضى الله، ويغضب لغضبه، ومن هنا جاء عن الرضا (ع):
(ومن يرضى شيئا كمن اتاه. ولو أن رجلا قتل بالمشرق فرضي بقتله لرجل بالمغرب لكان
الراضي عند الله عز وجل شريك القاتل) (١٥)
وعن علي (ع):
(العامل بالظلم، والراضي به، والمعين عليه شركاء ثلاثة).
وعلى العكس من ذلك أكدت النصوص على ضرورة الانكار القلبي والسخط على المنكرات،
والانحرافات، واكدت على المؤمن ان يعمق من انكاره، وسخطه وان يقاوم الألفة النفسية
للمنكرات، بسبب ألفتها خارجا وذلك:

أولا: ان الانكار القلبي للمنكر والانحراف حصانة من الانجراف إلى المعصية، والتأثر بالبيئة، وحاجز نفسي يمنع المؤمن من الانحراف مع التيار المنحرف.
ثانيا: ان الانكار القلبي للمنكر هو الأساس النفسي واحد الأسس النفسية، للاندفاع نحو التغير، والحركة في سبيل التغيير الرسالي.
ثالثا: ان انكار المنكر قلبيا ينتهي إلى بعض المعاملات السلبية مع العاصين، والمنحرفين، وقد امر الرسول (ص) كما في الرواية عن الإمام علي (ع) أن يواجه العاصين
بوجوه مكفهرة ومن هنا اعتبر الانكار القلبي من مراتب الانكار في كتب الفقهاء.
الزهد
يتقوم الزهد الاسلامي بتحرير الوجدان من حب الدنيا، والانعتاق الداخلي من قيود الشهوة، والأهواء.
ولحب الدنيا آثار سلبية خطيرة في سلوك الانسان، وحياته النفسية، ذكرتها النصوص الاسلامية وحذرت منها (١٦).
نذكرها فيما يلي ثم نرجع إلى الزهد ومفهومه الاسلامي الأصيل.
١ - المخالفة.. فأول هذه الآثار السلبية، مخالفة الشريعة.. وكل حب وكل عاطفة، يتجه اتجاها عمليا، ويتطلب مواقف خاصة. ولا يهم الحب هذا، والعاطفة هذه، ما إذا كانت هذه المواقف تتوافق مع الشرع، أو

العرف أو عاطفة أخرى، أو لا تتوافق معها.. فأنت إذ تحب الجاه والمركز – والعياذ بالله – فمن الطبيعي ان تسعى لها وقد يتوقف حصولك على المركز الاجتماعي على فعل
محرم، كالرواية على أخ مؤمن، من اجل شينه، والحط من قيمته امام الناس، فترتكب هذا
المحرم في لحظة ضعف أو غفلة أو تمرد، فيقطع الله سبحانه ولايته منك، ويخرجك منها
إلى ولاية الشيطان، ولا يقبل الشيطان ولايتك.. والانسان مثلا إذ يحب الدنيا، حياتها وأمنها، وراحتها، ويرتبط بها ارتباطا وثيقا، ويطمئن إليها فمن المعقول جدا ان يرفض الجهاد في سبيل الله، ويتنكر لطريق ذات الشوكة، لأنه طريق عناء وتضحيات.

(يا أيها الذين آمنوا ما لكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل الله اثاقلتم إلى الأرض أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة الا
قليل) (التوبة / ٣٨)

ومن هنا وبسبب ان المخالفة هي النتيجة الطبيعية – لحب الدنيا – الامام كما في الرواية:

(حب الدنيا رأس كل خطيئة)

(ما ذئبان ضاريان في غنم قد غاب عنها رعاؤها، أحدهما في أولها، والآخر في آخرها، بأفسد فيها من حب المال والشرف

في دين المسلم) (١٧)
٢ - هم لا ينقطع.. وحب الدنيا ينتهي إلى انشغال نفسي، وعملي يتنافى مع ما يتطلبه وضع الانسان المؤمن من تكريس كل طاقاته النفسية، وجهوده في عبادة الله تعالى، وتعبيد الناس له، وما يكون عليه من تعال وتسام في الوضع، والسلوك.
عندما تحب الدنيا، والمال، والجاه وغيرهما تكون بذلك قد ربطت قلبك بشئ متغير، كثير
التغير والتبدل مما يؤدي إلى أن تضطرب حالاتك النفسية وتتغير من فرح غامر إلى حزن
كئيب، ومن حب إلى كره، ومن غضب إلى رضاء، وقلق وهم فان.
(من تعلق قلبه بالدنيا تعلق قلبه بثلاث خصال: هم لا يفنى، وأمل لا يدرك، ورجاء لا ينال) (١٨)
(من لم يتعز بعزاء الله تقطعت نفسه حسرات على الدنيا، ومن اتبع بصره ما في أيدي الناس كثر همه، ولم يشف غيظه ولم ير الله عز وجل على نعمه الا في مطعم أو مشرب وملبس فقد قصر عمله ودنا عذابه) (١٩)
٣ - حب الدنيا وحلاوة الايمان: عن جعفر بن غياث عن أبي عبد الله (ع) قال: سمعته
يقول:

(جعل الخير كله في بيت وجعل مفتاحه الزهد في الدنيا)
ثم قال: قال رسول الله (ص):
(لا يجد الرجل حلاوة الايمان حتى لا يبالي من اكل الدنيا)
ثم قال أبو عبد الله (ع):
(حرام على قلوبكم ان تعرف حلاوة الايمان، حتى تزهد في الدنيا)
وعن عبد الله بن القاسم عن أبي عبد الله (ع):
(الا من صبار كريم فإنما هي أيام قلائل، الا انه حرام على قلوبكم ان تجد طعم الايمان حتى تزهد في الدنيا)
وسمعته أبا عبد الله (ع) يقول:
(إذا تخلى المؤمن من الدنيا سما، ووجد حلاوة حب الله، فلم يشتغل بغيره)
قال وسمعته يقول:
(ان القلب إذا صفا ضاقت به الأرض

حتى يسمو) (٢٠)
ان التحلية لا تكون الا بالتخلية - كما يقولون - وحب الله، ومعايشة هموم الرسالة، والتفاعل النفسي، والشعوري مع حقائق الكون والمبدأ، والدعوة، إنما يكون عن طريق اضعاف، أو الغاء حب الدنيا في قلب المؤمن الرسالي وقطع القلب عما في أيدي الناس..
(لكي لا تأسوا على ما فاتكم، ولا تفرحوا بما اتاكم) (٢١)
ان المؤمن نوع جديد، ودم جديد، وصياغة جديدة للانسان، ليس لها سابقة في حضارة
المال، وحضارة الدنيا، ليس فقط في مفاهيمه، وبصائره، ورؤاه الفكرية وانما أيضا - وابتداء - في أحاسيسه، وعواطفه، وتعلقاته القلبية، وهمومه، وانفعالاته.. وبينما لا يتحرك قلب ابن حضارة الدنيا، والمال لسوى بريق الذهب، والتمركز في دنيا الناس، فان
قلب المؤمن يصفو فتضيق به الدنيا حتى يسمو ويذوق طعم الايمان، ولا يتناغم مع غير معاني القدس والطهر، ولا يرق لسوى خوف الله ورجائه والتطلع إليه.
٤ - الدنيا والحكمة.. من الممكن ان يكون الانسان عالما بالدين، ومحبا للدنيا، وراكضا وراءها في ذات الوقت، ولكنك لن تجد حكيما واحدا من أهل البصائر في دين
الله وهو يحب الدنيا ويسعى لها أكثر من سعيها لان حب الدنيا غطاء القلب، وحجاب عليها يمنع من الحكمة والتبصر.. وروح دين الله وقيم هذا الدين لا يعطيها ولا يتحملها الا مؤمن امتحن الله قلبه للايمان، وطهره من حب الدنيا.

(ومن زهد في الدنيا أثبت الله الحكمة في قلبه وأنطق بها لسانه، وبصره عيوب الدنيا، داءها ودواءها)
والشهوة، والهوى، حجاب عن ادراك لطائف الحقائق الدينية، وقيم الاسلام الأخلاقية، ولكم أدى الركون إلى الدنيا، والاطمئنان إليها إلى تحريف آيات الله المباركات في الكدح والجهاد؟ ولكم أدى الركون إلى الدعة والراحة، وحب الثرثرة، والألفاظ البراقة إلى الاعراض عن نصوص العبادة، وآيات التربية، والاعداد الروحي، بل وتحريفها لكي تكرس حياة الانقطاع عن الله بدل ان تكون أداة للانقطاع إليه؟
عن أبي عبد الله (ع):
(تجد الرجل لا يخطئ بلام، ولا واو خطيبا مصقعا، ولقلبه أشد ظلمة من الليل المظلم وتجد الرجل لا يستطيع ان يعبر عما في قلبه بلسانه، وقلبه يزهر كما يزهر المصباح).
وعن أبي جعفر (ع):
(القلوب ثلاثة: قلب منكوس لا يعي شيئا من الخير، وهو قلب الكافر، وقلب فيه نكتة سوداء، فالخير والشر فيه يعتلجان،

فأيهما كانت منه غلب عليه. وقلب مفتوح، فيه مصابيح تزهر، ولا يطفأ نوره إلى يوم القيامة وهو قلب المؤمن) (٢٢)
٥ - الدنيا تفرق ولا تجمع، الدنيا: هوى الذات، ولكل شخص هواه، فإذا وجدت عشرة من
أهل الدنيا فاعلم أن هناك عشرة غايات مختلفة متناقضة كل واحد من هؤلاء يريد مثلا المركز والجاه أي يهدف إلى أن يكون الشيخ المجل والحاكم المطلق دون سواه لان مشيخته
لا تتم الا بعبودية الآخرين. اما المؤمنون فهواهم الله والانسجام مع دين الله
تعالى.. والله سبحانه وتعالى واحد، وطاعته واحدة، وهذا هو السبب في أن سرعة إئتلاف
الأبرار إذا التقوا، وان لم يظهروا التودد بألسنتهم كسرعة اختلاط ماء السماء بماء الأنهار وان بعد ائتلاف قلوب الفجار إذا التقوا، وان أظهروا التودد بألسنتهم كبعد البهائم عن التعاطف، وان طال اعتلافها على مذود واحد. (٢٣)
الزهد تحرر وانعتاق
لا يستنكر الخلق الاسلامي امتلاك المؤمن الدنيا من مال، وجاه، وبنين، ولكنه يستنكر امتلاك الدنيا ومعانيها للمؤمن وأن تكون معبودة له من دون الله، أو مع الله.
الشهوات العاجلة كالشره في الاكل، والجنس، والمال، والرفاه، والزينة، والامن، والاستقرار، والاطمئنان إلى الدنيا.. والراحة والجاه.. هذه كلها معاني الدنيا وأشياؤها التي يزهد المؤمن وينبغي أن يزهد فيها.. لأن المؤمن ذو أفق واسع، ومنظار

عريض، يضع الأشياء موضعها، ولا يعطيها سوى قيمها الحقيقية، وأنت عندما تنظر المال،
والجاه.. في المنظار الاسلامي للحياة والآخرة ولله.. فلن ترى لهما – أخلاقيا – سوى رقم ضئيل ليس له في الحساب شئ وليس له في القلب مكان.
فالزهد عندما يدعو له الاسلام، ويربي الانسان المسلم عليه مسألة طبيعية لا تزيد على معايشة النصوص الاسلامية للحياة، والتفاعل النفسي مع حقائق الوجود. يتحول من خلاله
الانسان المسلم من انسان يرتبط بهذه المعاني الزائلة، ويصنمها، ويعبدها في القلب والوجدان، إلى إنسان يتعالى عليها، ويتسامى عنها، ولا يعطيها سوى قيمها الحقيقية التي تستحقها.. وقلب المؤمن كلما نما حبه لله تعالى، ولدينه وللمؤمنين، وازدادت همومه الرسالية، وتوجهاته النفسية للعمل والجهاد، كلما ضعف حب الدنيا في قلبه، وزهد
في معانيها الزائلة، مالا، وجاها، وزخرفا، وشهوات..
فالزهد اذن هو التحرر الداخلي من قيد الشهوة والهوى، والانعتاق النفسي الحقيقي من الدنيا، ومعانيها وهو بذلك سبب، ونتيجة في آن واحد للانقطاع إلى الله تعالى، والارتباط بالسماء.. أو بالأحرى العبودية الكاملة لله في المشاعر والعواطف والسلوك.
لقد طبلوا للحرية الغربية، والحرية في المجتمعات الديمقراطية، حرية في مجال السياسة، وحرية في مجال السلوك الشخصي، وحرية في الاقتصاد، وحرية في المجالات كافة.
ولكن الانسان المؤمن وحده هو الذي يعرف

ان الحرية الحقيقية ليس في هذا، ولا في ذاك، ولكنها في الزهد والتحرر الذاتي وان الحرية تجاوز القيود التي تكبل الإرادة الانسانية وتمنع الانسان من الابداع، والفعالية في مجال النمو والتكامل وتحقيق انسانيته، وعبوديته لله. وهذه القيود هي (ثانيا) القيود الخارجية والاجتماعية ولكنها (أولا) القيود الذاتية.. قيود التخلف العقلي. وضيف الأفق، ومادية الاحساس، وقيود العاطفة المكبلة بالمال، والطين، والجاه، والشهرة والجنس، والقناطير المقنطرة.

وليس الزهد في المفهوم الاسلامي الواعي سوى التحرر الذاتي من هذه القيود، وتحويل هذه المعاني التي يركض وراءها الناس ويطمئنون إليها، إلى معان زهيدة تافهة إلى جنب الله، ومعاني الخير، والقيم الاسلامية الرائدة.

وهذا التحرر الذاتي المتمثل بالزهد – على خلاف من حب الدنيا والركون إليها – هو وحده الذي يمكن الانسان المؤمن من تذوق حلاوة الايمان والانس بالله والتعالي على صغائر الحياة.

(حرام على قلوبكم ان تعرف حلاوة الايمان حتى تزهد في الدنيا)

وهو وحده – أو مع التقوى – الذي يمكن الانسان المسلم من أن يدرك الحق ويتحسس روح

هذا الدين وقيم هذه الرسالة (إذا رأيتم الرجل قد أوتي زهدا في الدنيا ومنطقا فاقتربوا منه فإنه يلقن الحكمة) وقال تعالى:

(يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته، ويجعل لكم نورا تمشون به) (٢٤)

هذا ولكننا لسنا مع الانحراف الصوفي الذي يعتبر طريقة العلم بالله، والمعارف الدينية هو، طريقة الرياضة والزهد.. والمراحل العملية الأخرى للصوفي، والعارف، فقد انزل الله تعالى كتابه بصائر، وهدى للناس، وبعث نبيه ورسوله يتلو عليهم آياته، ويعلمهم الكتاب، والحكمة ويزكيهم.. وطريق المعرفة هو هذا الطريق، أن تتعرف على أفكار الاسلام، وتشريعاته من خلال المقاييس التي وضعها الاسلام، والبيانات التي جعلها للناس.. ولكن علم الانسان المسلم ان يعد نفسه من اجل ان يكون (متلقيا) من الله متفاعلا مع النص منفتحا عليه مطهرا من الحجب والغشاوات التي يصرف الله بها كثيرا من الناس عن آياته.

وبالزهد في الدنيا.. يطمئن الانسان المسلم، ويخرج عن قانون الهلع والجزع.

(ان الانسان خلق هلوعا إذا مسه الخير منوعا وإذا مسه الشر جزوعا الا المصلين)

ويخرج عن دائرة الاضطراب النفسي.

(لكي لا تأسوا على ما فاتكم، ولا تفرحوا بما اتاكم)

وبالزهد في الدنيا.. في الجاه والمركز والتحكمات والظهور بين الناس يجتمع شمل المؤمنين، ويتماسك صفهم ويتوحدون في كدحهم إلى الله تعالى.

الزهد معنى نفسي

من خلال ما مر نعرف ان الزهد معنى نفسي، يرجع إلى طبيعة القيم النفسية، والميول الذاتية، والعاطفية للانسان وهو وان كان له آثار عملية غير أنه ليس معنى سلوكيا.

فليس الزهد إذا بتضييع المال، وتحريم الحلال، وتطليق الحياة، والتظاهر بالفقر مع مجموعة هائلة من الأوساخ والقذارات تشهد على هذه النصوص التالية:

(ليس الزهد في الدنيا بإضاعة المال، ولا تحريم الحلال، بل الزهد في الدنيا أن لا تكون بما في يدك أوثق منك بما عند الله عز وجل) (٢٥)

في حديث معتبر: (ان رجلا قال لأبي عبد الله (ع):

(والله انا لنطلب الدنيا ونحب ان نؤتاها فقال: تحب ان تصنع بها ماذا؟ قال: أعود بها على نفسي، وعيالي، واصل بها، وأتصدق منها، وأحج واعتمر. فقال أبو

عبد الله (ع): ليس هذا طلب الدنيا هذا طلب الآخرة) (٢٦)
وعن علي بن الحسين (ع): (الا وان الزهد في آية من كتاب الله عز وجل).
(لكي لا تأسوا على ما فاتكم، ولا تفرحوا بما اتاكم) (٢٧)
وغير ذلك من النصوص الدالة على كون الزهد المطلوب هو معنى نفسي ووجداني..
ولكن يجب علينا هنا ان نستدرك، ونتذكر بان هذا المعنى النفسي الأخلاقي - ككل المعاني النفسية - له صلة وثيقة بالسلوك، والمواقف الخارجية، فالزاهد المسلم يختلف من الناحية السلوكية عن غيره.. فهو لا يلح في الطلب - طلب المال - ولا يكثر من تناول الملذات.. ولا يركض، ولا يسعى للجاه، والمركز.. لان همومه الرسالية تستوعب
كيانه النفسي والسلوكي.. ومن هنا جاء في الرواية عن أبي عبد الله (ع):
(ليكن طلبك للمعيشة فوق كسب المضيع ودون طلب الحريص الراضي بدنياه المطمئن إليها
ولكن انزل نفسك من ذلك بمنزلة المنصف (النصف خ ل) المتعفف، ترفع نفسك عن منزلة
الواهن الضعيف

وتكسب ما لا بد للمؤمن منه. ان الذين أعطوا المال ثم لم يشكروا لا مال لهم) (٢٨)
ان وقت المؤمن، وهمومه، ودوره الذي ينتظره في الحياة الاسلامية لا يتسع للطلب الزائد، والملاذ الكثيرة، والمساعي الشخصية الا بالقدر الذي يهيئ له ضرورة العيش، وضرورة الحياة، وكل ما عدا ذلك أحابيل الشيطان، وشباكه التي يصطاد بها الكثير من المؤمنين ويخرجهم بها من دائرة العمل في سبيل الله والجهاد للرسالة إلى دائرة الحياة الشخصية التافهة الصغيرة.

الزهد تحرر، والصبر إرادة

الزهد - كما عرفنا - قطع علاقة القلب بالدنيا.. وربطه بالله.

(وان لا تكون بما في يدك أوثق منك بما عند الله)

ويختلف الصبر عن الزهد في أن الصبر يتمثل في ضبط النفس، ومخالفة الهوى، فهو إرادة
حازمة امام القيم الذاتية، وشهوات النفس، وأهوائها، اما الزهد فهو الغاء الأهواء وقطع القلب من كل ما عدا الله وهو بذلك أعلى منزلة من الصبر وان كان مرحلة في الطريق إليه.

عن أمير المؤمنين (ع):

(الناس ثلاثة: زاهد، وصابر، وراغب،

فاما الزاهد: فقد خرجت الأحزان والأفراح من قلبه، فلا يفرح بشئ من الدنيا ولا يأسى على شئ منها فاته. فهو مستريح. واما الصابر: فإنه يتمناها بقلبه فإذا نال منها الجم نفسه عنها بسوء عاقبتها، وشنآنها، ولو اطلعت على قلبه لعجبت من عفته، وتواضعه، وحزمه، واما الراغب: فلا يبالي من أين جاءته الدنيا من حلال أو حرام ولا يبالي ما دنس فيها عرضه، وأهلك نفسه، وأذهب مروءته فهم في غمرة يعمهون، ويضطربون).

طمأنينة الوجدان الاسلامي

وجدان الانسان الجاهلي في اضطراب دائم. وقلق مستمر، وانفعال قتال، ذلك أن وجدانه

يرتبط بالدنيا ومفاهيمها، والدنيا، ومعانيها في تغير من حال إلى حال لا استقرار فيها، ولا ركون.. وهذا الاضطراب، والحركة، والتغير الذي يقع في الأوضاع الدنيوية للانسان ينعكس على وجدانه فيمزقه، ويتركه في لجة من الاضطرابات والانفعالات السريعة

القوية.. اما الانسان المؤمن فقلبه مطمئن، ووجدانه هادئ.

(الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله)

(يا أيتها النفس المطمئنة، ارجعي إلى

ربك راضية مرضية، فادخلي في عبادي، وادخلي جنتي) (٢٩)
وهذه إحدى سمات الوجدان الايماني.. الطمأنينة بذكر الله.. وتنعكس على سلوكه، وتعامله مع الناس، ومشيه على الأرض بين الناس.
(وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا، وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما) (٣٠)
وتنبع عن قطع القلب بالمعنى المتغير المتذبذب، والرائح الجائي الذي ينعكس اضطرابه، وتذبذبه على كل قلب تعلق به، وانشد إليه من جاه، وبنين، ومال، ورفاه.. وغير ذلك من
دنيا الناس، وهمومهم.
أن أولى محاولات الاسلام التربوية، وقد تكون من أهمها على الاطلاق، هي بناء شخصية
الانسان المسلم على أن تكون (مستقلة) عن الاحداث مستعلية على صغار الدنيا، ومتجاوزة
لمعانيها، وبالتالي قطع (الصلة التأثيرية) للمؤمن بحركة معاني الحياة وتذبذبها..
واستبدال ذلك بشدها إلى الله، وإيجاد نحو من الصلة الجديدة بالاحداث، وهي صلة التأثير، والقيادة، والتغير، وقد يعتبر الانسان المؤمن من حركة الاحداث، واضطراب أمور الحياة، ويعرج من خلال ذلك إلى الله.. المطلق المتعال.. ولكنه – في صياغة الاسلام – اسمى من أن تمزقه هموم الحياة، أو تكون قائدة له عاملة فيه..

من الممكن ان نختصر الأمور.. أو الانفعالات التي تأكل قلوب الناس، وتمزق وحدتهم الشخصية، - وتفقدهم الإرادة، والتماسك في ثلاثة:
١ - الخوف والقلق.
٢ - الجزع والضيق.
٣ - الغضب، والأحقاد الشخصية.
(١) - قلق الانسان، وخوفه على ماله من الضياع، وتجارته من الخسران، والكساد، وخوفه،
وقلقه على أوضاعه الهادئة من أن تصاب بأذى ومتاعب، وقلقه، وخوفه على حياته من أن
تتعرض للمخاطر.. ومركزه، وجاهه ان يصاب بسوء هذه وغيرها هي المخاوف التي اعتادها
الناس، ووعي المؤمن للحياة بصورة أخرى غير الصورة المادية، واتجاهه النفسي المتمثل
بالزهد بالمعاني الدنيوية.. هما الأمران الكفيلان في مواجهة عقد المخاوف، والقلق.
ان زهد المؤمن بالمال وزهده بالراحة، والرخاء، والامن إذا ما قيسا إلى الراحة الأبدية والرخاء الأبدي، وزهده بالحياة الدنيا بالقياس إلى الحياة الأبدية، السعادة الدائمة، أن هذا الزهد لكفيل بالحد من درجة المخاوف، أو ازالته من صفحة النفس نهائيا، لان الخوف، والقلق لا يكون الا بالنسبة إلى المعاني التي تملك النفس وتملأ الوجدان، والزهد في منطق الاسلام هو التحرر الوجداني من هذه الأشياء، والمعاني.
وإذا كانت قمة مخاوف الناس، وقلقهم، وخوفهم على أنفسهم من

المكاره، والأذى، وخوفهم على حياتهم من الخطر، والهلاك فان المؤمن المشبع بروح الرسالة.. المربى على هدي كتاب الله يأنس بالموت في سبيل الله كما يأنس الطفل بثدي
أمه.
(وذلك بأنهم لا يصيبهم ظمأ ولا نصب، ولا مخمصة في سبيل الله ولا يطؤون موطئا يغيظ
الكفار ولا ينالون من عدو نيلا الا كتب لهم به عمل صالح ان الله لا يضيع اجر المحسنين) (٣١)
وإذا كان الناس يفرون من الموت فان المؤمن بدلا عن ذلك يستعد له، وينتظره بفارغ الصبر ويتطلع إلى اليوم الذي يستشهد فيه في سبيل الله ولو على يد شر خلق الله، وذلك
لان مؤمن الرسالة لا ينظر إلى الموت في سبيل الله على أنه اعدام الحياة.. بل على أنه بداية الحياة الحقيقية التي يجهلها الناس، ولا يلقاها الا ذو حظ عظيم.
(ولا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله أموات بل احياء ولكن لا تشعرون) (٣٢)
(٢) – ومن مظاهر اضطراب الشخصية الانسانية الجزع والضيق عند المصيبة، والفشل.
(خلق الانسان هلوعا، إذا مسه الخير منوعا، وإذا مسه الشر جزوعا) (٣٣)

وللشر الدنيوي اشكال كثيرة خسارة في مال، فقدان ولد، أو حبيب.. سقوط الهيبة والمكانة في أعين الناس، فشل مشروع عملي.. الخ.. والاستثناء الوحيد من هذه القاعدة
هم المصلون المؤمنون الذين يعيشون صلاتهم مع ربهم أحاسيس وتوجهات، والواقع ان مصائب
الناس هذه ليست مصائب عند المؤمن حتى يجزع عليها، أو تضيق نفسه بها.. ولو صدقت
عليها انها مصائب بالنسبة له، فإنما تقع عليه، وهو يعاملها ضمن تصور شامل للوجود، والحياة، ومفاهيم واقعية يتعزى بها المؤمن، ويستلهم منها الثبات، ويستمد منها الطاقة.
المؤمن أساسا.. لا يصل انفعاله عند المصيبة الشخصية إلى حد الضيق فضلا عن الجزع..
لان مستوى (الزهد) الذي عنده، ودرجة ارتباط قلبه بالله تعالى يخففان من درجة (الإصابة)، والتأثر بالحدث، ولا يمنع هذا من أن تدمع عينه على فلذة كبده مثلا، وهو يموت بين يديه، ويحزن قلبه حزنا ضعيفا هادئا.. ولكن لا يتضايق، ولا يقول ما لا يرضي الرب، ولا يستقل منه شئ.
ان المؤمن يحافظ على درجة كبيرة من الانفتاح النفسي على الحياة، والابتسام لها مهما تداكت عليه المصائب ونزلت به النوائب الشخصية وحلت به الخطوب، والانتكاسات..
والذين يبكون من كل شئ، ويضيقون من كل حدث ويسودون وجه الحياة البسام، فإنهم
يعوزهم الكثير الكثير من معاني الايمان ودرجات التعالي الروحي، والزهد الواعي الأصيل..

(٣) – والغضب، والأحقاد الشخصية.. هي الأخرى مما يأكل في قلوب الناس، ويمزق تماسكهم
الشخصي.. الغضب للذات عندما تهان، أو تتعرض لبعض الألوان البسيطة أو الشديدة من
الاعتداءات، والأخطاء في حقها.
والحقد على الانسان الذي يرتكب بعض الأعمال المشينة عن غفلة أو تعمد.. أو على الانسان الذي يهبه الله بعض القابليات، والقدرات التي يتقدم بها علينا، ويبرزها في مراكزنا.. هذا جزء آخر.. ووجه آخر لاضطراب الوجدان البشري.. ولكن الوجدان الذي لم
يرب في ظل هداية الله تعالى.. فان الغضب حسب ما توحي به هذه الهداية يفسد الايمان
كما يفسد الخل العسل.
(ان هذا الغضب جمرة من الشيطان توقد في قلب ابن آدم وان أحدكم إذا غضب احمرت عيناه،
وانتفخت أوداجه، ودخل الشيطان فيه) (٣٤)
ان هذا الغضب من الشيطان لأنه ينبع من قيم شخصية ذاتية ومن (انا) فاسد لا نضج فيه،
وان الغضب يفسد الايمان.. لان الغاضب في غضبه يخرج عن حدود المنطق الديني، والمنطق
الأخلاقي.
وكذلك الحال في الحقد، والعداوات الشخصية.. التي تصدر من وجهة نفسية عن قيم أنانية،
وخبث في الذات، والمؤمن لا يكون مؤمنا وهو حاقد على أخيه، أو كاره له حتى يرجع إلى
حبه فان المؤمن يأنس إلى أخيه المؤمن

كما يأنس الظمآن إلى الماء.. أو كما يأنس الطير إلى وكره وأين هذا من حقد متأصل،
وعداوة متمكنة من القلب مفسدة له، ان المؤمن ليتسامى فلا يرد على الإساءة.. بل
وهو
في أكثر الأحيان لا ينظر إليها على انها إساءة، أو يحسب لها في نفسه أي حساب..
في
خبر معتبر عن أبي عبد الله (ع) قال: قال رسول الله (ص) في خطبته:
(الا أخبركم بخير خلائق الدنيا والآخرة؟ العفو عمن ظلمك، وتصل من قطعك،
والاحسان
إلى من أساء إليك، واعطاء من حرمك) الأصول ج ٢ ص ١٠٧
وان المؤمن ذو قلب رحيم، عطوف حنون يسامح ويكظم الغيظ، ويعفو عن الناس وان
أساءوا،
ويصلهم وإن قطعوا، ويحترمهم وان أهانوا، والمؤمن اسمى من أن يصدر عن غيظ،
وينطلق عن
غضب أو حقد، وكيف يعرف قلبه الأحقاد وقد تمكنت فيه هداية الله وحب المؤمنين؟
العلاقة الوجدانية بالرسالة ونجاح
الدعوة
المؤمن في الأساس ينطلق في عمله الرسال الدعوتي، لان الله تعالى يطلب منه ذلك،
ولأنه يثيبه عليه.. ولكن الانسان المسلم لا يتعامل مع عمله على أساس انه (مسؤولية)
يريد التنصل منها، وابراء ذمته، وعهدته من عبء الامر، والطلب الإلهي.. بل، ولا
يتعامل معه على أنه (طريق للثواب) الأخروي.. فقط.. وانما تنشأ عنده قبل العمل لله،
وأثناءه علاقات وجدانية تتمثل في حب هداية الناس، والتطلع إلى تغييرهم،

واصلاح دينهم، وآخرتهم، وينشط لديه الحس الأخلاقي فيهمه امر الناس، والاحسان إليهم
وطاعتهم لله.. ففي الرواية عن عمار السابطي قال قلت لأبي عبد الله (ع): (أيما أفضل العبادة في السر مع الامام منكم المستتر في دولة الباطل، أو العبادة في ظهور الحق، ودولته، مع الامام منكم الظاهر؟ فقال: يا عمار الصدقة في السر والله أفضل من الصدقة في العلانية وكذلك والله عبادتكم في السر مع امامكم المستتر في دولة الباطل وتخوفكم من عدوكم في دولة الباطل، وحال الهدنة أفضل ممن يعبد الله عز وجل ذكره في
ظهور دولة الحق مع امام حق ظاهر في دولة الحق..
ثم قال عمار: قلت: جعلت فداك فما ترى إذا ان نكون من أصحاب القائم، ويظهر الحق،
ونحن اليوم في إمامتك وطاعتك أفضل أعمالا من أصحاب دولة الحق والعدل؟
قال (ع):
(سبحان الله اما تحبون ان يظهر الله تبارك وتعالى الحق، والعدل في البلاد، ويجمع الله الكلمة ويؤلف الله بين قلوب مختلفة، ولا يعصون الله عز وجل في ارضه وتقام حدوده في خلقه، ويرد الله الحق إلى أهله فيظهر حتى لا يستخفي بشئ من الحق مخافة
أحد من الخلق) (٣٥)
وهكذا لا يريد الامام ان يجعل من قضية تطبيق حدود الله أو إقامة

دعائم ومعالم رسالته في الأرض مجرد قضية مسؤولية باردة.. يتهرب عنها الانسان في أي
لحظة يتوهم فيها أن عملا آخر أكثر ثوابا، واجرا.. ويتعامل معها تعاملا فرديا جافا، وانما هي قضية رسالة ربانية.. وإرادة الله تعالى في الأرض يكتل لها الامام، والاسلام القيم الدينية النفسية المتعلقة بالثواب، والقيم العاطفية الراجعة إلى حب الله، وحب رسالته، والغضب لمحارمه، إذا انتهكت، والقيم الانسانية الأخلاقية المتعلقة بالعدل، والاحسان، والتأليف بين القلوب، وأمثالها من المعاني، التي لا يريد الاسلام ان يميتها، ويذيبها في الحس الديني بمعناه الضيق المحدود، وانما يشركها في عملية البناء والتربية.

ونتيجة للتعامل العاطفي مع قضية الدعوة.. والعلائق الوجدانية بها، فمن المعقول ان يألم المؤمن في اللحظات التي ينحرف فيها الناس، ولا تحقق الدعوة نجاحا حسيا ملموسا ويحس بحزن هادئ رزين، وتصيبه حالات من التحسر على الناس وشئ من الأسى
المخفف ومن الطبيعي ان يسر، ويفرح عندما يتحقق نحو من التقدم للدعوة والعمل عند الناس.. وليس في هذا ما ينقص من دينه وارتباطه بالناس.. وهذه سيرة الرسول (ص) والأئمة (ع) حاشدة بالأمثلة على هذه الأواصر القلبية، والتعلق الوجداني (العاطفي، والانفعالي) بينهم وبين الدعوة ومع الناس.. وأسبق الأمثلة إلى الأذهان.. ما يبدو من خلال القرآن الكريم من أن رسول الله (ص) وهو قمة ما أمكن للهدى الإلهي ان ينشئه ويربيه - كان يتحسر على قومه ويصيبه نحو من أنحاء الألم النفسي على أنهم لا يؤمنون.. وكل ما حاوله كتاب الله تعالى هو ان عزاه وسلاه، والفت نظره إلى وسائل

التثبيت، والتسلية، والعزاء من خلال معايشة التصور الرباني للحياة.. واللجوء إلى الله.
الحد من العلاقة الوجدانية بالدعوة
هذا وجه المسألة. والوجه الآخر لها.. هو ان التربية الاسلامية، إذ تحاول تنمية العلاقة الوجدانية بالدعوة والرسالة، وتوطيد العواطف الدعوتية، والاسلامية التغيرية من حب الناس، وحب هدايتهم، والسرور بذلك، وما يترتب على ذلك - بحسب قوانين النفس -
من آلام نفسية معينة عند تكذيب الناس وسخريتهم بالرسالة، واعراضهم عنها.. ان التربية الاسلامية إذ تحاول ذلك تحذر من نقطتين تعبران عن الافراط في هذا الجانب.
١ - أن تنمو العلاقة العاطفية بالدعوة إلى الله والى رسالته.. على حساب العلاقة العاطفية بالله تعالى نفسه.. بحيث يكون حب الدعوة أكبر من حب الله.. وتتقدم بالتالي
قضية الدعوة من الناحية العملية على قضية الالتزام الشرعي والتعبد بحدود الشريعة، وخط الاسلام يذكرنا هذا بالمحاولات التي كانت تبذل من قبل بعض أصحاب الإمام (ع) من
اجل حمله (ع)، لانتهاج بعض الوسائل والأساليب ليبقى الناس إلى صفه، ويتحركوا للجهاد.. وكان جوابه (ع).. انني اعرف ما يصلحهم، ولكن لا أريد اصلاحهم بفساد نفسي..
ان الهدف النهائي في الدعوة.. وكل ما يتصل بها من تخطيط، وجهود هو رضا الله سبحانه.. وان المنبع النفسي الذي نشأت عنه العلاقة

– العاطفية والوجدانية بقضية الاسلام هو العاطفة الربانية والوجدان الديني.. فلا يمكن بحال ان تكون العاطفة الدعوتية في شخصية الانسان المسلم – أركز، وأقوى من
العاطفة الدينية.. أو العاطفة الإلهية بحيث تحكمها وتتمكن منها عند التزاحم والتعارض.
وقد نلاحظ في واقعنا التربوي بعض النماذج التي تعكس الأمور، وتجعل قضية الدعوة (هدفا) وقضية الله (وسيلة) لا بمعنى النفاق، والعياذ بالله.. ولكن بمعنى ان
الأصالة النفسية للدعوة والرجحان لها في كثير من موارد التزاحم والتعارض.
وقد تكون الاستقامة السلوكية.. وسيلة للتأثير في الناس، وقد يفسر في هذا الاتجاه وهو، ان لا يملك الهدف الاجتماعي سوى قيمة نفسية أضعف من القيمة النفسية لله تعالى،
وفي طولها لا في عرضها – قوله تعالى:
(يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم إلى الله مرجعكم جميعا فينبئكم بما كنتم تعملون) (٣٦)
فليس في الآية دلالة على النهي عن هداية الناس، وأمرهم بالرشاد لان الامر بالمعروف، والعمل في سبيل هداية الناس من شؤون هداية النفس، فالانسان لا يهتدي، الا إذا امتثل أوامر الله بما فيها الامر المتعلق بهداية الناس، والاهتمام بشؤون المسلمين.

وانما تهدف الآية - في ضوء بعض التقادير - إلى النهي عن أن ترتبط قلوب العاملين الاسلاميين بالناس، وهدايتهم بحيث تكون هداية الناس هي الأول، والأخير، والشغل الشاغل، والمعبود من دون الله.. انما المؤمن الرسالي حقا هو ذلك الذي يعبد الله ولا يعبد سواه، ويهدف بالدرجة الأولى إلى هداية نفسه، وعبادة الله. وإذا كانت هداية النفس، وعبادة الله تنتهي إلى الاهتمام بأمور المسلمين، والعودة إلى الخير، والامر بالمعروف، والنهي عن المنكر فليس هذا سوى (شأن) من شؤون هداية النفس، وليس له شخصية
مستقلة، أو كيان خاص.

٢ - والنقطة الثانية: هي ان لا تخرج العلاقة الوجدانية بالدعوة، والعمل إلى مستوى يضر العمل، ولا يخدمه.. فان العواطف الدعوتية قد تدعو الانسان إلى تجاوز مصالح العمل والدعوة والاضرار بها.. لان من طبيعة العاطفة أن تكون عمياء.. وانما تكتسب رؤيتها من العقل والانتباه.

والامر كذلك بالنسبة إلى الانفعالات.. فقد يؤدي تجمد الدعوة، وتكذيب الناس، وسخريتهم، واعراضهم عن الرسالة إلى حدوث شئ من الحزن الهادئ، والألم النفسي البطئ.

وهذا امر طبيعي نتج عن الحد الأدنى المعروض من العواطف الرسالية.. ولكن قد يؤدي ذلك
إلى (الضيق) النفسي، والهلاك، والاحساس بالفشل وهذا معنى مرفوض من وجهة نظر الاسلام
التربوية لان مثل الانفعالات التي لا يحتفظ الانسان المسلم معها بالحد الأدنى من الانفتاح النفسي الذي تستلزمه الدعوة، ويستلزمه الاستمرار فيها وزيادة

فعاليتها، وتنشيطها، مثل هذه الانفعالات لا تكون في مصلحة العمل، وانما على
حسابه،
وعلى حساب الدعوة والرسالة خاصة إذا أدى مثل هذا الضيق إلى شئ من الحيف،
والانحراف
والخروج عن الجادة الاسلامية من الزاوية النفسية، والفكرية.
وهذا هو الذي كان الهدي الإلهي يحول بينه، وبين رسول الله (ص) في اللحظات
الحرجة،
والأيام الصعبة.. أيام التكذيب، والسخرية، والاعراض.. أيام الغربة، والجفاء،
والضيق، والاضطهاد.. فليس المهم ان لا يألم رسول الله (ص) ولا يحزن على الناس..
ولكن المهم ان لا تتطور هذه الحالة إلى معنى لا ينسجم مع النموذج الأمثل للشخصية
الاسلامية.. كان الهدي الإلهي يحول بين هذا المعنى وبين رسول الله وذاك من خلال
تذكيره بالله تعالى وتحسيسه بالتصور الرباني للكون، والحياة، وحثه على الممارسات
العبادية.. وإقامة الصلاة.
(ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون فسبح بحمد ربك، وكن من الساجدين،
واعبد ربك
حتى يأتيك اليقين) (٣٧)
(واصبر وما صبرك الا بالله ولا تحزن عليهم ولا تك في ضيق مما يمكرون، ان الله مع
الذين اتقوا، والذين هم محسنون) (٣٨)
(لعلك باخع نفسك الا يكونوا مؤمنين ان نشأ ننزل عليهم من السماء) (٣٩)

والحال في انفعال الفرح والسرور عند النصر.. كالحال في انفعال الحسرة والألم النفسي
والضيق.. عند التكذيب والسخرية والاعراض. فالسرور عند النصر أمر طبيعي ومرغوب ولكن
المفروض أن لا يتحول إلى فرحة نفسية غامرة تفقد الانسان المسلم توازنه وتنسيه الله، وتوهمه امكانية الاعتماد على الذات أو تنسيه نفسه وعيوبها.
(إذا جاء نصر الله والفتح. ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا. فسبح بحمد ربك واستغفره انه كان توابا).
٠١٠٠ إذ تفيد هذه الآيات أن لحظة النصر.. يحتاج الانسان فيها إلى ذكر الله، واستغفاره والتوجه إلى عيوب النفس حتى لا يطغى أو ينسى.. بل حتى لا تتضرر قضية الدعوة نتيجة لتمكن النشوة والفرح من قلوب الدعاة.
الغضب الرسالي
إن الغضب الشخصي مرفوض في الخلق الاسلامي.. أما الغضب الرسالي، الغضب لمحارم الله
إذا انتهكت، ولدين الله إذ حرف، فأمر يربي عليه الاسلام (٤٠) وهو نتيجة طبيعية للقيم الرسالية في الشخصية الاسلامية.. وإذا ما وجدنا أنفسنا أحيانا لا نشعر بالانكار القلبي للمنكر والغضب عليه فهذا ما يعني أن علينا أن نشحذ قوانا الانفعالية وننشئها على الاسلام من جديد.
غير أن هذا الغضب.. الرسالي يجب أن لا يخرج عمليا عن حدود الرسالة

نفسها.. وكثيرا ما لا يكون التصرف الغاضب منسجما مع مقاييس الرسالة وموافقا لأحكامها.. والجهاز الحاكم في الشخصية هو العقل الذي يحدد الموقف الذي يستلزمه
المنطق الديني، وليس العواطف والانفعالات.
والمؤمن في ميدان العمل يحتاج أكثر من غيره إلى إرادة حازمة وشخصية مستقلة عن الاحداث والاثارات، فيجب أن لا يرد إذا جهل عليه، ولا يثور إذا استثير وانما يكون حكيما.. متعقلا باستمرار، وفي كل مجال.
قال أبو جعفر عليه السلام:
(في حكمة آل داود ينبغي للمسلم أن يكون مالكا لنفسه مقبلا على شأنه عارفا بأهل زمانه، فاتقوا الله، ولا تذيعوا حديثنا) (٤١)
٠١٠٠ وعن أبي عبد الله عليه السلام:
(كظم الغيظ عن العدو في دولاتهم تقية حزم (الحزم ضبط الأمر والأخذ فيه بالثقة) لمن أخذ به، وتحرر، من التعرض للبلاء في الدنيا، ومعاندة الأعداء في دولاتهم ومحاظتهم في غير تقية ترك أمر الله. فجاملوا الناس يسمن لكم عندهم، ولا تعادوهم فتحملوهم على رقابكم

فتذلوا) (٤٢)
٠١٠٠ وليس كظم الغيظ والغضب عن العدو أمامه فقط وانما في كل أمر تقتضي فيه مصلحة
الرسالة الكف ويقتضي فيه الغضب الحركة والاستجابة للاثارات.
هذا وقد سجل الله تعالى لنبيه الكريم في القرآن قصة ذي النون (يونس ع) وأمر بذكرها.
(وذا النون إذ ذهب مغاضبا فظن أن لن نقدر عليه فنادى في الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين. فاستجبنا له ونجيناه من الغم وكذلك ننجي المؤمنين) (٤٣)
٠١٠٠ وخلاصة القصة وما عليها من تعليق كما في (ظلال القرآن لسيد قطب):
انه أرسل إلى قرية فدعا أهلها إلى الله فاستعصوا عليه فضاق بهم صدرا، وغادرهم مغاضبا ولم يصبر على معاناة الدعوة معهم ظانا أن الله لن يضيق عليه الأرض، فهي فسيحة والقرى كثيرة والأقوام متعددون، وما دام هؤلاء يستعصون على الدعوة فسيوجهه
الله إلى قوم آخرين. ذلك معنى (فظن أن لن نقدر عليه) وقاده غضبه الجامح وضيقه الخانق إلى شاطئ البحر فوجد سفينة مشحونة فركب فيها إذا كانت في اللجة ثقلت وقال
ربانها: انه لا بد

من القاء أحد ركابها في البحر لينجو سائر من فيها من الغرق فساهموا فجاء السهم على
يونس فألقوه أو ألقى هو نفسه فالتقمه الحوت مضيقا عليه أشد التضيق..
إن يونس لم يصبر على تكاليف الرسالة فضاق صدرا بالقوم والقى عبء الدعوة وذهب مغاضبا ضيق الصدر حرج النفس فأوقعه الله في الضيق الذي تهون إلى جانبه مضايقات المكذبين.. وأصحاب الدعوات لا بد أن يتحملوا تكاليفها، وان يصبروا على التكذيب بها
والايذاء من أجلها. وتكذيب الصادق الواثق مرير على النفس. مرير على النفس حقا، ولكنه بعض تكاليف الرسالة فلا بد لمن يكلفون عمل الدعوات أن يصبروا ويحتملوا، ولا
بد أن يثابروا ويثبتوا ولا بد أن يكرروا الدعوة ويبدوا فيها ويعيدوا..
إن من السهل على صاحب الدعوة أن يغضب لان الناس لا يستحبون لدعوته فيهجر الناس..
انه عمل مريح قد يفتر الغضب ويهدئ الأعصاب ولكن أين هي الدعوة؟ وما الذي عاد عليها من هجران المكذبين المعارضين؟
إن الدعوة هي الأصل لا شخص الداعية! فليضق صدره.. ولكن ليكظم الغيظ ويمض. وخير له
أن يصبر فلا يضيق صدره بما يقولون.
إن الداعية أداة في يد القدرة، والله أرعى لدعوته وأحفظ فليؤد هو واجبه في كل ظرف وفي كل جو، والبقية على الله والهدى هدى الله.
وان في قضية ذي النون لدرسا لأصحاب الدعوات ينبغي أن يتأملوه،

وان في رجعة ذي النون إلى ربه واعترافه بظلمه لعبرة لأصحاب الدعوات ينبغي أن يتدبروها وان في رحمة الله لذي النون واستجابة دعائه المنيب في الظلمات بشرى للمؤمنين وكذلك ننجي المؤمنين.

الفصل الرابع: العبودية

(الإرادة الحازمة والعمل الخالص)

الإرادة الربانية محور مركزي في الشخصية الاسلامية:
قد نطلق كلمة (الإرادة) ونقصد بها الاختيار، وإعمال القدرة في ترجيح جانب الفعل أو جانب الترك، فنقول: ان فلانا أراد كذا، ولم يرد كذا.. وقد نطلق كلمة (الإرادة) ونريد بها الشوق إلى الفعل، أو بعضه بالنسبة إلى تركه فيقول الأصولي، ان منا مبادئ الحكم.. الملاك والإرادة.. وقد نطلقها ونريد بها الجهاز الحاكم في الشخصية الذي يسيطر على رغبات النفس، فيمنع من بعض الأفعال، ويلزم بالبعض الآخر.. ومن هنا يقال:
ان إرادة فلان ضعيفة بمعنى، انه منساق مع رغباته، وليس لديه القدرة على التحكم فيها، وإرادة فلان قوية بمعنى أن لديه قدرة كافية على التحكم في الأهواء، والرغبات الشائعة الآنية.. وهذا هو المقصود.
ويتلخص هذا الجانب في شخصية الانسان المسلم في (حلول الإرادة الربانية محل الإرادة
الشخصية) بحيث تكون إرادة المسلم، وجهازه الحاكم في شخصيته ممتثلا لإرادة الله تعالى الإرادة التشريعية بالطبع (١) ومنسجما معها ولهذه الإرادة التي تشكل العنصر الثالث البارز في الشخصية الاسلامية - مضافا إلى عنصري الايمان، والحب - حيثيات،
وجهات ثلاث:
١ - القدرة على التحكم في الأهواء، والشهوات، والسيطرة عليها، ومخالفتها، والإرادة من هذه الجهة تسمى ب (الصبر).

(الصبر من الايمان بمنزلة الرأس من الجسد فإذا ذهب الرأس ذهب الجسد، وإذا ذهب الصبر
ذهب الايمان)

٢ - انسجام هذه الإرادة، وتوافقها مع الإرادة الربانية التشريعية.. وتسمى الإرادة بهذا اللحاظ ب (الطاعة) أو (الالتزام).

(تلك حدود الله ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار، خالدين فيها، وذلك الفوز العظيم، ومن يعص الله ورسوله، ويتعد حدوده يدخله نارا خالدا فيها وله عذاب مهين) (النساء / ١٤)

(وما كان لمؤمن أو مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرا ان يكون لهم الخيرة)

٣ - انبعاث الإرادة الشخصية عن الإرادة الإلهية أو عن دافع ديني عام وهذا هو (الاخلاص).

(وما أمروا الا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء).

وسندرس هذه الجوانب الثلاثة إن شاء الله.. وندرس معها أيضا.. قضية (التعقل) في السلوك بوصفه بعدا آخر للإرادة المسلمة.. وقضية

(التوكل) بصفة عملية تعزيز لإرادة المواجهة والاقدام في شخصية المسلم.
والشخصية الاسلامية.. باعتبار تمكن الإرادة الربانية فيها.. تخرج في سلوكها، ومواقفها من دائرة السلوك الفطري الشهوي إلى دائرة السلوك الهادف، والملتزم.. ومن دائرة السلوك الفوضوي المزدوج إلى النظام، والوحدة والتماسك.. ومن دائرة السلوك الأناني الذاتي.. إلى دائرة السلوك الغيري، الأخلاقي..
وبهذا يتجلى الفرق من هذه الناحية بين الشخصية العادية، وتصرفاتها الجاهلية التي لم يتمكن فيها الايمان الجاهلي.
ولم يدخل الايمان في وجدانها، وقلبها، وبين الشخصية الاسلامية. (*)
الشخصية الجاهلية تعيش على شهواتها، وغرائزها الفطرية المصاغة بصيغة اجتماعية مادية.. وبهذا تكون لديها الغرائز (طاقة) و (دافعا) و (غاية) اما في الشخصية الاسلامية فالغرائز لا تكون في العموم سوى طاقة نفسية، ولكنها طاقة تستخدم في غايات
اسمى ولخدمة هدف أخلاقي معين، وانسجاما مع خط رسالي خاص وهذا معنى خروج الشخصية
الاسلامية من دائرة الفطرية والشهوة إلى دائرة الالتزام والهدفية.
(*) والانسان له شهوات متعددة، وغرائز مختلفة وميول متباينة - نابعة من الغرائز، والشهوات الفطرية والشخصية الجاهلية لا تملك (المحور المركزي) والقيادة المركزية التي تنسق بين هذه الشهوات، والغرائز، والميول وبذلك فهي تعاني من الفوضى والتعدد،
والازدواج والاضطراب

النفسي.. اما الشخصية الاسلامية فهي على العكس، تمتلك هذا المحور المركزي، متمثلا
في الإرادة الربانية، والحس الأخلاقي المتعلق بالله تعالى، وهي بذلك تحقق (وحدة) الشخصية، وانسجام طاقاتها، وتلاحمها لخدمة هدف معين.. وهذا معنى خروج الشخصية
الاسلامية من دائرة السلوك الفوضوي المزدوج إلى النظام، والوحدة والتماسك الذاتي.
- والشخصية الجاهلية - التي تنتمي إلى الحضارة الجاهلية في أي وقت، وأي مكان - شخصية أنانية لا تعمل لسوى ذاتها، ولا تخدم غير أغراضها الشخصية والشخصية الاسلامية
شخصية أخلاقية تسعى إلى مثل أخلاقي أعلى يحقق للمجتمع مصلحته في الوقت الذي يحقق
فيه للفرد مصالحه الشخصية.

الشخصية الاسلامية والشخصية المزدوجة

اذن فالشخصية الاسلامية هي التي تشكل الإرادة الربانية فيها المحور المركزي، والجهاز الحاكم الذي ينظم لها عملياتها السلوكية، ومواقفها في الحياة.. وتصرفاته الخاصة في الأسرة والمجتمع..

ولا توجد إرادة أخرى تفوق، أو تساوي، أو تقارب هذه الإرادة الربانية فيها.. وفي مقابل ذلك نجد في واقعنا.. ما يمكن تسميته ب (الشخصية المزدوجة) من الناحية الدينية.. والازدواج في الشخصية من الناحية الدينية هو، تشتت قواها، واتجاه الدوافع المتقاربة في القوة إلى

العمل في اتجاهات متعاكسة، أو هو بكلمة، عدم تمكن (الإرادة الربانية) من السيطرة الكاملة على الشخصية.. والتحكم الكامل في قواها، ودوافعها.. ونلاحظ عند بعض الناس
المسلمين انهم يعملون الخيرات ويخلصون لله تعالى.. وأحيانا كثيرة مساوية أو مقاربة يعملون لذواتهم، ومراكزهم، وجاههم حتى لو خالفوا بذلك إرادة الله عز وجل.
والازدواج على قسمين:
١) - الازدواج الفكري.. وهو الصدور فكريا عن منابع ثقافية مختلفة ورؤى مذهبية متناقضة، فتراه مرة يفكر بطريقة الاسلام في التفكير، ويتحدث بلغته، ويتبنى مفاهيمه وأخرى يفكر بطريقة التفكير الغربي، ويتبنى الكثير من مفاهيم الحضارة الغربية، وقيمها مع تغليفها بالغلاف الاسلامي وهو لا يشعر بذلك.. وسنتناول هذا النحو من الازدواج في الجزء الثاني إن شاء الله تعالى.
٢) - الازدواج النفسي والسلوكي.. وهو وجود عوامل، ودوافع نفسية متناقضة الاتجاه متقاربة المستوى والدرجة، بحيث لم يتضاءل أحدها مقابل الآخر، فهو صاحب مركز يفكر،
ويسعى إلى تكوين مركز اجتماعي، أو ثقافي مرموق ويحب الظهور في هذا المجال، وذاك..
وصاحب دين يخشى الله، ويعمل له.. وهذا الازدواج ما يمكن ان نسميه بالشرك في العبادة، لان هذا الانسان له معبودان.. أحدهما الله والآخر هو الهوى.. ومن الممكن ان نسمي الازدواج الأول ب (الشرك الثقافي) ونعمم هذين الشركين إلى الشرك في الذات
(الايمان بتعدد الآلهة) والشرك في الصفات

(الايمان بمفارقة الصفات الإلهية للذات المقدسة).
الازدواج، والنفاق
والفرق على هذا الأساس بين الازدواج، والنفاق واضح وذلك لان المنافق ليس مزدوج الشخصية بين الكفر والاسلام لا من جهة عقائدية، ولا من جهة ثقافية، ولا من جهة نفسية سلوكية.. وانما هو كافر خالص يعلن ايمانه زورا ومنافاة.
(وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا، وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا انا معكم انما نحن مستهزؤون) (٢)
(إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد انك لرسول الله والله يعلم انك لرسوله، والله يشهد ان المنافقين لكاذبون اتخذوا ايمانهم جنة) (٣)
واما الانسان المزدوج فهذا الذي تعيش في نفسه قوى متصارعة ليس لاحدها الغلبة على الأخرى.. هو هذا الانسان، الذي ساعة لربه، وأخرى لقلبه، ويمارس في الساعة التي لقلبه ألوانا من الفجور، والمحارم والشبهات.. هو هذا الانسان ذو العاطفة الدينية التي تستنفر في لحظات خاصة.
الازدواج الصريح والازدواج الخفي
وفي حياتنا الدينية نجد ازدواجا صريحا كالذي ذكرناه يعترف فيه

الانسان بأن هذا شئ يختلف عن ذاك، وانه مرة يعمل لدينه، وأخرى يعمل لشياطينه..
ويمكن للانسان من الخارج ان يكتشفه، ويحكم عليه.. والى جانب هذا، هناك ازدواج
آخر..
ازدواج خفي.. يظهر فيه الانسان متدينا في كل شئ.. وهو في حقيقة امره منشطر
الذات
إلى شخصيتين شخصية متدينة، وأخرى منحرفة.. ويتم هذا عن طريق ارضاء كل من
الجانب
الشخصي الذاتي والجانب الديني، والتوفيق الشكلي المظهري فيما بينهما.
لنأخذ على ذلك مثلا..
ناس متقاعسون كالذين ذكروا في الرواية عن أبي جعفر (ع): (يكون في آخر الزمان
قوم
ينبع فيهم قوم مراؤون.. ولو أضرت الصلاة بسائر ما يعملون بأموالهم، وأبدانهم
لرفضوها، كما رفضوا اسمى الفرائض، وأشرفها (الامر بالمعروف والنهي عن المنكر)
هم
هؤلاء أن يحافظوا على دينهم في الإطار الذي يحفظ أموالهم، وأنفسهم، وإذا خرج
الامر
عن هذه الحدود لم يلزموا أنفسهم بعد بالدين.. ولكن كيف ترى يترك هؤلاء واجب
الامر
بالمعروف، والنهي عن المنكر؟! هل يتركونه مع اعلانهم بأن هذه ساعة من ساعات
القلب
وللرب ساعات أخرى؟! ابدا.. انما يقومون بعملية تبرير.. اما عن طريق تحريف احكام
الله، وتشويه نظرية الاسلام في ميدان من أهم ميادينه، وأشرف فرائضه.. أو عن طريق
تحريف الواقع، وتقديم (الاعذار).. (وسائل - أبواب الأمر والنهي - ب ١٠)
ومثال آخر..

هذا الذي يظهر بمظهر ديني.. ويخفي في ذاته ما الله مبديه من حب المال، والمركز والجاه.. ماذا تراه يصنع عندما (يجمع) من أموال الله تعالى، وحقوق الأمة من أجل ان يبني المسكن الواسع، ويقتني الدابة الفارهة، أو عندما يسعى لتأكيد ذاته، والظهور من اجل الظهور؟! ان ما يقدمه في هذا الميدان، هو ان المسكن ضروري للخدمة والدابة الفارهة تحفظ حرمته، ومكانته، لا باعتباره الشخصي وانما (باعتباره النوعي) وتأكيد شخصيته انما هو من اجل تأكيد أفكاره الدينية.. إلى آخر ما يلقي الشيطان في روعه من
التبريرات والتزييفات أعاذنا الله تعالى من كل ذلك.

فعن طريق الخداع، خداع الذات والتبرير يستطيع ان يقضي هذا الانسان على الصراع النفسي بين قوتين نفسيتين، ودافعين متقاربين في درجة التأصل في النفس إذ تتحايل إحدى القوتين، وهي هنا القوة الشهوية على القوة الأخرى، وتحقق له راحة التوافق، والانسجام الداخلي وتجنبه آلام الصراع والتناحر الذاتي.

كيف تتحقق الحاكمية العامة للإرادة
الربانية؟

تكون الجهاز المركزي الحاكم في الشخصية الاسلامية وهو الجهاز المؤلف من الصبر، والطاعة، والاخلاص. أي من الإرادة الربانية، يتم عندما يتحقق الشرطان التاليان:

(١) - قوة الدافع الديني في الشخصية.. وكونه أقوى الدوافع واصلها في النفس، والدافع
الديني هو العواطف، والأحاسيس الدينية في النفس كحب الله، وخوفه، ورجائه والتطلع إلى ثوابه الجزيل.. والمحاسبة

الأخلاقية الحاكمة بوجوب طاعة الله في النفس.. وهكذا.
(٢) - الوعي الذاتي، ومعرفة حيل النفس، وأساليبها في الدفاع، والخداع.. وليس يكفي
لحكومة الدين على شخصية الانسان ان يكون أقوى الدوافع، وأثبتها في النفس، لان من
الممكن مع هذا، أن يؤثر دافع دنيوي شهوي تأثيرا بالغا في النفس حتى على حساب الدين، ولكن من خلال خداع الضمير الديني.. وخداع النفس.

الالتزام العملي بخط الاسلام في
الحياة (الطاعة)

نأخذ الإرادة الربانية في شخصية الانسان المسلم من المظهر الخارجي.. وهو الاستقامة السلوكية على خط الاسلام في الحياة.. وموافقة الشريعة.. وعدم مخالفتها في واجب، أو
حرام كحد أدنى.. ثم البناء على أداء المستحبات، واجتناب المكروهات كحد أعلى للسلوك،
ويسمى هذا ب (الطاعة) و (الالتزام) أو (الاستقامة).
١) - والطاعة لله تعالى في احكامه الالزامية.. واجبة بحكم العقول التي تقرر ان الله تعالى بحكم كونه خالقا للانسان موجدا له منعما عليه، له حق الطاعة على عباده..
وحق الانسجام مع شريعته أوامر، ونواه. وتحكيمها في السلوك.
(يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم) (٤)
فالطاعة لله تعالى - بالاستقامة على خط رسالته ودينه.. ومتابعة أوامره

ونواهيه – عمل أخلاقي يقوم على أساس هذا الحق، الذي يدركه العقل ببداهته، وسجيته.

٢) – وطاعة الله تعالى هي الأساس السلوكي الذي يرجو به الانسان غدا – في اليوم الآخر – التخلص من العقاب، وتحصيل الاجر الإلهي بخلاف المعصية التي هي تعد لحدود

الله وطريق لدخول الله.

(تلك حدود الله، ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها، وذلك هو الفوز العظيم ومن يعص الله، ورسوله، ويتعد حدوده يدخله نارا خالدا فيها، وله عذاب مهين) (٥)

(وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرا ان يكون لهم الخيرة من أمرهم، ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالا مبينا) (٦)

(ومن يطع الله، ورسوله، ويخش الله ويتقه فأولئك هم الفائزون) (٧)

٣) – والطاعة.. أو الالتزام بالخط العملي للاسلام في الحياة يعتبر جزءا ضروريا متمما للشخصية الاسلامية، فلا يمكن ان تكون الشخصية الاسلامية كاملة من دون الطاعة، والالتزام الجدي بخط الله.. بل لا يمكن ان تكمل العناصر الأخرى من دون الطاعة، وذلك لان للمعاصي آثارا

سلبية كبيرة في النفس، والقلب، حتى لتكاد تمسخه مسخا.. ان الانسان، وحدة متكاملة
يؤثر بعضها على بعض، وجهاز موحد تتناول اجزاؤه التأثير، والعمل.
يقول الله تعالى:
(بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون) (٨)
عن أبي عبد الله (ع):
(كان أبي يقول: ما من شئ أفسد للقلب من خطيئة. ان القلب ليواقع الخطيئة، فما تزال به حتى تغلب عليه فيصير أعلاه أسفله) (وسائل، جهاد النفس ب ٤)
وعن أبي عبد الله (ع) في خبر معتبر:
(إذا أذنب الرجل خرجت في قلبه نقطة سوداء، فان تاب انمحت، وان زاد، زادت حتى تغلب
على قلبه، فلا يفلح بعدها أبدا) (الموضع نفسه)
وعنه (ع):
(ان الرجل يذنب الذنب فيحرم من

صلاة الليل، وان العمل السيئ أسرع في صاحبه من السكين في اللحم)
والنصوص التي تدل على أن الشخصية الاسلامية متكاملة الاجزاء، والأطراف، لا يكفي فيها الفكر وحده، والأخلاق وحدها ولا الطاعة.. وانما يشترط فيها الطاعة إلى جانب الفكر، والجهاد، والأخلاق.. كثيرة..
عن أمير المؤمنين (ع):
(ان الاسلام هو التسليم، والتسليم هو اليقين، واليقين هو التصديق، والتصديق هو الاقرار، والاقرار هو العمل، والعمل هو الأداء..)
وعن الصادق (ع) بعد أن سئل عن، ان العمل من الايمان قال:
(نعم، الايمان لا يكون الا بعمل، والعمل منه، ولا يثبت الايمان الا بعمل).
وعنه (ع) في خبر:
(فإذا اتى العبد كبيرة من كبائر المعاصي، أو صغيرة من صغائر المعاصي التي نهى الله عز وجل عنها كان خارجا من الايمان، ساقطا عن اسم الايمان)
(راجع أصول الكافي الأبواب الأولى من كتاب الايمان والكفر)

٤) - والاستقامة على خط الاسلام، شرط أساسي لمجموعة من الممارسات المتقدمة في
الحياة الاسلامية سوى العدول أي المستقيمين سلوكيا على خط الاسلام بنحو تكون الاستقامة طبعا لهم، وملكة متمكنة في نفوسهم.
فلا يجوز تقليد غير العادل، فان المرجعية الدينية مشروطة بالاستقامة، كما نقل عليه اجماع الفقهاء.. وعن الإمام العسكري (ع):
(وكذلك عوامنا إذا عرفوا من علمائهم الفسق الظاهر، - والعصبية الشديدة، والتكالب على الدنيا، وحرامها فمن قلد هؤلاء فهو متل اليهود الذين ذمهم الله بالتقليد لفسقة علمائهم. فاما من كان من الفقهاء، صائنا لنفسه حافظا لدينه مخالفا لهواه مطيعا لأمر مولاه فللعوام ان يقلدوه)
(الوسائل - صفات القاضي - ب ١٠)
وكذلك قال بعضهم، انه لا يجوز للعاصي الافتاء أو التصدي لهذا المقام الخطير، وكذلك
تجب العدالة والاستقامة في القاضي، وامام الجماعة، والشهادة، وموارد أخرى.
وليست هذه الاحتياطات من الاسلام من اجل الاحتياط على هذه الوظائف الخطيرة في الحياة الاجتماعية، وانما هي من جهة أخرى تركيزا لقيمة الاستقامة، والتقوى في الحياة الاسلامية.

٥) – وقد اكد الاسلام تأكيدا بالغا على من نصب نفسه للناس هاديا، واماما أن يلتزم بما يقول، ويعلم نفسه قبل تعليم غيره (بنحو شمول المسؤولية، لا تقييدها بالمطيعين والملتزمين فقط).

وعن الإمام علي (ع):

(من نصب نفسه للناس إماما فعليه ان يبدأ بتعليم نفسه قبل تعليم غيره. وليكن تأديبه بسيرته قبل تأديبه بلسانه)

(الوسائل – الأمر والنهي ب ١٠)

وعن أبي ذر عن رسول الله (ص) في وصيته له:

(يا أبا ذر يطلع قوم من أهل الجنة إلى قوم من أهل النار، فيقولون: ما أدخلكم النار وانما دخلنا الجنة بفضل تعليمكم، وتأديبكم، فيقولون انا كنا نأمركم بالخير، ولا نفعله)

وعن أبي عبد الله (ع):

(كونوا دعاة للناس بغير ألسنتكم ليروا منكم الورع، والاجتهاد، والصلاة، والخير، فان ذلك داعية)

٦) – هذا ويعتبر اعداد الشخصية الاسلامية المتورعة الملتزمة بالخط الاسلامي في الحياة أحد أهداف عمل الأئمة (ع)،

عن أبي عبد الله (ع):

(ليس منا، ولا كرامة من كان في مصر فيه مائة الف، أو يزيدون، وكان في ذلك المصر أحد
أورع منه)

وعنه أيضا:

(انا لا نعد الرجل مؤمنا حتى يكون بجميع أمرنا متبعا مريدا الا وان من اتباع
أمرنا وارادته الورع فتزينوا به يرحمكم الله وكيدوا أعدائنا ينعشكم الله)

الاستقامة والفكر التبريري

عرفنا ان الاستقامة من صلب الايمان، وانها شرط أساسي في الشخصية الاسلامية.. وهذا
امر واضح من خلال الكتاب الكريم والسنة المطهرة.. وطبيعة الرسالات السماوية لم تتنزل لتصحيح الاعتقادات فقط، وانما لبناء الانسان وتغيير السلوك، واختطاط نهج خاص
للسلوك الفردي والاجتماعي في حياة الانسان، والتركيز على مجموعة من القيم الأخلاقية.

ويعبر ذلك عن مشروع رباني لصياغة انسان جديد، انسان رباني في فكره وروحه وقيمه
النفسية وفي سلوكه الشخصي، وتعامله مع الناس. والصعود بالانسان إلى مستوى بنائي متميز، وشخصية فريدة تمشي بين

الناس بنور الهدى الإلهي.. وعلى السبيل الذي حدده الله لهذا الانسان..
ومن الواضح ان هذا المشروع التغييري الذي تبنته رسالات السماء لم يفرض على
الانسان
فرض الجاء، والا لاهتدى الناس جميعا.. وانما أريد له أن يتم من خلال الانسان، وفعاليته، وارادته.. وان كان برعاية الله، وهداية الله. ومن الواضح إلى جانب ذلك أن للانسان أهواءه، وشهواته، وميوله النفسية التي تتعارض مع الصيغة الربانية
المقترحة.. وأنه ليس من السهل للانسان ان ينسجم مع هذه الصيغة الا من خلال
الصبر،
والمعاناة، والمجاهدة النفسية، وترويض النفس.
وكان الناس امام هذا المشروع التغييري الجبار القائم في الأساس على عبودية الله، وتحرير النفس من الأهواء والالتزام بالعدل، والمصالح النوعية للناس على ثلاثة أصناف
: صنف رفض الايمان، والالتزام المبدئي بالرسالات السماوية وركن إلى مجاميع
متعددة
من تسويلات الشيطان، وخدعه.. وصنف ثان رحب بالصيغة الربانية، وآمن بها،
وتعاطف معها
والتزم بها التزاما جديا، وتصاعد بها إلى المستوى الانساني المطلوب، والشكل الرباني المقترح للانسان.. وأكثر الناس آمنوا بالأنبياء، ورسالاتهم، وعاشوهم في جزء، وآخر من شخصياتهم.. الا انهم لم يرتفعوا بها، ولم يتصاعدوا من خلالها، ولم يلتزموا بها الالتزام الضروري المطلوب.. لان الانسان بشكل عام، ليس مستعدا ان يجاهد الجهاد الأكبر ويعاني باستمرار في سبيل الطاعة، والالتزام، ويتوافق، ولو على حساب ميوله، وأهوائه مع إرادة الله.
والناس هؤلاء يعيش الايمان في ذواتهم، وينبض ضميرهم الديني

بالحركة، ويدعوهم باستمرار إلى العمل، والانسجام مع الدين ومن هنا ينشأ صراع داخلي
بين القوى الدينية في النفس، القوى الخيرة التي تدعو إلى التعالي الأخلاقي والالتزام الديني، وبين القوى الشهوية، والأهواء، والميول الشخصية من جنس، وعدوان،
وامن الخ. وهو صراع - ككل صراع نفسي - بغيض للنفس البشرية تحاول بشتى الأساليب ان
تتخلص منه، وان تجد له (حلا).. تتوافق به القوى النفسية، وتنسجم في عملها، واتجاهاتها.
والفكر التبريري هو أبسط الأساليب، وأشملها في حل الصراعات الداخلية بين القوى الأخلاقية، والقوى الغريزية الشهوية، والميول، والأهواء.. ومن هنا يحاول الانسان دائما ان يخدع ضميره الأخلاقي، ليمارس شهواته وأهواءه براحة بال..
والمعنى السائد في الفكر التبريري، الذي يحاول التغطية على الانحراف، والتوفيق بين الأوضاع المنحرفة المائعة، وبين الدين هو (تغيير الرسالة)، وتحريفها لتنسجم مع واقع الانحراف، والانحلال.. ومن خلال الفكر التبريري هذا يغير الانسان الرسالة السماوية، ويحرفها، بدلا عن أن يتغير بها.. ويشوهها.. وينزل بها إلى واقعه، بدلا عن أن يصعد بها ويتنمى.
ونستعرض هنا ألوانا من الفكر التبريري لتغطية الانحراف.. والخروج عن الاستقامة الشرعية، وطاعة الله سبحانه.. مستخلصة من واقع الحياة الدينية للمسلم المعاصر.

أ) – تحول الولاء إلى أداة تبرير:
كان التشيع.. في أيامه الأولى رسالة تغييرية، واصلاحية كبرى في جسم العالم الاسلامي
تستهدف الالتزام المر بقيم هذا الدين، والقضاء على كل التميعات، والانحرافات التي تولدت في المجتمع الاسلامي نتيجة لاختلاط الحضارات، وفقدان القادة المبدئيين، وكان
التشيع حركة وعي ملتزمة.. متمحورة حول قيادات اسلامية نقية تشع على اتباعها التعبد،
والزهد، والقيم، والالتزام.. (وما كانوا الشيعة يعرفون يا جابر الا بالتواضع، والتخشع، والأمانة، وكثرة ذكر الله، والصوم، والصلاة، والبر بالوالدين، والتعاهد للجيران من الفقراء، وأهل المسكنة، والغارمين، وصدق الحديث، وتلاوة القرآن، وكف
الألسن عن الناس الا من خير، وكانوا أمناء عشائرهم في الأشياء) (٩).
(ان شيعة علي كانوا خمص البطون، ذبل الشفاه، أهل رأفة، وعلم، وحلم، يعرفون بالرهبانية) (١٠)
والذي يبدو انه حدث تغير اجتماعي في هذا الاتجاه زمن الإمام الباقر (ع).. أو بدأ واضحا في ذلك الوقت.. إذ تكونت في الذهنية الشيعية مفاهيم، وأفكار تبريرية تغطي على الانحراف، وتستوعبه.. كمفهوم الشفاعة في صيغته المحرفة، ومفهوم انه لا معصية مع
حب أهل البيت (ع).. وقد يكون ذلك نتيجة للانعطاف الجماهيري على التشيع بعد مقتل
الحسين (ع).. ونتيجة لظهور التيارات الغالية في الصف الشيعي..

وسوء فهم كلمات أهل البيت الواردة في تأثير منزلتهم.. ولا زالت هذه الأفكار تعيش في
ذهن الانسان المسلم إلى اليوم تكرس من بعده عن الشريعة وتحلله من الالتزامات الدينية.
وقد واجه الأئمة (ع) هذا التيار الذي يحاول تحريف التشيع، وتحويله من نقائه، وصفائه، وأصالته الاسلامية والتزاماته الحدية، إلى فكر يقدم التنازلات تلو
التنازلات لواقع الانحراف، وسلوك التحلل، والتميع. ما امامي من نصوص عنهم (ع) في
شجب هذه الظاهرة أكثرها عن الإمام الباقر (ع) وهو امر قد تكون له دلالته التاريخية، عن محمد بن مسلم عن أبي جعفر (ع) قال:
(لا تذهب بكم المذاهب فوالله ما شيعتنا الا من أطاع الله عز وجل)
وعن جابر عن أبي جعفر (ع) قال لي:
(يا جابر أيكتفي من ينتحل التشيع، ان يقول بحبنا أهل البيت، فوالله ما شيعتنا الا من اتقى الله، وأطاعه.. يا جابر لا تذهبن بك المذاهب حسب الرجل ان يقول: أحب عليا، وأتولاه ثم لا يكونن مع ذلك فعالا، فلو قال إني أحب رسول الله (ص) فرسول الله خير من علي (ع)، ثم لا يتبع سيرته، ولا يعمل بسنته

ما نفعه حبه إياه شيئا فاتقوا الله، واعلموا لما عن الله، ليس بين الله وبين أحد قرابة، أحب العباد إلى الله عز وجل (وأكرمهم عليه) اتقاهم، وأعملهم بطاعته.. ومن كان لله مطيعا فهو لنا ولي، ومن كان لله عاصيا فهو لنا عدو، وما ننال ولايتنا الا بالعمل، والورع)

وهكذا فان (الحب) لأهل البيت (ع) وتوليهم ليس تعويضا، أو بديلا عن الطاعة، والالتزام - كما تفهمه الأجيال المتخلفة - وانما هو طريق إليها، وتأكيد عليها من خلال تجسيد القدوة الحية.. والقيادة المعصومة، والايمان بها ومتابعتها، والاقتداء بها.

(الا وان لكل مأموم إماما يقتدي به ويستضئ بنور علمه، الا وان امامكم قد اكتفى من دنياه بطمريه، ومن طعمه بقرصيه، الا وانكم لا تقدرون على ذلك، ولكن أعينوني بورع،
واجتهاد، وعفة، وسداد)

ب) - الفهم الاجتماعي والسياسي للدين:

والاسلام كما نعرف رسالة شاملة.. فيها التعاليم الاجتماعية إلى جانب النظام السياسي والنظام الاقتصادي والتربوي.. الخ. ولكن في

جوهره، وروحه استسلام لله تعالى، وعبودية كاملة له.
(ان الاسلام هو التسليم، والتسليم هو اليقين)
والانسان المسلم هو الانسان الذي يلتزم بأحكام الله، ويتورع عن محارمه.. مهما بدت،
وفي أي مجال شرعت من مجالات الحياة.. غير أن الكثيرين ممن يعيشون في هذا العصر -
ومن اجل التوفيق بين انتمائهم التقليدي للدين من جهة، وبين التسيب السلوكي عندهم وتأثرهم بالمضمون الحضاري الغربي - يفهمون جوهر الاسلام في مجموعة من التعاليم
الاجتماعية، والأخلاقية، وفي الالتزام السياسي بقضيته، واما الجوانب الفردية فهي موضع اهمال وتجاوز، لأنها لا تتناسب مع السياق العام، الذي يبدو لهم الاسلام فيه.. وهؤلاء - في واقع الامر - يأخذون من الاسلام.. ولا يأخذون بالاسلام منهجا كاملا للحياة.. ان الاسلام في جوهره فتنة لهذا الانسان، واختبار لحس العبودية لله عنده، ووسيلة لاظهار المضمون الأخلاقي الديني في شخصيته.. وهو لهذا شامل التشريع، واسع
المجالات، فيه التعليم الاجتماعي إلى جانب النهج السياسي، والنهج التربوي الروحي، والنظام الأخلاقي، والاحكام التي لا نعرف لها سرا، ولا حكمة.. والاحكام التي أريد بها اختبارنا، وفتنتنا.. ليهلك من هلك عن بينة، ويحيى من حيي عن بينة. ونحن ملزمون
في كل ذلك محاسبون عليه مسؤولون عنه.
فليس الاسلام، اذن جمعية سياسية لا تجد فيها سوى الفكر

الاجتماعي السياسي، والالتزامات السياسية والتنظيمية، وانما هو أولا (دين) وعبودية
خالصة لله.. وهو بعد ذلك كل شئ.. سياسة، واقتصاد، واجتماع، وتربية.. و..
والمنطق
الأساسي للتربية، والبناء هو الالتزام بكل شئ في هذا الدين عرفنا حكمته، أو
جهلناها. وسبحان الله.. قال الانسان للانسان: نفذ ثم ناقش، وقبل منه ذلك عن
طواعية، واختيار.. وقال الله للانسان لا تأكل من هذه الشجرة وقدم له حيثيات الامر،
والحكم ولكنه ناقش، وتفلسف، وعصى.. فخرج من الجنة، يعيش الهموم، والآلام..
وهذه
عبرة من عبر قصة آدم (ع)..
ج) - الجبر والارجاء:
مذهب الجبر، هو المذهب القائل بان الفعل الانساني في مجال الطاعة والمعصية
وغيرهما
هو - في حقيقته - فعل الله تعالى الواقع بمشيئة الأزلية.. واما العبد فلا اختيار
له.. أو إذا كان له اختيار، وقدرة فليس الفعل صادرا عنه.. وللجبر صورة علمية..
وأنصار باحثون.. وله صورة شعبية أيضا نجد انها تعيش في واقعنا المعاصر، كما
عاشت
في العصر الجاهلي.
(وقال الذين أشركوا لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شئ نحن ولا آباؤنا ولا حرمنا
من دونه من شئ) (١١)
(وسيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شئ كذلك
كذب
الذين من قبلهم) (١٢)

والارجاء، هو المذهب الذي مات امام ضغوطات الفكر الحق.. ولكنه لا يزال يعيش في
الوسط الشعبي.. ويؤكد على أن القيمة الحقيقية للايمان، وتقوى القلوب، وأن الأعمال
الظاهرية لا يحاسب الله عليها، وليس لها قيمة من وجهة النظر الدينية..
هذان الاتجاهان التبريريان - الجبر، والارجاء - يرجعان من الناحية التاريخية - حسب
بعض التقديرات - إلى الحاكم الأموي (معاوية)، الذي حاول ان يكرس الانحراف ويبرر
الفسق، والفجور، والخروج عن حدود الشرع، ودائرة الدين من خلال وضع الأحاديث من
جهة.. والترويج للأفكار التبريرية كالفكرتين السابقتين..
د) - التشكيك بالحكم الشرعي، واستصغار الذنب:
وبعض الناس يرتكبون الذنوب، ويقترفون السيئات والمعاصي.. ويبررون ذلك عن طريق انكار
الحكم الشرعي الذي خالفوه لأنهم لا يجدونه في القرآن الكريم، ومسموعاتهم عن السنة..
ومن الواضح أن الانسان الاعتيادي لا يتاح له أن يبت بانكار هذا الحكم، وذاك، واثبات
هذا، وذاك.. لان مثل هذا الاثبات، وذاك النفي يحتاجان إلى خبرة طويلة، ومعايشة
مستمرة للقرآن الكريم، والسنة المطهرة، وتاريخ الرسول (ص) والأئمة (ع)، وتدبر
مستغرق فيها، وتخصص وتفرغ.. وليس من حق الانسان أن يتسرع في اثبات الحكم، ونفيه،
فإنه بذلك يضيف ذنبا إلى ذنبه وخطيئة إلى خطيئته.
(وان أسوأهم (أصحابي) عندي حالا

وأمقتهم الذي إذا سمع الحديث ينسب إلينا ويروى عنا فلم يقبله اشمأز منه، وجحده، وكفر من دان به، وهو لا يدري لعل الحديث من عندنا خرج، والينا أسند، فيكون بذلك
خارجا من ولايتنا)
هكذا قال الإمام الصادق (ع).
والانسان الذي لا خبرة له في مجال البحث الأصولي والفقهي والرجالي وسائر المجالات،
التي تتصل بالتفقه بالدين، والتعرف على الشريعة، يجب عليه ان يرجع إلى أهل الخبرة –
والرجوع إلى أهل الخبرة مبدأ عقلاني أقره الاسلام في كثير من المجالات –.
(فاسألوا أهل الذكر ان كنتم لا تعلمون)
(ومن كان من الفقهاء حافظا لدينه صائنا لنفسه مخالفا لهواه مطيعا لأمر مولاه فللعوام ان يقلدوه)
واحتقار الذنوب، واستصغارها من الترضيات النفسية للمخالفة، ولكنه هو الآخر مما يزيد
الذنب ذنبا، والخطيئة خطيئة فعن سماعة عن أبي الحسن (ع) يقول:
(لا تستكثروا كثير الخير، ولا تستقلوا قليل

الذنوب فان قليل الذنوب يجتمع حتى يكون كثيرا، وخافوا الله في السر تعطوا من أنفسكم النصف)

(أشد الذنوب، ما استهان به صاحبه) (١٣)

الصبر

الوجه الآخر للإرادة الربانية في شخصية المسلم هو الصبر. فأنت عندما تقيس الإرادة الربانية من حيث نتائجها العملية إلى الشريعة.. تكون بذلك طاعة، والتزاما، وعندما تنظر إليها باعتبار مواجهتها للأهواء النفسية، ودوافع الانحراف، والتثبيط تكون صبرا. وعندما تنظر إليها باعتبار دافعها الرباني وهدف التقرب إلى الله تكون اخلاصا حسبما مر معنا سابقا.

وقصة الصبر معنا هي قصة المفاهيم الاسلامية الممسوخة والمشوهة في الذهنية العامة للمسلمين.. تلك المفاهيم الدافعة.. والمحركة.. المفاهيم التي كانت يوما وقود الثورة الاسلامية الذي لا يستهلك، وأداة تجاوز الانسان لصغاره.. وأهوائه قليلة الشأن.. ورياضة روحية تنشط الإرادة، وتبني استقلال شخصية الانسان المسلم.

فأصبح الصبر – وهو واحد من هذه المفاهيم – أداة تخديرية.. أصبح (صبرا على الانحراف

بعد أن كان صبرا على مواجهة الانحراف، والمنحرفين. وبعد أن كان صبرا على الثبات على طريق ذات الشوكة، وتحمل الأمانة، والالتزام بدين الله في أحرج اللحظات وأقسى

الظروف،

أصبح صبرا على (التنصل) عن الالتزامات المبدئية في هذا الدين، وعلى مواجهة الضمير الديني الحي الذي ينبض بشئ من الحياة..

وليس التوكل.. بعيدا عنا.. التوكل الذي كان عونا للمقاتل في الساحة، وللمجاهد في مراحل الصراع، وأداة للاستهانة بقدرات العدو الكافر، والثقة بالنفس.. أصبح هذا المفهوم الرائد.. والبعد الأصيل في شخصية المسلم.. اتكالا مريضا، وتفويضا، وتكاسلا من تحمل أعباء المسيرة. والزهد الذي يمثل قمة التحرر، والانعتاق، وتجاوز الأهواء والشهوات والتحرر الداخلي الحقيقي للانسان، أصبح كلمة ذليلة حتى في اسماع

بعض المسلمين المؤمنين نتيجة لما قرنت به من الممارسات الشاذة، وألوان القطيعة الاجتماعية، والهروب عن الحياة.

وهكذا دائما يغير الانسان المفاهيم التي جاءت لتغييره وينزل بها إلى الحضيض بدلا من أن يرقى معها إلى الكمال.. فليس من الهين، والسهل ان يرقى الانسان، وانما التصاعد معاناة، وزهد، ومرارة.. ومن اجل ان يبقى في حالته المريحة هذه فعليه – حتى

يريح ذاته من الشعور بالانفصام بين الفكر، والسلوك – أن يحرف مفاهيمه الثورية وان يسحبها إلى وراء، بدلا من أن يتقدم معها إلى امام.. هذه هي خلاصة التحريف الاجتماعي للمفاهيم، والرسالات، وعلينا باستمرار ان نرجع إلى النبع الأصيل لتوضيح مفاهيمنا لا إلى عقلية الانحراف والتخلف والتحلل.

والصبر في مفهومه الاسلامي الأصيل تمرد الإرادة المسلمة على أهواء النفس، وشهواتها.. التي تهدف إلى اخلاد الانسان إلى الأرض.. وهو

امتلاك النفس، وحبسها على الخط المستقيم، في مواجهة حازمة للضغوط الخارجية والداخلية على السواء.. انه الصبر على الالتزام المر بقيم هذا الدين.. في مواجهة قوى الضغط في الداخل، والخارج، وليس هو الصبر على الخلود إلى الطين.. في مواجهة
الضمير الديني، وقوى الخير النابضة للحياة في النفس البشرية.. وهو الصبر على تحمل مشاق الطريق، وأعباء المسيرة، واجتناب الآلام، والغربة والعذاب في سبيل الله، تحقيقا للإرادة الربانية، وتمثلها في النفس، والسلوك.. وليس الصبر على الانحراف والمنكرات، والمحارم تحقيقا لقيم الكسل والرخاء، والامن والراحة.. في دنيا مليئة بالمتاعب، والمكاره واشكال الآلام والهموم.

وعلى هذا الأساس أصبح الصبر ركنا ركينا من الايمان.

(الصبر رأس الايمان)

(الصبر من الايمان، بمنزلة الرأس من الجسد، فإذا ذهب الرأس ذهب الجسد، كذلك إذا ذهب
الصبر ذهب الايمان)

(ولا ايمان لمن لا صبر له)

(الجنة محفوفة بالمكاره، والصبر، فمن صبر على المكاره والدنيا دخل الجنة)

الصبر عند البلاء

النوازل والمكاره، وشظف العيش، وفقدان الأعزة، والأحبة، والغربة

بين الناس.. هذه وأمثالها، يتعرض لها المؤمنون في كل مكان.. وخصوصا المجاهدون في
الله منهم كضريبة لصراعهم مع الكفر، ومواجهتهم للجاهلية في كل زمان ومكان وعلى كل
المستويات.. وكتدخل الهي أريد به تمييز الصادق من الكاذب، وتمحيص الفئة المجاهدة،
واعدادها وتعميقها.. لتكون حلقة ربانية ضمن حلقات مسلسل الهدى الإلهي، الذي سوف
ينتهي لا محالة إلى بسط الحق، والعدل وانتشار القسط، والخير بعد أن ملئت الأرض ظلما وجورا، وعانت البشرية من آلام الصراع بين الهدى، والضلال.. وقد جعل الله سبحانه البلاء، والآلام، والمكاره في صلب تخطيطه للحياة، وفي صلب تخطيطه للدعوة،
والدعاة.. كما يوضح ذلك كل عرض مدرسي مبسط لنظرية الفتنة في القرآن الكريم.
هذه المصائب، والآلام المتعددة في الحياة فتنة للانسان المسلم يسعد فيها من سعد، ويشقى فيها من يشقى، ويبتعد عن الله.. ويعكس لنا (النص الاسلامي) هاتين الاستجابتين
المختلفتين للإصابة بالبلاء..

١) – (أو لما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنى هذا) (١٤)

(ومن الناس من يعبد الله على حرف فان أصابه خير اطمأن به وان أصابته فتنة انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة، ذلك هو الخسران المبين) (١٥)

(وان تصبهم سيئة يطيروا بموسى ومن

معه) (١٦)
(وان تصبهم سيئة بما قدمت أيديهم إذا هم يقنطون) (١٧)
(وان تصبهم سيئة بما قدمت أيديهم فان الانسان كفور) (١٨)
وهكذا فان (التزلزل) و (الارتداد) و (التطير) و (القنوط) و (كفران نعمة الله) هي النتائج السلبية التي يصل إليها بعض الناس من خلال فتنة البلاء، والمصيبة..
٢) - واما المؤمنون فلهم شأن آخر من البلاء.. إذ تشخذ فيهم النوازل الشعور بالحاجة إلى الله، والتوجه إليه وتزيدهم ثباتا، وصلابة، وعنادا في الحق، ويجددون الصبر والشكر لله، ويعيدون تقييم ذواتهم، واختبارها..
(الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون) (١٩)
(لكيلا تحزنوا على ما فاتكم ولا ما أصابكم) (٢٠)
(وكأين من نبي قاتل معه ربيون كثير فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله، وما ضعفوا، وما استكانوا) (٢١)

(الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم، والصابرين على ما أصابهم) (٢٢)
(والذين إذا أصابهم البغي هم ينتصرون) (٢٣)
(والصابرين في البأساء وحين البأس) (٢٤)
(قل لن يصيبنا الا ما كتب الله لنا هو مولانا) (٢٥)
(فأخذناهم بالبأساء والضراء لعلهم يتضرعون) (٢٦)
وهكذا فالمؤمن عند المصيبة، والبلاء يراجع تصوراته الكونية ووعيه الكوني للحياة، ولا يحزن، ولا يهن، ولا يضعف، ولا يستكين، بل على العكس يصبر، وينتصر، ويرضى بقضاء
الله، وقدره، ويتضرع إلى الله ويلتجئ إلى الله.. ويزداد ايمانا وثباتا.
(الذين قال لهم الناس ان الناس قد جمعوا لك فأخشوهم فزادهم ايمانا، وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل) (٢٧)
بعد هذا ننتقل إلى السنة، وهي تتحدث عن حتمية البلاء، والنوازل

بالنسبة إلى المؤمن، وموقفه تجاه النازلة ودرجات المبتلين..
(ان أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الذين يلونهم ثم الأمثل فالأمثل)
(ان لله عز وجل في الأرض من خالص عباده، ما ينزل من السماء تحفة إلى الأرض الا حرفها عنهم إلى غيرهم ولا بلية الا حرفها إليهم)
(أن المؤمن يبتلى بكل بلية، ويموت بكل ميتة الا انه لا يقتل نفسه)
(ان المؤمن من الله عز وجل لبأفضل مكان - يكرر الامام ذلك ثلاثا - انه ليبتليه بالبلاء، ثم ينزع نفسه عضوا عضوا من جسده، وهو يحمد الله على ذلك)
(ولو يعلم المؤمن ما له من الأجر على المصائب لتمنى انه قرض بالمقاريض) (٢٨)
(أن الحر حر على جميع أحواله: ان نابته نائبة صبر لها، وان تداكت عليه المصائب لم تكسره، وان أسر وقهر، واستبدل بالصبر عسرا)

ومن خلال القرآن الكريم، والسنة المطهرة يتبين، ان المؤمن في أيام المحنة، والبلاء، ووقت المكاره، والمصائب.. يتمثل موقفه.. في (الثبات) والاستقامة على الخط الرباني عقيدة.. وروحا.. وسلوكا فلا يتنازل، ولا يستقل منه شئ.

(المؤمن أعز من الجبل، الجبل يستقل منه بالمعاول.. والمؤمن لا يستقل منه شئ)

ولا يتنازل عن جهاده، وعمله في سبيل الله لان

(المؤمن مجاهد.. يجاهد في دولة الحق بالسيف، ويجاهد في دولة الباطل بالتقية)

ولا يعاني من الضعف والتردد والتلكؤ.

(وكأين من نبي قاتل معه ربيون كثير فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله، وما ضعفوا، وما استكانوا) (٢٩)

ولا تصدر منه كلمة جزع، أو سخط، ولا يتشكك، ولا يتزلزل..

هذا ما يتمثل موقفه فيه أولا.. ويتمثل موقفه ثانيا في (الاستزادة) والنمو من خلال المحنة، والبلاء.

(الذين قال لهم الناس ان الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم، فزادهم ايمانا)

وهذه زيادة في الايمان.. وهناك زيادة في اللجوء إلى الله تعالى، والانشداد له.
(فأخذناهم بالبأساء والضراء لعلهم يتضرعون)
وهناك استبصار للذات واكتشاف لها.. لاحظ قوله تعالى:
(فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله، وما ضعفوا، وما استكانوا والله يحب الصابرين، وما كان قولهم، الا أن قالوا، ربنا اغفر لنا ذنوبنا، واسرافنا في أمرنا)
إلى آخر مجالات الاستزادة على المستوى الفردي والجماعي..
والملاحظ - على مستوى النصوص، وعلى المستوى التحليلي - ان كلا من الثبات، والاستقامة، والاستزادة من الفتنة والبلاء لا يتم الا من خلال الصبر، والتحكم في الأهواء التي تنزع بالانسان المؤمن إلى الانحراف، وتطليق الشريعة، والحيود عن الجادة.. لكي يتوافق مع مجتمعه ويبعد عنه شبح الغربة، ويتخلص من الآلام، والمتاعب والمكاره، وأشواك الطريق..

الصبر عند الأهواء

والأهواء لدى الانسان كثيرة.. منها الأصيل في النفس ومنها

المتشكل، والمتفرع عن معان أصيلة.. وهو يعاني منها في أكثر من مجال.. أو في كل مجال
من مجالات العمل في سبيل الله.. مع النفس.. ومع الناس. والصبر هو التحكم في هذه الأهواء والسيطرة عليها. وعلى الانفعالات، وعن الإمام (ع):
(من ملك نفسه إذا رغب، وإذا رهب وإذا اشتهى، وإذا غضب، وإذا رضي، حرم الله جسده
على النار)
ومن اجل تسهيل البحث، وتوضيح المطلب نصنف الصبر – من زاوية مما يصبر عليه – إلى
الصبر في المجال الروحي.. أو العبادة.. والصبر في المجال الأخلاقي بالمعنى الخاص.. والصبر في ميدان العمل لله.. وهداية النفس.. العمل الاجتماعي.
أ) – الصبر على العبادة:
قال تعالى:
(وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها) (٣٠)
التقرب إلى الله تعالى جوهر هذا الدين وأساسه المتين الذي بنيت عليه أنظمته في المجالات كافة.. ويتم التقرب إلى الله تعالى في أوضح صورة عن طريق العبادة الخاصة من الصلاة والذكر، والدعاء، والقرآن الكريم.. وللانسان من المعوقات عن العبادة – أداء، واستفادة – أهواء كثيرة تضغط عليه، وتحول بينه، وبين ان يؤدي العبادة، أو يستفيد من

قبيل الميل الجنسي في الذهن البشري، والانشداد الخيالي إلى المعاني المادية، وصعوبة التعامل مع الغيب والتعب البدني، والارهاق الناتج عن السعي في سبيل الحياة المادية، والألفة، والعادة التي تمنع من عيش الصلاة عيشا جديدا منتجا، والاستثارة الروحية بالأذكار، والدعوات.. والمشاغل النفسية، وهموم الحياة التي تشغل بال الانسان وهو يؤدي الصلاة لله..

وبسبب هذا كله، وغيره، احتاج المؤمن في أداء العبادة والاكثار منها، وعيشها، والاستفادة منها، ومداومتها إلى تحكم في أهوائه، ودوافعه النفسية المثبطة له عن القيام بحق الله في العبادة، والذكر، والشكر، والى مراجعة مستمرة لمفاهيمه عن الكون، والحياة وتصوراته الأصيلة عن هذا الدين حتى يعيشها أحاسيس منشطة، ومحركة،

ودافعة لعيش الصلاة وعيش العبادة.. دروسا روحية، ودورات تربوية، تتم بعين الله، ورعايته، وامامه، تساعد المؤمن على تطهير الذات وتحريرها، والعروج بها في مدارج الرقي الروحي والكمال والنفسي.

ب) - الصبر الأخلاقي:

١) - الصبر عند الغضب، والغيظ..

(والذين إذا غضبوا هم يغفرون)

(والكاظمين الغيظ، والعافين عن الناس)

وفي السنة:

(من كف غضبه ستر الله عورته)
(فيما ناجى الله عز وجل به موسى: يا موسى أمسك غضبك عمن ملكتك عليه اكف عنك غضبي)
(من لم يملك غضبه لم يملك عقله)
(من كف غضبه عن الناس كف الله تبارك وتعالى عنه عذاب يوم القيامة)
(ما أحب ان لي بذل نفسي حمر النعم، وما تجرعت جرعة أحب إلي من جرعة غيظ لا أكافي
بها صاحبها)
(ما من عبد كظم غيظا الا زاده الله عز وجل عزا في الدنيا والآخرة)
٢) – الصبر امام شهوة البطن، والفرج.
(ما عبد الله بشئ أفضل من عفة بطن، وفرج)
٣) – الصبر في مواجهة هوى الثرثرة، الكلام الزائد والمحرم... في الخبر (جاء رجل إلى
النبي (ص) فقال يا رسول الله أوصني. قال: احفظ لسانك. قال: يا رسول الله أوصني. قال: احفظ لسانك قال: يا رسول الله

أوصني. قال: احفظ لسانك، ويحك وهل يكب الناس على مناخرهم في النار الا حصائد
ألسنتهم)
وفي الخبر عن الرضا (ع):
(من علامات الفقه: الحلم، والعلم، والصمت ان الصمت باب من أبواب الحكمة، ان الصمت
يكسب المحبة، انه دليل على كل خير)
ج) - الصبر على الكتمان:
يحب الانسان التظاهر، والثرثرة، والتجريح بالآخرين وكشف عيوبهم، وأسرارهم، ويحب ان
يكشف حاله ومشاريعه للناس، وبيان كل ما في ذهنه من حقائق وأفكار.. ان اللسان.. والتحدث في ما لا ينبغي التحدث به محط أهواء كثيرة.. هوى الظهور، والبروز امام الناس بمظهر العارف بهذه الأمور.. وهوى الحط من كرامة الآخرين، وتجريحهم.. وهوى
الألفة مع الآخرين من خلال طرح كل ما في نفسه.. وضغوط الأصدقاء، والعلاقات بهم ومن
هنا، فان الكتمان عنصر يحتاج إلى الصبر، والمعاناة.. ليكون بعد ذلك سجية، وسليقة ككل الموارد التي يصبر عليها الانسان ابتداء ثم يألفها، ويعتادها، ولا يشعر معها بالكلفة والعناء.
الكتمان ضرورة..

(استعينوا على أموركم بالكتمان)
(وددت اني افتديت خصلتين في الشيعة ببعض لحم ساعدي النزق، وقلة الكتمان)
كما ورد عن علي بن الحسين (ع): الكتمان ضرورة، وواجب في كثير من الأحيان من الزاوية الشرعية لحفظ كرامة الآخرين..
وضرورة للحفاظ على النفس.. وضرورة للحفاظ على الآخرين.. وضرورة لنجاح الكثير من
المشاريع التي يجب ان لا تسلط عليها الأضواء، والملاحقات من قبل الآخرين، وتدخلاتهم
السلبية، وفضول الكثير من الناس.. وفي جل الناس شئ من الفضول..
١) - كتمان عيوب الناس، وسترها.. مما ينبغي، ويجب الصبر عليه لان
(الغيبة أسرع في دين الرجل المسلم من الآكلة في جوفه) (٣١)
ولأن
(من روى على مؤمن رواية يريد بها شينه، وهدم مروءته، ليسقط من أعين الناس أخرجه الله من ولايته إلى ولاية الشيطان، فلا يقبله الشيطان) (٣٢)

ولأن الله تعالى يقول:
(ولا يغتب بعضكم بعضا أيحب أحدكم ان يأكل لحم أخيه ميتا فكرهتموه) (٣٣)
وللغيبة موارد ذكر الفقهاء جوازها فيها، ولكنها موارد مستثناة، والأصل في الغيبة الحرمة.. فينبغي التورع من ذكر عيوب الناس، وكشف ما ستره الله تعالى من أمراضهم وذنوبهم.. وكثيرا ما ينتهي بأحدنا الغيظ، والحقد، والتنافس إلى ذكر مساوئ إخوانه في الله.. وفضحهم بما فيهم وما ليس فيهم. مما يقطع بين المؤمنين من ولاية.. فان (من قال لأخيه المؤمن أف، انقطع ما بينهما من ولاية، ومن قال له: أنت عدوي كفر أحدهما، ومن اتهمه انماث الايمان في قلبه كما ينماث الملح في الماء)
وهكذا الحال في الظنون السيئة والاحتمالات التي لا ينبغي للمؤمن ان يتحقق فيها، ويشيعها الا عند الضرورة الشرعية لذلك.. وأين هذا من واقع التجريح والتشهير، والغيبة، والبهتان، وغير ذلك من المعاني التي يعاني منها واقعنا الاجتماعي..؟!
٢) - كتمان أسرار الآخرين التي يخافون كشفها ويتوقع الضرر الاجتماعي عليه منها، وعدم الإذاعة والثرثرة في هذا الميدان، مما يحتاج، ويجب فيه هو الآخر الصبر والصمت.. فقد وردت النصوص الكثيرة في

تحريم الإذاعة، وكشف السر.
فعن أبي عبد الله (ع):
(ما قتلنا من أذاع حديثنا قتل خطأ، ولكن قتلنا قتل عمد)
(من أذاع علينا حديثنا سلبه الله الايمان)
وعن أبي جعفر (ع):
(يحشر العبد، يوم القيامة، وما ندى دما، فيدفع إليه شبه المحجمة أو فوق ذلك، فيقال له: هذا سهمك من دم فلان، فيقول: يا رب انك لتعلم انك قبضتني، وما سفكت دما فيقول: بلى سمعت من فلان رواية كذا، وكذا فرويتها عليه، فنقلت حتى صارت إلى فلان
الجبار فقتله)
وعن أبي عبد الله (ع): تلا هذه الآية:
(ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله، ويقتلون النبيين بغير الحق ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون) (٣٤)

قال: (والله ما قتلوهم بأيديهم ولا ضربوهم بأسيافهم، ولكنهم سمعوا أحاديثهم فأذاعوها فأخذوا عليها، فقتلوا فصار قتلا، واعتداء، ومعصية)

وعنه (ع):

(من استفتح نهاره بإذاعة سرنا، سلط الله عليه حر الحديد وضيق المحابس)

د) – الصبر على الاستقامة الفكرية:

وعدم المساومة في الأفكار، وتقديم التنازلات، والتميعات الفكرية امام ضغوط القيم الاجتماعية، والحضارية، والاشكال الأخرى من ضواغط الحياة.

قال الله تعالى:

(وان كادوا ليفتنونك عن الذي أوحينا إليك لتفتري علينا غيره، وإذا لاتخذوك خليلا.. ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئا قليلا. إذا لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات. ثم لا تجد لك علينا نصيرا) (٣٥)

تتحدث هذه الآيات.. عن محاولة جاهلية لفتن الرسول (ص) عما

أوحي إليه من الله تعالى.. أو بعض ما أوحي إليه.. ويتلخص هذا العرض في أن يقدم الرسول بعض التنازلات الفكرية للمشركين في مكة، لينضموا إلى صفوف الدعوة..
لقد حاولوا هذه المحاولة في صور شتى.. منها: مساومتهم له ان يعبدوا إلهه، في مقابل ان يترك التنديد بآلهتهم، وما كان عليه آباؤهم.. ومنها مساومة بعضهم له ان يجعل أرضهم حراما كالبيت العتيق الذي حرمه الله ومنها طلب بعض الكبراء، ان يجعل لهم مجلسا غير مجلس الفقراء.
هذه المحاولات التي عصم الله منها رسوله، هي محاولات أصحاب السلطان مع أصحاب
الدعوات دائما محاولة اغرائهم، لينحرفوا – ولو قليلا – عن استقامة الدعوة
وصلابتها، ويرضوا بالحلول الوسط التي يغرونهم بها في مقابل مغانم كثيرة. ومن حملة الدعوات من يفتن بهذا عن دعوته لأنه يرى الامر هينا، فأصحاب السلطان لا يطلبون إليه ان يترك دعوته كلية، انما هم يطلبون تعديلات طفيفة ليلتقي الطرفان في منتصف الطريق، وقد يدخل الشيطان على حامل الدعوة من هذه الثغرة، فيتصور ان خير الدعوة في
كسب أصحاب السلطان إليها، ولو بالتنازل عن جانب منها ولكن الانحراف الطفيف في أول
الطريق ينتهي إلى الانحراف الكامل في نهاية الطريق. وصاحب الدعوة الذي يقبل التسليم
في جزء منها، ولو يسير، وفي اغفال طرف منها ولو ضئيل، لا يملك ان يقف عندما سلم به
أول مرة، لان استعداده للتسليم يتزايد كلما رجع خطوة إلى الوراء..

والتسليم في جانب، ولو ضئيل من جوانب الدعوة لكسب أصحاب السلطان إلى
صفها: هو
هزيمة روحية بالاعتماد على أصحاب السلطان في نصرة الدعوة، والله وحده الذي
يعتمد
عليه المؤمنون بدعوتهم. ومتى دبت الهزيمة في أعماق السريرة فلن تنقلب الهزيمة
نصرا..
لذلك أمتن الله على رسوله (ص) ان ثبته على ما أوحى الله، وعصمه من فتنة المشركين
له، ووقاه الركون إليهم، ولو قليلا، ورحمه من عاقبة هذا الركون، وهي عذاب الدنيا
والآخرة مضاعفا، وفقدان المعين، والنصير (٣٦).
وتنشأ المساومة الفكرية والتنازلات الفكرية من مناشئ مختلفة أهمها اثنان:
(١) - التعجيل بتقدم الدعوة، ونمو العمل في الوسط الاجتماعي.. وهنا يتم التنازل عن
بعض أفكار الرسالة الأصيلة لعدم تقبل الناس لهذه الأفكار، ورفضهم لها، حتى تتقدم
الدعوة بشكل عام، وان كان على حساب التفاصيل وبعض الاجزاء منها.. ومن هذا
القبيل
التنازلات الفكرية الكبيرة التي قدمتها الأحزاب الشيوعية الأوروبية بعد أن وقف
نموها، وتجمدت فعاليتها في المجتمعات الغربية ذات التقاليد الفكرية الخاصة.
(٢) - تأثر أصحاب الدعوة بالقيم الحضارية والفكرية للمجتمع الذي ينوون تغييره..
وذلك لأنهم أبناء هذا المجتمع يؤثر فيهم من حيث

يشعرون، أو لا يشعرون عن طريق الايحاء الاجتماعي، والبنية الفكرية، ويغلب هنا الارتباط الحضاري، والاجتماعي عند هؤلاء على الارتباط المبدئي، والرسالي فيطمسون بعض معالم رسالتهم بسبب انتمائهم الجزئي إلى حضارة مختلفة.
ومن هنا احتاج المؤمنون الرساليون إلى (ملكة صبر) عالية يواجهون بها الضغوط السياسية، والاجتماعية، وضغوط التعجل والترف في داخلهم.. التي تعمل على تمييع شخصيتهم الفكرية، واحتوائهم فكريا، والى انشداد خاص بالله تعالى.. ينمي فيهم الاستقلال عن الجو المنحرف ويصعد من درجة تحكمهم بعواطفهم، وانفعالاتهم الآنية، ومن
هنا امر الله تعالى رسوله (ص) - بعد أن ذكر العرض الجاهلي - بالصلاة.
(أقم الصلاة لدلوك الشمس إلى غسق الليل، وقرآن الفجر ان قرآن الفجر كان مشهودا. ومن
الليل فتهجد به نافلة لك عسى ان يبعثك ربك مقاما محمودا) (٣٧)
٥) - الصبر على الاستمرار، والفعالية العملية:
ان (خوف) الانسان من مخاطر الطريق، و (شعوره بالغربة) في مجتمع يتناقض مع أفكاره،
ومبادئه، و (ملله) من العمل و (ألفته) له، وكذلك (انشغاله) النفسي بالدنيا من جاه، ومال، وملذات، و (تزلزل) ثقته بالصف، و (وساوسه) الشيطانية في الداخل و (ازدراء) أعين
الناس له، ولمن يقوم معه، و (روح الفردية) وحبه الاستقلال، هذه كلها وغيرها عوامل

تحول.. أو تثبط أو تضعف من الروح العملية من الاستمرار على خط العمل لله تعالى، والفعالية والنشاط عن المواصلة.. ومن هنا احتاج المؤمن كذلك ليحفظ استقامته على خط
العمل، وفعاليته فيه إلى ملكة صبر يواجه بها أهواء الانفصال، والبرود في العطاء..
و) – الصبر على الاستقامة في خضم العمل الاجتماعي
تعتمد الروح العملية والنشاط الاجتماعي في الأساس على سرعة المبادرة، وسرعة الحركة،
والأداء.. على السرعة في تقييم الناس.. وتقديم الأفكار، وتصحيحها، والسرعة في اعطاء
الصلاحيات.. الخ. والانسان عندئذ في هذه الحركة السريعة قد لا يحفظ انضباطه الشرعي،
ويتقيد بحدود الاسلام فيكون امره عليه غمة.. ويدخل في الانحراف من حيث هو يعمل
للقضاء عليه..
الانسان العامل في الحقل الاجتماعي معرض أكثر من غيره.. إلى الوقوع في خطيئة (التضليل) وتربية الناس على الأفكار المنحرفة التي دخلت حوزته نتيجة للتعجل في تقديم الأفكار، وتربية الآخرين.. وهو معرض أكثر من غيره للوقوع في خطيئة (ظلم) الناس، واتهامهم، وتجريحهم وذكر ما ليس فيهم من العيوب، وهدر كرامتهم.. وهو معرض
أكثر من غيره إلى اعطاء الصلاحيات لغير أهلها، ووضع الشيء في غير موضعه..
ولعل من أصعب الأشياء في ميدان العمل الاجتماعي هو الموازنة بين الانضباط الشرعي من
جهة، وبين الروح العملية، والفعالية الاجتماعية

من جهة أخرى.. ولهذا ينبغي للانسان المؤمن ان يعاني في هذا الميدان، ويكتوي بنار هذه المعاناة.. ويجاهد في الله.. نفسه حتى يهديه الله تعالى سبله، ويجعل الاستقامة، والفعالية سليقة، وطبعا له لا يجد حرجا، ولا صعوبة فيه.. والله تعالى مع المحسنين.

الاخلاص

الوجه الثالث للإرادة الربانية الحاكمة في الشخصية الاسلامية، هو الاخلاص. والناس غير المؤمنين على قسمين:

١) – الناس الذين لا يملكون أنفسهم امام شهواتهم الرخيصة الآنية ورغباتهم العاجلة كالجنس، والمال، والاكل.. ولا يتمتعون بأفق واسع، ونظر بعيد..

٢) – الذين يملكون أنفسهم امام شهواتهم الرخيصة ورغباته العاجلة، وذلك بأمل تحقق مكاسب شخصية أكبر في الأصل.. وهؤلاء يمثلون نحوا من التجاوز بالنسبة للآخرين من حيث (نوعية) الهوى الذي يعملون له، والزمن الذي يحققون فيه هدفهم الشخصي.. فالانسان من النوع الأول ينطلق من هوى الطمع في المال وشهوة البطن، والفرج، وليس هذا النوع على استعداد لان يضحي بهذه الأمور.. في أي حقل كان.. لان هذه الأشياء في وعيه يضحي من اجلها ولا يضحي بها من اجل شئ آخر.. اما الانسان من النوع الثاني فهو ينطلق من أهواء أخرى.. لنسمها بالأهواء المعنوية.. مقابل الأهواء المادية.. من

قبيل هوى (العظمة، والمجد، والخلود) وهوى (التحكم، والسيطرة، والتسلط) وهوى (تحقيق
الذات من خلال تحقيق المبادئ، والأفكار التي يؤمن بها) وهوى (الانتصار للعرق، والقومية، والوطن).. وغير ذلك من المعاني التي تمثل توسعا في دائرة ونطاق الذات الفردية..
والانسان من النوع الأول انسان عجول، وليس مثقفا في ابداء رغباته، واظهار شهواته، فلا هو يصبر على تأجيلها ولا هو بالذي يتفنن في العمل من اجلها. وهذا بخلاف الانسان
من النوع الثاني.. الذي يملك النفس الطويل في تحقيق أهدافه، والسعي وراءها.
والشخصية الاسلامية قسم ثالث، يختلف نوعيا عن القسمين السابقين، وليست هذه الشخصية
بأحد النمطين السابقين إذا أضفنا له الايمان.. والالتزام السلوكي والمظهر الديني..
فان الاسلام كما يحاول تغيير المضمون العقائدي.. والسلوك الاجتماعي، كذلك يهدف إلى
تغيير المضمون النفسي والوجداني، ودوافع السلوك، وبواعث الأعمال.. لان الاسلام يبني
صياغة جديدة للانسان، ويحاول ان ينشئ خلقا خلقا آخر من الناس يتميز عن كل ما عرفه
التاريخ البشري وتعرفه الحضارة المادية اليوم باشكالها، ومظاهرها المختلفة من ناس..
والاسلام إذ يحاول انشاء انسان جديد.. فهو يهمه في هذا الانشاء المضمون أكثر من الشكل.. وتهمه النية بقدر ما يهمه العمل لان خلق الانسان العابد.. الذي يحكم الله تعالى في كل جوانب حياته.. وهذا هو هدف الاسلام التربوي.. لا يتم الا بتطهير النية، وربطها بالله تعالى.. وهذا هو الاخلاص. فالاخلاص، هو ان يكون الدافع على العمل، والباعث له (التقرب) إلى الله، والحصول على مرضاته.

ومن الممكن ان يتم هذا عن طريق أحد الدوافع التالية التي تشترك جميعا في كونها دوافع دينية هدفها الله تعالى:

(١) – الدافع الأخلاقي: وهو ان تمتثل.. وتؤدي أعمالك بسبب ان الله تعالى يأمر بها. وانه تعالى أهل للعبادة وواجب الطاعة بحسب رؤية العقل العملي للانسان.

(الهي ما عبدتك خوفا من نارك، ولا طمعا في جنتك، ولكن وجدتك اهلا للعبادة فعبدتك)

(٢) – الدافع الوجداني العاطفي النابع من حب الله تعالى والانس به، والتشوق إليه.

(٣) – الدافع (الرباني / الذاتي) وهو ان تتقرب إلى الله تعالى، وتطلب رضاه من اجل تأمين سعادتك الأخروية، أو الحصول على نتائج عملية في الحياة الدنيا بنحو تعي ان هذا الهدف الذاتي، لا يحصل من دون توسيط الله من خلال التقرب إليه، وليس نتيجة طبيعية لفعلك الذي تقوم به.

ان الدافع هو الأساس النفسي للفعل.. والمقياس للقيمة النفسية التي يصدر عنها الفعل، كالاحساس بالواجب الأخلاقي، وحب الله، وحب رضاه وجنته، أو الخوف من عقابه. ويختلف

(الدافع) عن (الهدف) في أن هدف الفعل، هو النتيجة التي تقصد إليها في أدائك للفعل..

فالحصول على

الجنة هدف، والوقاية من النار هدف اما حب الجنة والخوف من النار فدافعان للعمل.
وهناك اهداف اجتماعية للعمل فالهدف من الوعظ هو هداية الانسان، والهدف من هداية
الفرد تكثير عدد المؤمنين.. وتكثيرهم وسيلة لهدف آخر. والعمل من اجل تحقيق هذه الأهداف لا يتنافى مع الاخلاص.. لأننا في هذه الحالة نسأل لماذا يسعى الانسان إلى هذا الهدف ويخطط له؟ وما هو الدافع النفسي له في ذلك؟ فإذا لم يكن الدافع شخصيا أنانيا، وكان خالصا لله.. كان هذا العمل في طريق الاخلاص، وعملا مخلصا من دون شك، وبكلمة أخرى: ان هذه الأهداف هي نفسها محبوبة عند الله تعالى أو مأمور بها من
قبله، وهي لهذا من الممكن ان تقع أهدافا في عمل خالص لوجه الله الكريم، ولا يتنافى قصد التوصل إليها بالعمل الخاص مع قربية هذا العمل..

الاخلاص هو المقياس للقيمة الحقيقية للعمل

ينظر ابن الحضارة الغربية – سواء كان يعيش في الغرب، أو الشرق أو في أوساطنا – إلى
العمل البشري ويقيمه على أساس من عطائه، ونتائجه، ودوره في الحياة الفردية، أو الاجتماعية، ولا يلتفت إلى النوايا، والدوافع لهذا العمل..

اما الاسلام، من هذه الوجهة يلزم بمجموعة كبيرة من الأعمال، من دون ان يشترط فيها
شكلا خاصا للباعث، والدافع النفسي وراءها. وذلك من قبيل الامر بالمعروف والنهي عن
المنكر، وتعليم الجاهل، ونفقة الزوجة،

وتوفير الطب والأطباء.. فهذه الأعمال، وغيرها يلزم بها التشريع الاسلامي من دون ان يشترط صدورها عن قصد التقرب إلى الله تعالى.. لان لهذه النشاطات مصالح ملزمة في
أنفسها تتحقق من دون قصد القربة.. وهناك الواجبات، أو المستحبات العبادية، وهي النشاطات التي يطلبها الاسلام من اتباعه مشروطة بنية التقرب، وقصد القربة إلى الله تعالى.
وعلى هذا.. فمن الممكن في القسم الأول ان يقوم الانسان المسلم بهذه النشاطات المذكورة.. ويسقط بها الوجوب الشرعي، ويبرئ ذمته من عهدة التكليف، وعبء المسؤولية
حتى لو لم يقصد التقرب، وانما قصد السمعة والرياء أو دفع اللوم والنقد وما شاكل ذلك.
واما في القسم الثاني - العبادات - فهي لا تصح الا بقصد القربة، ونية التقرب إلى الله تعالى.. بل يحرم ان يؤتى بها رياء، وسمعة..
ولكن هذا كله من الزاوية التشريعية.. واما من الزاوية الأخلاقية الاسلامية، فان كل عمل ليس له قيمة الا إذا كان صادرا عن اخلاص لله تعالى لان قيمة العمل (قبوله)..
ولا يتم (قبول) العمل من الله تعالى الا بالاخلاص، وان أمكن ان يكون صحيحا مسقطا للتكليف مبرئا للذمة من دون اخلاص.
وبهذا جاءت النصوص عنهم (ع):
(لا عمل الا بنية)
(انما الأعمال بالنيات، ولكل امرئ ما

نوى، فمن غزى ابتغاء ما عند الله فقد وقع اجره على الله عز وجل ومن غزى يريد عرض
الدنيا، أو نوى عقالا لم يكن له الا ما نوى)
(رسول الله (ص):
(أخشوا الله خشية ليست بتقدير، واعملوا لله في غير رياء، ولا سمعة فان من عمل لغير الله، وكله الله إلى عمله يوم القيامة)
(عن علي (ع):
(ان الملك ليصعد بعمل العبد مبتهجا به، فإذا صعد بحسناته يقول الله عز وجل، اجعلوها في سجين، انه ليس إياي أراد به)
(عن الصادق عن الرسول (ص):
(اجعلوا امركم هذا لله، ولا تجعلوه للناس، فان ما كان لله فهو لله، وما كان للناس فلا يصعد إلى الله)
(عن أبي عبد الله (ع):
ولا شك ان كثيرا من الانجازات العظمى التي يهلل لها في تاريخ

الاسلام، والمسلمين (ادخال بلاد في سيادة الاسلام - كتاب شامخ من الكتب الاسلامية..) قد لا يحصل أصحابها من ورائها غدا على شئ لأنهم أرادوا بها حطام الدنيا، وغفلوا فيها عن الله ويعرض القرآن الكريم صورة حية لنبيين كريمين، وهما يقومان بارساء قواعد انجاز من أعظم الانجازات في التاريخ الديني للانسان النبيان الكريمان هما إبراهيم وإسماعيل، والصورة:

(وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت، وإسماعيل ربنا تقبل منا انك أنت السميع العليم ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك) (٣٨)

انهما وهما النبيان الكريمان على الله.. وانجازهما من أعظم الانجازات يتضرعان إلى الله.. ويمدان بطرفهما إلى السماء.. ويخشعان.. ويدمعان.. ربنا تقبل منا.. يقولان ذلك في وعي عميق في أن كل انجاز لا قيمة له في ذاته ما لم يتقبله الله.. ولا يتقبله سبحانه الا من المتقين المخلصين.

ولا تتمثل قيمة الاخلاص في (قبول) العمل، والإنابة عليه فقط، وان كانت هذه قيمة كبيرة محسوبة من جانب الانسان المسلم، وانما تتمثل قيمته مضافا إلى ذلك في مستوى

الشخصية الذي بلغته.. في التجرد عن الأهواء، ودواعي السمعة والرياء، والتظاهر امام الناس، أو السعي وراء طموحات شخصية. ان الشخصية التي تعمل فيها (دوافع) أخرى غير

دينية لا يأمن منها الانحراف، والخروج عن حدود الشريعة وتقديم الحسابات

الشخصية على الحسابات الرسالية في لحظات الترجيح والتزاحم الحاسمة، وهي مهما بلغت
من مستوى الأداء، والانجاز، وحجم الخدمات غير مضمونة الاستقامة والاستمرار على خط
الله تعالى.. بما يحصل فيه من أشواك، ومكاره، وما يحفه من شهوات، وأهواء عصمنا الله
تعالى من الزلل والرياء.
(اللهم احملنا في سفن نجاتك، ومتعنا بلذيذ مناجاتك وأوردنا حياض حبك، وأذقنا حلاوة
ودك، وقربك، واجعل جهادنا فيك، وهمنا في طاعتك، وأخلص نياتنا في معاملتك فانا بك،
ولك، ولا وسيلة لنا إليك الا أنت)
صعوبة الاخلاص لله تعالى
يوجد الكثير من المؤمنين من يشغله الجهاد، والعمل في سبيل خدمة قضية الاسلام عن التأكيد من مضمون عمله وطبيعة نيته، ودافعه.. وقد لا يستسيغ المؤمن أن يراجع ذاته، وينفق الوقت في ذلك ليتحقق من درجة اخلاصه ومستوى نموه الروحي.. الا ان الواقع ان
مواصلة الجهاد والعمل في سبيل الله تعالى، والاهتمام بشؤون الناس وهدايتهم، وان كان
أمرا ضروريا، وواجبا شرعيا الا ان التركيز، وتحصين الذات من الانحراف، والتنمية الروحية أيضا من الأمور المهمة، والضرورية التي لا ينبغي اغفالها.. هذا مع أن مراجعة الذات، والتربية الروحية لا تتنافى مع العمل في سبيل الله، ولا هذا بالذي يشغل عن ذاك، والاعتكاف أروع صيغة

للعزلة الواعية التي يؤمن بها الاسلام ويدعو لها ويحث عليها.. وهي كما تساعد على الانشداد إلى الله تعالى تساعد كذلك على مراجعة الذات وتقييمها والتعرف على مواطن
الضعف والقوة فيها بعيدا عن ضوضاء العمل الاجتماعي، والانشغال بالناس ومعهم.
ويوجد من جهة أخرى من يحسب أنه في قمة الاخلاص.. لأنه لا يطلب من وراء عمله مالا،
ولا منصبا حكوميا.. وانه لو أراد ذلك فطريقه معروف، ولم يكن من الضروري، أو اللازم ان يسلك طريق الجهاد والعمل الدؤوب.. ولكن الانسان أعقد من ذلك، ودوافعه الذاتية لا تنحصر في المال، والمنصب الحكومي.. ولكل انسان مخاطبوه، والبيئة التي يتعامل معها وللانسان أهواء معنوية كما له أهواء مادية.. فهناك من يحب أن يظهر..
وهناك من يسعى نحو الجاه، والمركز في قلوب الناس.. والرياء – كما في الحديث – اخفى
من دبيب النملة في الليلة الظلماء على الصخرة الصماء لان حب الدنيا متمكن من قلوب
الناس.. وتساميهم عليها، وتوجههم إلى الله من الأمور الصعبة.. ورغم كل ذلك، فالاخلاص ليس مستحيلا، ولا بعيد المنال، يوفق الله تعالى له، من يبذل الجهد ويصدق النية في محاولة التنمية الروحية، والتربية الدينية والتصاعد إلى الله، فلا ينبغي
ان تكون صعوبة الاخلاص حاجزا دون السعي إليه.. والتنصل منها.. وللمؤمن مجالات عديدة لشحذ اخلاصه، وتنمية دوافعه الدينية.. عاشر الناس.. وعش انحرافهم.. وتحسس به،
وانطلق في عملك غاضبا لله.. علم نفسك على عبادة السر صلاة السر.. وتسبيح السر..
وصدقة السر ولا تحدث بذلك الناس.. فان ذلك تثبيت للصلة بالله تعالى

وتنمية، وقطعا لعلاقة القلب بالناس. عش مفاهيمك في الحياة من خلال تلاوة القرآن، الدعاء الاسلامي، قراءة الكتب الأخلاقية ففي كل ذلك وأمثالها شحذ للهمم ودوافع الخير، والحياة النفسية مع الله..

شمول العبادة، وسعة الاخلاص

إذا انحصرت العبادات بالمعنى الخاص – المطلوبات التي يشترط فيها قصد القربة – في
دائرة محدودة هي الصلاة، والصوم، والحج، والاعتكاف.. الخ، فان هناك مجالا كبيرا لتوسيع الفعل العبادي بحيث يشمل الكثير من الافعال، والمطلوبات الشرعية التوصيلية.. بل، وكل مطلوب كذلك. لان هذه المطلوبات وان كان لا يشترط الله سبحانه ان يأتي بها
عن طريق قصد القربة، ولا يلزمنا بذلك الا من الممكن ان نجعلها عبادة، ونقصد بها وجه
الله الكريم.. خذ مثلا الاكل، والشرب، التوسعة على الأهل، اللقاء مع الأصدقاء..
وغير ذلك مما هو مطلوب شرعا بنحو من انجاز المطلب الشرعي فان بالامكان ان ننوي بكل
ذلك التقرب إلى الله تعالى.. ونرجو من خلاله الاجر، والثواب،.. وفي الحديث عن رسول
الله (ص) في وصية لأبي ذر:

(يا أبا ذر ليكن لك في كل شئ نية حتى في النوم والاكل)

التوكل.. تعزيز لإرادة المسلم

في القرآن الكريم اهتمام كبير بالتوكل والحث عليه.

فالتوكل في القرآن الكريم ظاهرة عامة في سلوك الأنبياء:
(قالت لهم رسلهم ان نحن الا بشر مثلكم ولكن الله يمن على من يشاء من عباده، وما كان
لنا ان نأتيكم بسلطان، الا بإذن الله. وعلى الله فليتوكل المؤمنون. وما لنا الا نتوكل على الله، وقد هدانا سبلنا، ولنصبرن على ما آذيتمونا، وعلى الله فليتوكل المتوكلون) (٣٩)
وهو ضرورة من ضرورات الايمان، ولازمة من لوازمه.. كما يبدو ذلك في القرآن الكريم:
(ان كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا، ان كنتم مسلمين) (٤٠)
(وعلى الله فتوكلوا ان كنتم مؤمنين) (٤١)
وهو معنى من المعاني التي ينشئ القرآن الكريم عليها النبي ويربيه.
(فاعرض عنهم، وتوكل على الله، وكفى بالله وكيلا) (٤٢)
(ولا تطع الكافرين، والمنافقين، ودع أذاهم وتوكل على الله) (٤٣)

ويحث عليه المؤمنين:
(وان يخذلكم فمن ذا الذي ينصركم من بعده، وعلى الله فليتوكل المؤمنون) (٤٤)
(أن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا) (٤٥)
اذهب أنت وربك فقاتلا
عندما خرج موسى (ع) من ارض بني إسرائيل، واجهته مهمة اعدادهم للدخول في الأرض
المقدسة، التي كتب الله لهم، ولم تكن الأرض المقدسة خالية من الناس، بل كان فيها قوم جبارون.. وبنو إسرائيل كسرتهم الأيام السود في مصر في ظل الارهاب، والتفرقة العنصرية، والاستخدام كسرتهم نفسيا وأذلتهم اذلالا شديدا. فما كان منهم حين أمرهم بدخول الأرض المقدسة الا ان قالوا:
(ان فيها قوما جبارين، وانا لن ندخلها حتى يخرجوا منها)
(قال رجلان من الذين يخافون أنعم الله عليهما، ادخلوا عليهم الباب فإذا دخلتموه فإنكم غالبون.. وعلى الله فتوكلوا ان كنتم مؤمنين) (٤٦)
وأجاب المنطق الإسرائيلي المتخاذل المشبع بالذل:

(يا موسى اذهب أنت وربك فقاتلا انا ها هنا قاعدون) (٤٧)
يبدو أن غاية ما فهمه هؤلاء من التوكل هو ما يفهمه الكثيرون اليوم القاء الكل على الله. واعطاؤه (وكالة) وتفويضا في التصرف في هذه المواقف، واتكال، وقعود، وكسل فالتوكل، هو: استنابة الله.. في مواقف هي من صلب المهام التي ألقاها الله تعالى على عاتق البشر.. التوكل عندهم في العيش، والرزق.. بطالة، وفراغ.. على أمل ان يرزقهم الله الرزق الحلال، أو الحرام على طريقة (الغراب الأعمى) المعروفة – والتوكل عندهم في مواجهة الانحراف تفويض، وانتظار سلبي لا عين له، ولا يد – والتوكل عندهم
في كل شئ، اتكالية ميتة ممسوخة، ما انزل الله بها من سلطان.
فإذا عزمت فتوكل
وجل موارد التوكل تأتي لشئ آخر هو تعزيز إرادة الصمود في وجه تحديات الكفر والضلال.. وتعزيز إرادة الأقوام في اللحظات الحرجة.. وهو لهذا داعية للعمل، وباعث عليه وليس مثبطا عنه، أو تفويضا عنه، وبديلا.
أ) – تعزيز إرادة الصمود في وجه التحديات: (*)
– (واتل عليهم نبأ نوح إذ قال لقومه يا قوم ان كان كبر عليهم مقامي، وتذكيري بآيات الله، فعلى الله توكلت

فاجمعوا امركم، وشركاءكم ثم لا يكن امركم عليكم غمة ثم اقضوا إلي، ولا تنظرون) (٤٨) (*)

- (الذين قال لهم الناس ان الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم ايمانا، وقالوا حسبنا الله، ونعم الوكيل) (٤٩) (*)

- (فما آمن لموسى الا ذرية من قومه على خوف من فرعون، وملائهم ان يفتنهم، وان فرعون لعال في الأرض، وانه لمن المسرفين. وقال موسى يا قوم ان كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا ان كنتم مسلمين. فقالوا على الله توكلنا ربنا لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين، ونجنا برحمتك من القوم الكافرين) (٥٠) (*)

- (قالت لهم رسلهم ان نحن الا بشر مثلكم، ولكن الله يمن على من يشاء من عباده، وما كان لنا ان نأتيكم بسلطان الا بإذن الله، وعلى الله فليتوكل المؤمنون.. وما لنا الا نتوكل على الله، وقد هدانا سبلنا، ولنصبرن على ما آذيتمونا، وعلى الله فليتوكل المتوكلون) (٥١)

في هذه الآيات المباركات تبدو واضحة قيمة التوكل في تعزيز إرادة الصمود. والصبر في
المحنة، والبلاء. والثبات على الاستقامة فنوح (ع) يستهين بملة الكفر على ضخامة الحجم، وشراسة المواجهة، لأنه توكل على الله.. والمؤمنون عندما يقول لهم الناس: ان
الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم.. لا يخشونهم وانما يزدادون ايمانا.. ويحتسبون الامر عند الله وعليه يتوكلون.. وموسى (ع) يغذي قومه في الأيام الصعبة بالتوكل، لان التوكل زاد الصامدين الصابرين، وهكذا الرسل يصبرون على الأذى، والتكذيب بمعونة التوكل والاحتساب.

من أين جاءت هذه القيمة العملية الكبرى للتوكل.. وكيف يتاح للتوكل ان يعزز فينا إرادة الصمود، والقدرة على المواجهة؟!

هذه القيمة العملية للتوكل تنبع في حقيقة الامر من تفويض العنصر غير الاختياري إلى الله، فأنت تقوم بدورك، وتنتهي مهمتك، وما تبقى على الله تفوضه إلى الله وحده.. بعد أن تحذر من الوقوع في الخطأ، والتهور، وتجاهد قدر ما تستطيع.. بعد هذا لن تبقى
قلقا على ما تبقى.. فأنت لا يهمك ما تبقى لا يهمك، ان قتلت، أو مت، أو عذبت.. لأنك قد جعلت هذا بعين الله، ووكلت الامر إليه.. يقرر ما يشاء، ويفعل ما يشاء، وليس
لك سوى الرضا، والقناعة.

ب) - تعزيز إرادة الاقدام:

(فاعف عنهم، واستغفر لهم، وشاورهم في الامر، فإذا عزمت فتوكل على الله ان الله

يحب المتوكلين. ان ينصركم الله فلا غالب لكم، وان يخذلكم فمن ذا الذي ينصركم من
بعده، وعلى الله فليتوكل المؤمنون) (٥٢)
(قالوا يا موسى ان فيها قوما جبارين وانا لن ندخلها حتى يخرجوا منها فان يخرجوا منها فانا داخلون. قال رجلان من الذين يخافون أنعم الله عليهما، ادخلوا عليهم الباب فإذا دخلتموه فإنكم غالبون. وعلى الله فتوكلوا ان كنتم مؤمنين) (٥٣)
بينما كان التوكل في الآيات السابقة تعزيزا لإرادة الصمود، للصبر، للثبات، والاستقامة، رغم الضغوط والتحديات. فإنه في هاتين الآيتين يقوم بدور المعزز لإرادة الاقدام.. والفعل.. للإرادة المؤمنة الهجومية، التي تفتح على الجبارين معاقلهم، وتلقنهم الدروس في عقر ديارهم والحصون التي يحتمون بها من إرادة الله..!
وفي كل مشروع في الحياة العملية يستهدف بعض النتائج توجد أسباب اختيارية، وأسباب
خارج دائرة هذا الفرد أو ذاك، والانسان كثيرا ما يتردد، أو يضعف، وتضعف ثقته بنفسه، وأدائه، لتوقعه دخول عناصر ليست بالحسبان تنتهي إلى فشل المشروع المذكور.
والتوكل يعالج هذه النقطة فأنت عليك ان تؤدي ما باختيارك وأوكل

ما ليس بالاختيار إلى الله تعالى.. واستمد العون منه.. وادعه ان يتمم عملك، يكمله لك..
الاتكالية الاعتماد على الذات. التوكل
الاتكالية.. هي ان تنفض يدك.. وتسحب نفسك من معركة العيش، ومعركة الاصلاح والتغيير.. لأنك تفوض الله في هذه العملية وتستنيبه في التصرف تماما كما يفعل الموكل مع الوكيل في عقد الوكالة.. والاتكالية انحراف في الفكر والسلوك، لان قاعدة
(أعقل وتوكل) أي قم بما عليك، وأوكل الباقي إلى الله.. هي القاعدة السلوكية المعمول
بها عند المسلم، وليست قاعدة.
(اذهب أنت وربك فقاتلا)
والاعتماد على الذات، هو ان يقوم الانسان وحده، من دون أن يتوكل على الله تعالى، ويتطلع إلى نصره، ومساندته.. وهو شعبة من شعب القطيعة مع الله.. يرهق بها الانسان نفسه بعبء المسيرة، ومسؤولية الحياة.. ثم لا يجد له وليا ولا نصيرا.. والانسان الذي يقطع صلته النفسية بالله.. ويتمرد على ربه جل وعلا بين اثنتين: بين صيغة الانسان الضائع المشتت القلق المرهق.. وصيغة الانسان الذي يطغى.. ويفاجئ الناس بأنه
(ربهم الاعلى) وحتى هذا الانسان ينطلق في ذلك من عقد الحقارة والنقص، والشعور بالحاجة الذي يحاول ان يتغلب عليه من خلال الخلع الكاذب المزعوم لصفات الاله على
الذات..

والتوكل صورة بين اثنتين بين الاتكالية، والاعتماد على الذات تتجاوز سلبيات كل منهما.. وتحقق في معنى ابداعي جديد صيغة الحياة الرائدة.. المطمئنة في الحياة.
التوكل والتخطيط
١) - عرفنا ان التوكل لا يعني نفض اليد من الالتزامات وان أداءها، ويبني الثقة بالذات، والقدرة على الصمود والاقدام.. وهو على هذا (استعانة) بالله، وليس استنابة له في التصرف.. والاستعانة بالله تفترض، أن الفعل فعل الانسان ودور الله تعالى دور المساند والمعزز والمعين.
٢) - والسؤال الآن: هل يتنافى التخطيط مع التوكل؟
ابدا.. لان التوكل كما عرفنا استعانة بالله تعالى وليس اتكالية كسولة.. والتخطيط في حقيقة امره.. اختيار الخطوات المناسبة التي من شانها ان توصل إلى هدف معين. والبحث عن الخطوة المناسبة إلى هدف معين مثله، مثل الخطوة ذاتها لا يتنافى مع التوكل.
الدخول إلى الأرض المقدسة كان هدفا فكيف حاول التوصل إليه الرجلان اللذان يخافان
أنعم الله عليهما؟! كان ذلك عن طريق (التخطيط + التوكل).
(ادخلوا عليهم الباب، فإذا دخلتموه فإنكم غالبون)

وهذا عين التخطيط، وقمة التخطيط، وعلى الله فتوكلوا ان كنتم مؤمنين.
وفي المثال الساذج المعروف، كيف يستطيع الأعرابي ان يحفظ بعيره، قد يفهم الأعرابي
التوكل فهما خاطئا فيتصور ان حفظ البعير بالتوكل وحده، وبايكال حفظه إلى الله، غير أن الذي فهمه الرسول (ص) له، هو (أعقل وتوكل) وعقل البعير صورة بسيطة لعملية
تخطيطية واضحة.
التعقل بعد آخر للإرادة المسلمة
عن مسعدة بن صدقة عن أبي عبد الله (ع) قال: (ان رجلا اتى النبي (ص) فقال له: يا رسول الله أوصني، فقال له: فهل أنت مستوص ان انا أوصيتك؟ حتى قال له ذلك ثلاثا، وفي كلها يقول الرجل نعم يا رسول الله. فقال له رسول الله:
(فاني أوصيك إذا هممت بأمر فتدبر عاقبته فان يك رشدا فامضه، وان يك غيا فانته عنه)
للإرادة الربانية بعدان آخران:
١) - التعقل.. وهو التفكير المسبق في كل فعل قبل وقوعه، ودراسة ما إذا كان من الصحيح فعله أولا. وهذا هو الذي يوصي به الرسول (ص) في الحديث المذكور.. فيقوم
التعقل على أساس:
(إذا هممت بأمر فتدبر عاقبته فان يك

رشدا فامضه، وان يك غيا فانته عنه)
ويعني ذلك بالتالي عدم الاعتماد على العواطف، والانفعالات والحماس الآني وعدم التسرع في الموقف، والاجراءات.
٢) - التخطيط، والتنظيم.. ويقوم على أساس تحديد الخطوات وتعيين المراحل، والاجراءات
اللازمة للوصول إلى النتيجة الفعلية، أو الهدف المعين الذي يقوم عليها، والعمل وفق ذلك بالدقة التامة. وهذا شأن من شؤون الحكمة التي امر الله تعالى بها رسوله، والمؤمنين.
(ادع إلى سبيل ربك بالحكمة، والموعظة الحسنة)
تعقل بلا إرادة، وإرادة بلا تعقل
نلاحظ - كما في كثير من المجالات - وجود افراط وتفريط بصدد قضية التعقل والتخطيط..
فهناك من يبني مواقفه عمليا على أساس الحماس، والعزم، والتصميم من دون ان يتأمل فيها، ويتدبر ومن دون أن يدرس الخطوات الضرورية اللازمة للوصول إلى الأهداف الاجتماعية التي يحاول تحقيقها.
وهناك في المقابل من يكثر من التأمل والتفكير. ولكن لا ينتهي إلى يقين، وانما إلى وسوسة، وشك، وتلكؤ، أو إلى تجميد، وتعطيل فيصاب هؤلاء في العادة بمرضين:

(١) – مرض الوسوسة، والتردد، و (الجربزة) لأنهم بتفكيرهم الزائد وتأملهم العميق يخرجون عن إطار الرؤية الفكرية للاسلام، والعمل الاسلامي، والبصائر، والهدايات العامة التي ينبغي، ويجب على الانسان ان يتمسك بها في ميادين العمل، والجهاد..
(٢) – مرض التلكؤ العملي، والجمود والضمور الذاتي والانطواء على الذات.
ان الله سبحانه يريد منا أن نوازن في أمورنا جميعا.. والمطلوب هنا ان نوازن بين القلب، والعقل، والروح، والفكر والعزم والتعقل.. وان نعطي لعقولنا حقها من التفكير ولإرادتنا حقها من العمل.. لا عمل من دون علم وتدبر لان
(العامل على غير بصيرة، كالسائر على غير الطريق لا يزيده سرعة السير الا بعدا)
ولأن
(من عمل على غير علم كان ما يفسد أكثر مما يصلح)
كما عن الرسول (ص) ومن جهة أخرى:
(لا علم بلا عمل، لان بين العمل والعلم تكاملا)

ذكره الإمام (ع) كما في الرواية التالية:
(لا يقبل الله عملا بلا معرفة، ولا معرفة الا بعمل، فمن عرف دلته المعرفة على العمل، ومن لم يعمل فلا معرفة له، الا ان الايمان بعضه من بعض)
وأما المتشككون المتلكؤون فيقول لهم الإمام علي (ع) كما في نهج البلاغة:
(لا تجعلوا علمكم جهلا، ويقينكم شكا، إذا علمتم فاعلموا، وإذا تيقنتم فاقدموا)
الفصل الخامس: وسائل التربية الروحية

تربية الجانب الروحي:
عرفنا في ما مضى أن الجانب الروحي في شخصية الانسان المسلم يتمثل في مجموعة من
العناصر النفسية الداخلية المنشدة إلى الله تعالى.. والمرتبطة به، بصائر وعواطف، وإرادة.
فايمانك بالله تعالى، واطمئنانك له، وخوفك، ورجاؤك منه، وحبه، وحب المؤمنين، والاخلاص والصبر، والزهد، وأمثال ذلك من المعاني التي يتشكل منها الجانب الروحي.
واما الصلاة وتلاوة القرآن الكريم، وذكر الله، وما شاكل ذلك فهي وسائل التربية الروحية والاعداد الروحي.. وليست هي في ذاتها عناصر روحية..
ومن روائع دين الله، انه لم يحث على ربط القلب والإرادة بالله تعالى ولم يلزم به فقط وانما بين طريق ذلك وأسلوبه الصحيح، وتسهيلا للناس وتوضيحا للسبيل المستقيم في مسألة قابلة الانقسام في التربية الروحية تقوم على أساس من القوانين النفسية، ونظم الترابط بين الذهن، والقلب، والإرادة، والسلوك، وليس المقصود من أن الاسلام بين الطريق إلى التربية الروحية وتنمية الصلة النفسية بالله تعالى، انه قد تحمل مسؤولية للتربية، والبناء على الانسان المسلم.. وانما كل ما فعله هو، ان وضح المعالم، ورسم الطريق، وعلى المسلم ان يبادر، ويعاني في سلوك هذا الطريق حتى ينتهي

أخيرا إلى الدرجة اللائقة من الصلة بالله والعلاقة الروحية به.
وهكذا فان بناء الجانب الروحي، والتربية الروحية لا تتم بالشكل الصحيح الا بشروط ثلاثة:
١) - الشرط التكويني: وهو وجود قوانين نفسية تحكم العلاقة بين الجانب الروحي والصلة النفسية بالله، وبين مجموعة من المواقف والأعمال يمكن من خلال أداء هذه الأعمال. وعلى أساس الترابط الموجود بين الفعل، والجانب الروحي، تنمية هذا الجانب،
وتكوين الصلة الداخلية بالله تعالى. وقد تكفل الله سبحانه بهذا الشرط في النظام التكويني للأشياء ويكشف القرآن في آيات متعددة عن الكثير من هذه القوانين النفسية، والترابطات الموجودة بين أجهزة الشخصية الانسانية.. ويقيم على أساس من ذلك نظامه التربوي..
٢) - الشرط التشريعي: وهو وضوح الوسائل والمواقف التي تؤدي إلى تلك النتائج النفسية بحكم القانون النفسي المغروس فطريا.. والمودع في جهاز التكوين البشري.. وقد قام الاسلام بذلك، فحدد مجموعة كبيرة من وسائل التنمية الروحية، وتكوين الانشداد الداخلي بالله. وسنأتي على ذكر هذه الوسائل إن شاء الله تعالى.
٣) - المبادرة الفردية، والمعاناة في اتباع هذا الخط وتبني هذه الوسائل، وانتهاجها.. وإذا كان الشرط الأول من مهمات الجانب التكويني في خلق الانسان، وكان
الشرط التالي من مهمات الاسلام التشريعية فهذا الشرط كما هو واضح من مهمات الفرد،
الانسان المسلم نفسه. وليس من

مهمات الانسان المسلم ان يستحدث وسائل عبادية منه، وأساليب للتربية الروحية، بل قد
لا ينبغي من ذلك بعد أن وضح الاسلام الطريق، ورسم المعالم في هذا الميدان، وقد يؤدي
استحداث هذه الوسائل، والأساليب إلى شكل من اشكال الابتداع في الدين، وبالتالي الانحراف عن الأهداف الاسلامية للتربية الروحية.. كما وقعت في ذلك اتجاهات التصوف..

المعاناة في سبيل التربية الروحية

دور الانسان المسلم اذن هو تبني التربية الروحية التي حددها الاسلام من صلاة، وذكر، وصيام، و.. ولكن تبنيها ليس دائما أمرا سهلا. صحيح ان الاسلام عندما يوضح أساليب التنمية الروحية يكون بذلك قد سهل هذه العملية، ولكن لتسهيل امر نسبي. فعلى
الانسان ان يعاني في سبيل البناء الروحي، ويجاهد نفسه، وأهواءه من اجل سلوك الطريق
إلى الله الذي يبدأ صعبا وينتهي سهلا وسجية للسالكين..
ان الضواغط على التربية الروحية كثيرة ولكن إرادة الانسان المؤمن يجب ان تكون أكبر
من الضواغط، وأكبر من الحواجز الطبيعية والاجتماعية والنفسية، بيئة المؤمن الاجتماعية، وبيئته الثقافية، وزاده الفكري الذي يتلقاه، ويتفاعل معه، ومشاغله الحياتية، وتربيته الأولى، وطبيعته كانسان له أهواؤه وحسه، كل ذلك لا يشجع على الصلة بالله.. ولكن في هذا أيضا قيمة الاتصال بالله، وتعميق العلاقة به.. وفي
تجاوز المصاعب، والتمرد على القوانين الاجتماعية، والنفسية.. تتبدى (تتجلى) انسانية الانسان، وجوهره الروحي الخلاق. وفي هذا أيضا ميزة الانسان المسلم الذي يتبنى الاسلام عقيدة، وخلقا، وسلوكا، على الانسان المادي

فهذا يبقى خالدا إلى الطين محكوما بقوانين الشهوة، الحس، وعالم الشهادة، وذاك يرتفع ويتصاعد إلى السماء، ويتجاوز قوانين الشهوة، والحس، والتعامل مع عالم الغيب..

لمجرداته، ومغيباته..

الانسان المادي يشكل حقا حقارة معنوية لعالم الحيوان.. ضيق الأفق، ومحدودية الطموح، والمحسوبية للشهوات.

(ان هم الا كالانعام بل هم أضل)

والانسان المسلم يمثل التجاوز الحقيقي للوضع الحيواني بحدودهما الضيقة وآفاقهما المحدودة.. وبالكدح والمعاناة، وبهداية الله تنمو روحية الانسان وتلتقي بالله..

(يا أيها الانسان انك كادح إلى ربك كدحا فملاقيه)

(والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا)

وسنذكر فيما يلي وسائل التربية الروحية، وهي في الاسلام كثيرة ولكننا سنقتصر هنا على ما يلي منها:

١) - قيام الليل.

٢) - ذكر الله كثيرا.

٣) - تلاوة القرآن الكريم.

٤) – الأجواء الايمانية.
٥) – الثقافة الايمانية.
٦) – مخالفة الأهواء – الصوم.
٧) – المحاسبة، والنقد الذاتي.
٨) – الاعتكاف.

أولا قيام الليل

ورد الحث الشديد – كتابا وسنة – على صلاة الليل.

١) – (يا أيها المزمل قم الليل الا قليلا، نصفه أو انقص منه قليلا، أو زد عليه، ورتل القرآن ترتيلا) (المزمل)

٢) – (أقم الصلاة لدلوك الشمس إلى غسق الليل، وقرآن الفجر، ان قرآن الفجر كان مشهودا. ومن الليل فتهجد به نافلة لك عسى ان يبعثك ربك مقاما محمودا) (الاسراء / ٧٩)

٣) – (ان المتقين في جنات وعيون. آخذين ما آتاهم ربهم انهم كانوا قبل ذلك محسنين.
كانوا قليلا من الليل ما

يهجعون. وبالأسحار هم يستغفرون) (١)
٤) - (واذكر ربك بكرة وأصيلا. ومن الليل فاسجد له وسبحه ليلا طويلا) (٢)
٥) - عنهم (ع):
(شرف المؤمن صلاته بالليل، وعز المؤمن كفه عن اعراض الناس)
٦) - عن أبي عبد الله (ع) قال:
(عليكم بصلاة الليل فإنها سنة نبيكم ودأب الصالحين قبلكم، ومطردة الداء عن أجسادكم)
٧) - وعنهم (ع) في مجموعة أحاديث:
(ان صلاة الليل تذهب ذنب النهار وتطرد الداء من الأجساد، وتبيض الوجه، وتطيب الريح،
وتجلب الرزق، وتذهب بالهم، وتجلو البصر، وتحسن الخلق، وتقضي الدين، وهي مصحة للبدن،
ورضا للرب، وتمسك بأخلاق النبيين (ع)
٨) - عن أبي عبد الله (ع):

(ليس من عبد الا ويوقظ في كل ليلة مرة، أو مرتين، أو مرارا. فان قام كان ذلك والا فجج الشيطان فبال باذنه أولا يرى أحدكم إذا قام، ولم يكن ذلك منه قام وهو متحير (متخثر) ثقيل كسلان)

٩) - وعنه (ع):

(يا سليمان لا تدع قيام الليل فان المغبون من حرم قيام الليل)

وعنه (ع):

(ليس منا من لم يصل صلاة الليل)

١٠) - وفي الحديث..

(جاء رجل إلى أمير المؤمنين (ع) فقال: اني حرمت الصلاة بالليل، فقال أمير المؤمنين (ع): أنت رجل قد قيدتك ذنوبك) (٣)

الأثر التربوي لصلاة الليل

ان هذا التأكيد الشديد على صلاة الليل انما هو باعتبار اثرها التربوي الخطير في حياة الانسان الروحية.. فهي وراء كونها عبادة وصلاة، لها ما

للصلاة وللعبادة من آثار. تحتوي على اثرين مهمين، سجلتهما الآية المباركة:
(ان ناشئة الليل هي أشد وطئا وأقوم قيلا)
فقيام الليل بما فيه من مجاهدة للنفس، وتحكم في الهوى، ومعاناة في سبيل الوقوف بين
يدي الله.. باعتبار مواجهة اتعاب النهار، وسلطان النوم، والشعور بالوحدة في جوف الليل. وباعتبار ذلك يكون قيام الليل أشد وطئا، وأكبر اثرا على بناء الإرادة، والصبر، وبناء الجهاز الحاكم في الشخصية الاسلامية.. وما أحوج الانسان المؤمن في الدرب الطويل.. والمسيرة الصعبة وعناء الدعوة.. إلى بناء الإرادة، وتكوين ملكة الصبر.. الصبر الذي يكون لله، وعلى عبادة الله.. وما أحوج الانسان القائد الذي ينتظر منه تحرير الأمة من أسر الشهوة، والانحراف، والخضوع للدنيا والركون للطواغيت
ان يتحرر من داخله.. وان يخرج عن أسر الكسل إلى دائرة النشاط.. وقيود الشهوة إلى دائرة القدرة، والإرادة، والتجاوز.. وبالتالي ما أحوجه إلى هذه اللحظات القصيرة – من عمر الزمن – في جوف الليل.. ويؤكد فيها استعلاءه على كل شئ.. على كل شئ غير
الله الكبير المتعال..
هذا من جهة.. ومن جهة أخرى، لما كانت عبادة الليل.. بعيدة عن مشتتات الانتباه، وتتخذ الطابع السري بعيدا عن أعين الناس فهي لهذا أقوم قيلا، وأكثر تثبيتا على الكلمة الربانية، كل التعاملات الشرعية

التي يراها الناس منك قابلة لان تكون موقفا اجتماعيا، وتوافقا مع البيئة، التي
نتفتح لها، وتتخاطب معها.. فاكتب ما شئت ان تكتب للاسلام، وتحدث ما شئت ان
تتحدث عن
دين الله.. واسع لإخوتك.. كل هذا واجب، وكله مطلوب.. وكله فيه نحو من التثبت،
والابقاء على خط الله.. ولكن ليس هذا مثل عبادة البشر.. مثل العيش وحيدا، بعيدا
عن أعين الناس.. وحيدا الا من الله.. وغريبا الا مع الله.. تلتقي به، تتلقى منه
وتتضرع إليه. هناك فقط، وأكثر من غيره يتجلى لك (الصدور) عن الله.. والجهاد في
الله
هي لحظات تحاسب موقفك بين يدي الله.. وتصفي حساباتك في اليوم السابق.
وتؤكد له،
ولنفسك انك فيه وبه وليس لك من قصد الا هو.. وهذا هو التثبيت، والتمحيص، وبناء
الاخلاص، والصدور عن الله.
صراحة.. لا افهم من عبادات الاسلام شيئين الا للدعاة، الاعتكاف، وقيام الليل.. افهم
الحج عبادة عامة يجتمع فيها المسلمون، ويؤدون شعائر الحج، ويستفيدون في الفكر
والروح، وفي هذا يشترك الدعاة مع غيرهم من المسلمين وافهم الصلاة اليومية
للمسلمين
عموما، كما افهم الصوم.. وغيره. في هذا الإطار، ولكن كلما تلح على الذهن صلاة
الليل.. والاعتكاف يقترن ذلك بذكر الدعاة.. وتشكل في نفسي إنطباعا انهما شرعا في
الاسلام لهم، ولهم فقط وان كان لهما صورة تشريعية عامة تشملهم، وتشمل غيرهم.
الوحدة مع الله.. العزلة الموقتة، مراجعة الذات مع الله.. أحوج ما يحتاج إليها
الداعية.. ليكون داعية لله.. ولله ومن الله.. ليحكي لربه

شيئا من أتعابه في سبيله.. ليحاسب نفسه امامه عن أخطائه. ليستزيده، ويستهديه ليخلص
له نيته من كل ما يشوب نيات العاملين في العبادة ويداخلها من حب الظهور، والرغبة في التوافق مع الأجواء الخاصة، ليقول له يا رب. هذا جهدي، ومستطاعي، ومنك العون وبك
الاعتصام من كل المغريات، والضغوط والمكاره، والأتعاب.
اعداد الرسول (ص) وأصحابه من خلال قيام
الليل
يحفل القرآن الكريم بالآيات النازلة من اجل اعداد الرسول (ص)، وتوجيهه لتحمل أعباء
المسيرة، وطريق ذات الشوكة.. وقد عرفنا – فيما مر – ان الرسول (ص) مر بثلاث فترات
للاعداد..
(١) – الاعداد ما قبل النبوة من اجل تلقي الكلمة.. والوصول إلى مستوى تلقي الوحي..
(٢) – الاعداد ما بعد الوحي.. من اجل تحمل العبء الثقيل والقول الثقيل في الدعوة، والتبليغ، والمواجهة..
(٣) – اعداده (ص) على استمرار خطه الجهادي.. إلى أن توفاه الله تعالى.. ورفعه إليه،
ولكل مرحلة من هذه المراحل طابعها، وأسبابها.
المهم الآن.. ان المرحلة الثانية من الاعداد الروحي كانت الاعداد لتحمل القول الثقيل، وتحمل أعباء مسيرة الدعوة.. وهي التي تنزل من اجلها قوله تعالى:

(يا أيها المزمل قم الليل الا قليلا نصفه، أو انقص منه قليلا أو زد عليه ورتل القرآن ترتيلا)
وكان الزاد فيها، ومادة العمل قيام الليل، وتلاوة القرآن. بالليل.. ان قيام الليل والناس نيام والانقطاع عن غبش الحياة اليومية، وسفاسفها والاتصال بالله وتلقي فيضه، ونوره، والانس بالوحدة معه والخلوة إليه، وترتيل القرآن، والكون ساكن كأنما يتنزل من الملأ الأعلى، وتتجاوب معه ارجاء الوجود في لحظة الترتيل بلا لفظ بشري، ولا عبارة، واستقبال اشعاعاته وايحاءاته، وايقاعاته في الليل الساجي.. ان هذا كله هو الزاد لاحتمال القول الثقيل والعبء الباهض، والجهد المرير الذي ينتظر الرسول، وينتظر من يدعو بهذه الدعوة في كل جيل، وينير القلب في الطريق الشاق الطويل.. ويعصمه من وسوسة الشيطان، ومن التيه في الظلمات الحافة بهذا الطريق المنير. (٤)
وما كان من الرسول (ص)، وصحبه الا ان امتثلوا، فقاموا الليل كما أمرهم الله، نصفه، أو ثلثه، أو ثلثيه إلى سنة كاملة أو أكثر حتى تورمت اقدامهم، وانتفخت ثم خفف الله عنهم بعد انتهاء فترة الاعداد.. كما تقول بعض الروايات.
(٢) - ذكر الله كثيرا
لذكر الله معنيان:

١) – الذكر الذهني: وهو المعايشة الشعورية، والذهنية لعقيدة الايمان بالله تعالى، وهذا هو الأصل في الذكر. وقد عرفنا فيما سبق، ان الذكر عنصر ضروري من عناصر الجانب
الروحي من شخصية الانسان المسلم.
٢) – الذكر اللفظي: وهو ذكر الله تعالى باللسان كتسبيحه، وتحميده، واستغفاره، وتهليله، وتكبيره، وما شاكل ذلك. وقد ورد الحث الشديد عليه، باعتباره وسيلة من وسائل التربية والمعايشة الشعورية، والذكر اللفظي لله هو ما حوى أصواتا دالة على التعظيم، والتقديس له.. وانما يستمد قيمته من كونه (وسيلة) لغاية ذات قيمة في نفسها. وهي ذكر الله ذكرا ذهنيا اما مثل الصلاة، والصوم كحركات، وامساك مجردة لا
قيمة لها، الا ان الالتزام بها انما هو باعتبار دورها التربوي، أي باعتباره انتهاء عن الفحشاء والمنكر، وعروجا إلى الله، وخلق حالة التقوى، والصوم من تلك المحارم.
عن أبي عبد الله (ع):
(شيعتنا الذين إذا خلوا ذكروا الله كثيرا) (٥)
وعنه (ع) قال رسول الله (ص):
(من أكثر من ذكر الله عز وجل أحبه الله، ومن ذكر الله كثيرا كتبت له براءتان، براءة من النار، وبراءة من النفاق) (٦)

وعن أمير المؤمنين (ع):
(من ذكر الله عز وجل في السر فقد ذكر الله كثيرا إن المنافقين كانوا يذكرون الله علانية، ولا يذكرونه في السر)
فقال الله عز وجل:
(يراؤون الناس، ولا يذكرون الله الا قليلا) (٧)
وفي حديث عن الصادق (ع):
(الذاكر لله عز وجل في الغافلين، كالمقاتل في المحاربين) (٨)
ويلاحظ في هذه النصوص، التأكيد على الطابع السري للذكر، وذلك للتخلص من شوائب
الرياء، ودواعي السمعة والذكر الحسن بين الناس، وتثبيتا للعلاقة بالله تعالى..
صورتان تربويتان
١) - عن الصادق (ع):
(وكان أبي كثير الذكر، لقد كنت أمشي معه وانه ليذكر الله، وآكل معه الطعام،

وانه ليذكر الله، ولقد كان يحدث القوم، وما يشغله ذلك عن ذكر الله، وكنت أرى لسانه
لازقا بحنكه يقول: (لا إله إلا الله) وكان يجمعنا فيأمرنا بالذكر حتى تطلع الشمس. ويأمر بالقراءة من كان يقرأ منا، ومن كان لا يقرأ منا امره بالذكر) (٩)

٢) - عن أبي أسامة قال: زاملت أبا عبد الله (ع) قال: قال لي: اقرأ فافتتحت سورة من القرآن فقرأتها، فرق وبكى. ثم قال:
(يا أبا أسامة أوعوا قلوبكم ذكر الله عز وجل واحذروا النكت، فإنه يأتي على القلب تارات، أو ساعات الشك من صباح ليس فيه ايمان، ولا كفر، شبه الخرقة البالية، أو العظم النخر، يا أبا أسامة الست وما تفقدت قلبك، فلا تذكر به خيرا، ولا شرا، ولا تدري أين هو؟ قال: قلت له: بلى انه ليصيبني وأراه يصيب الناس. قال: اجل ليس يغري منه أحد، قال: فإذا كان ذلك فاذكروا الله عز وجل واحذروا النكت فإنه إذا أراد بعبد خيرا نكت ايمانا وإذا أراد به غير ذلك نكت غير ذلك) (١٠)

(٣) - تلاوة القرآن الكريم التدبر فيه
(روى الحارث الهمداني قال دخلت المسجد فإذا الناس يخوضون في أحاديث، فدخلت على علي
فقلت الا ترى ان أناسا يخوضون في الأحاديث في المسجد؟ فقال: قد فعلوها؟ قلت: نعم قال: اما اني سمعت رسول الله (ص) يقول: ستكون فتن. قلت: وما المخرج منها؟ قال: كتاب الله، كتاب الله فيه نبأ ما قبلكم، وخبر ما بعدكم، وحكم ما بينكم، هو الفصل ليس بالهزل. هو الذي من تركه من جبار، قصمه الله، ومن ابتغى الهدى في غيره
أضله الله. فهو حبل الله المتين وهو الذكر الحكيم.. وهو الصراط المستقيم.. وهو الذي
لا تزيغ به الأهواء، ولا تلتبس به الألسنة، ولا يشبع منه العلماء ولا يخلق عن كثرة الرد ولا تنقضي عجائبه. وهو الذي لم ينته الجن إذ سمعته، ان قالوا: انا سمعنا قرآنا عجبا. هو الذي من قال به صدق، ومن حكم به عدل، ومن علم به اجر ومن دعا إليه
هدي إلى صراط المستقيم. خذها إليك يا أعور). (١١)
وعن أمير المؤمنين (ع):
(ثم انزل عليه الكتاب نورا لا تطفأ مصابيحه، وسراجا لا يخبو توقده، وبحرا لا يدرك قعره، ومنهاجا لا يضل نهجه، وشعاعا لا يظلم ضوؤه، وفرقانا لا يخمد برهانه، وبنيانا لا تهدم أركانه وشفاء لا تخشى أسقامه، وعزا لا تهزم أنصاره، وحقا

لا تخذل أعوانه، فهو معدن الايمان، وبحبوحته، وينابيع العلم وبحوره.. جعله الله ريا لعطش العلماء، وربيعا لقلوب الفقهاء، وفجاجا لطرق الصلحاء ودواء ليس بعده داء، ونورا ليس معه ظلمة، وحبلا وثيقا عروته، ومعقلا منيعا ذروته، وعزا لمن تولاه، وسلما لمن دخله، وهدى لمن ائتم به وعذرا لمن انتحله) (١٢)

١) - الصفة الأولى للقرآن الكريم انه كتاب الله تعالى.. الذي أنزله على قلب رسوله الكريم.. وليس على وجه الدنيا كتاب لله.. صانه الله تعالى من يد الاثم والتحريف كهذا الكتاب. وليس على وجه الدنيا كتاب.. تطمئن إلى أنه سليم.. فكرة فكرة.. وكلمة

.. وعبارة عبارة كهذا الكتاب.. وليس على وجه الدنيا كتاب تشعر وأنت تقرأ فيه بحنان

الله وعطف الله وتكريم الله لهذا الانسان كهذا الكتاب.

٢) - والصفة الثانية للقرآن الكريم.. انه كتاب الله النازل لهداية الناس، وتعبيدهم الطريق.. فهو ليس كتاب ملغز، نزل من اجل ان يحار فيه العلماء، وأهل التحقيق والتدقيق!! ولم ينزل لفئة خاصة، بحيث لا يفهمه الا من خوطب به، - انما هو كتاب الله للناس يستقي منه الانسان - أي انسان بمقدار ما يقربه روحيا من الله تعالى، ويتبع النهج السليم في البحث والتدبر والتفكير..

(هذا بصائر للناس، وهدى، ورحمة لقوم يوقنون)
(قل انما اتبع ما يوحى إلي من ربي، هذا بصائر من ربكم وهدى، ورحمة لقوم يؤمنون، وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له، وانصتوا لعلكم ترحمون)
ومن صفة الربانية وصفة (الهداية والتبصير) تنبع كل الصفات الأخرى التي تعرف عن القرآن الكريم.

القرآن الأساس الفكري والروحي

والقرآن الكريم هو المنبع الثقافي والروحي للانسان المسلم.. منه يأخذ تصوره عن الله تعالى، وعن الوجود، والحياة، والمجتمع، والناس.. ومنه يأخذ معالم التشريع الإلهي لهذا الانسان على هذه الأرض.. ومنه يتعرف على أهداف الله في الخلق، وأغراضه من هذا
الخلق والحياة..
والقرآن الكريم سند روحي أيضا، يتصاعد الانسان في تلاوته لأنه يلتقي بالله تعالى، وهو يتحدث إليه، ويتحبب إليه، ويحنو عليه، - وفيه يشعر هذا الكائن الضعيف بالحنان الإلهي ودفء التكريم لهذا الكائن الفقير، ويعايش الحقائق الوجودية الكبرى، ويذكر الله.. ويتحسس الحياة معنى ومسؤولية، وابتلاء.. فيسمو، ويسمو حتى لكأنه في عالم آخر
من عوالم التكوين..

ويبدأ الانحراف في مسيرة الانسان المسلم عندما يبحث عن زاد آخر غير القرآن، وغير ما
ثبته القرآن الكريم من مقاييس، ويتلقى الثقافة، والفكر، والتربية من تحت منبر آخر غير منبر القرآن الكريم. وقد سجلت رواية الحارث الهمداني بداية الانحراف الحضاري في
المسيرة الاسلامية عندما بدأ الناس في عهد علي (ع) يخوضون في المسجد بالأحاديث، لا
اعرف الآن هذه الأحاديث بالضبط.. ولكنها تؤشر بداية مرحلة العقل، وتوديع مرحلة الروح، ومرحلة القرآن الكريم. وهكذا (فعلوها) واستمر المسلمون في الانحراف.. وتصدى
أهل البيت (ع) لهذا الانحراف عن طريق بناء أجيال قرآنية (تعي) قيمة هذا القرآن.. كما (تفهمها) وتبني سلوكها، وفكرها في ضوء هذا الوعي والشعور..
و (التلقي) من القرآن الكريم.. هو المعنى الأساس الذي انحرفت به الثقافة الغربية في الماضي، وفي الحاضر. فسواء في الماضي، أو في الحاضر بدأنا نتلقى من مصادر أخرى غير
القرآن.. وبدأنا إذا التقينا بالقرآن الكريم نحكم عليه ونؤوله، ونجره إلى ما نريد من أهواء جرا. ومع أنه كان في التقدير الإلهي ولا يزال (حاكما) و (مهيمنا) وسلطانا على كل المقاييس الفكرية والثقافية..
ونحن على الدوام ظلمنا أنفسنا.. ولا أقول القرآن.. عندما ودعناه وعندما حكمنا عليه مرة (الروايات) (١٣) باعتباره انه كتاب الغاز، واحاجي لا يفهمه الا من خوطب به، ومرة
(الثقافات) لأنها احكام العقول، واحكام العقول مقدمة على ظواهر النصوص والتي هي قواعد الصرف، والنحو الجامدة وغيرها.. كل ذلك، والقرآن لا زال ربيعا لقلوب

المؤمنين تسامى به الدهر، منار هدى، وسبيل نجاة، وبصائر للناس وذكرى للعالمين..
وأداء حق القرآن علينا لا يتم الا من خلال:
(١) - احلاله الموقع النفسي والشعوري الذي يتناسب معه بوصفه الكتاب الرباني الوحيد
في الناس..
(٢) - تحكيمه في كل شؤوننا الثقافية، والفكرية، والصدور عنه، والتلقي منه بلا تدخل أو تأويل..
(٣) - معايشته المستمرة في التأمل، والتدبر والتلاوة والحفظ..
تلاوة القرآن الكريم
١) - عن الصادق (ع) قال رسول الله (ص):
(ان أهل القرآن في أعلى درجة من الآدميين، ما خلا النبيين، والمرسلين فلا تستضعفوا أهل القرآن حقوقهم فان لهم من الله العزيز الجبار مكانة عليا)
٢) - وعنه (ع):
(من قرأ القرآن، وهو شاب مؤمن اختلط القرآن بلحمه، ودمه، وجعله الله عز وجل

مع السفرة الكرام البررة. وكان القرآن حجيزا عنه يوم القيامة)
٣) وعنه (ع) قال:
(القرآن عهد الله إلى خلقه فقد ينبغي للمرء المسلم ان ينظر في عهده، وان يقرأ منه في كل يوم خمسين آية)
٤) وعنه (ع):
(يدعى ابن آدم المؤمن للحساب فيتقدم القرآن امامه في أحسن صورة، فيقول: يا رب انا
القرآن، وهذا عبدك المؤمن، قد كان يتعب نفسه بتلاوتي ويطيل ليله بترتيلي، وتفيض عيناه إذا تهجد، فارضه كما أرضاني. قال فيقول العزيز الجبار: عبدي ابسط يمينك فاملأها من رضوان الله، واملأ شمالك من رحمة الله ثم يقول: هذه الجنة مباحة لك، فاقرأ، واصعد، فإذا قد قرأ آية صعد درجة)
إلى آخر النصوص الكثيرة الواردة في الحث على النظر إلى عهد الله وقد وردت أيضا نصوص أخرى في أدب التلاوة.. أهمها التفكر، والتدبر، والخشوع، والاستفادة، والترتيل
والحزن..

واما مقدار القراءة فليس له في النصوص تحديد حدي معين. وكذلك لم يكن في سلوكهم ما
يشير إلى حد مقدار قراءتهم.. وانما قراءة القرآن امر مستحب في ذاته.. والاكثار منه مستحب مهما بلغ من الكثرة.. ولكن بشرطين:
(١) - ان لا تزاحم تلاوة القرآن الكريم أمرا أهم.
(٢) - ان لا تكون كثرة القراءة على حساب التأمل والتدبر..
ولعل من أهم اشكال أداء حق القرآن الكريم، ومعايشته والارتباط به هو ان يحاول الانسان المسلم البحث في القرآن الكريم.. من تفسير بعض السور، والكتابة في بعض الموضوعات القرآنية التي يستقصي فيها جميع ما ورد من آيات في ذلك الموضوع، أو الكتابة عن تاريخه، وعلومه.. الخ فان هذا يزيدنا بصيرة أكثر في الطريق إلى فهم القرآن الكريم، ومعايشته ومن خلال القراءة، والبحث، وحفظ الكثير من آيات القرآن.. يكون - وما أروع ان يكون - القرآن سليقة للمؤمن، وذوقا له..
(٤) - الأجواء الايمانية
وللأجواء تأثير كبير في التربية الروحية - وكل تربية - فعلى الانسان المسلم ان يقصد الأجواء الايمانية لكي يتأثر بها، ويستزيد.
ان المسجد من أهم الأجواء الايمانية.. وكذلك المشاهد المشرفة..
ومن الطبيعي ان الانسان عندما يدخل مكانا مخصصا أو زمانا مخصصا

لشئ يكون أكثر تهيؤا من الناحية النفسية لأداء ذلك النشاط.. والمكتبة مثلا – لما كانت مكانا للمطالعة – يكون الانسان فيها أكثر توجها واستعدادا للمطالعة والدرس.. والمسجد.. وهو المكان المخصص للعبادة.. يكون الانسان فيه أكثر تهيؤا للعبادة واستعدادا للتعامل مع الله تعالى.. بما يملكه من ايحاء وتأثير في النفس، وقدرة على التأثر من خلال المجتمع للصلاة.. وبسبب هذا وغيره حثت النصوص الاسلامية

على ارتياد المساجد، والصلاة فيها، وعمارتها بالصلاة، والعبادة.

ومن هنا جاء عن الإمام علي (ع):

(من اختلف إلى المسجد أصاب إحدى ثمان: أخا مستفادا في الله، أو علما مستطرقا، أو آية محكمة، أو يسمع كلمة تدل على هدى، أو رحمة منتظرة، أو كلمة ترده عن ردى، أو

يترك ذنبا خشية أو رجاء) (١٤)

ومثل المساجد، والمشاهد المشرفة التي يتذكر فيها الانسان المؤمن الرجال الصالحين الذين زرعوا ربيع الهدى في النفوس، وفجروا الأرض ينابيع من دم.. وعلما غزيرا وتربية معصومة.. غيرت الأجيال اللاحقة بزاد الايمان والهدى، والصلاح.

كانت الزيارات يوما في عهد الأئمة (ع) مواصلة للثورة التي قام بها الإمام الحسين (ع)، أو القضية التي حملها أبناؤه وآباؤه الطاهرون..

واصرارا على الاستمرار على النهج، وعلى الولاء للحق.. كانت (الزيارات) بيعا وشراء للأنفس، والأموال في سبيل الله تعالى.. وكانت تظاهرة وتعظيما لشعائر الله في الأرض.. واستهداء بمصابيح الهدى الزاهرة في ليل الانحراف الداجي.. والأيام الصعبة السوداء.. فليس - على هذا - من عجب أن رأينا زيارة سيد الشهداء (ع) تفضل في النصوص
على الكثير من الأعمال والمستحبات الخطيرة. هذا مضافا إلى ما ورد عن أبي الحسن الرضا (ع):
(ان لكل امام عهدا في عنق أوليائه، وشيعته، وان من تمام الوفاء بالتعهد، زيارة قبورهم، فمن زارهم رغبة في زيارتهم، وتصديقا بما رغبوا فيه كانوا أئمتهم شفعاءهم يوم القيامة)
١) - عن أبي عبد الله (ع):
(ان زيارة قبر الرسول (ص) وزيارة قبور الشهداء، وزيارة قبر الحسين صلوات الله عليه، تعدل حجة مع رسول الله (ص)
٢) - (عن عمران بن عبد الله بن طلحة الهندي عن أبيه قال: دخلت على أبي عبد الله قال: يا عبد الله بن طلحة ما تزور قبر أبي الحسين. قلت: بلى إنا لنأتيه. قال:
أتأتونه في كل جمعة؟ قلت لا، قال أفتأتونه في كل شهر؟ قلت: لا، فقال: ما أجفاكم، ان زيارته تعدل حجة وعمرة).

٣) – وعن أبي الحسن موسى (ع):
(أدنى ما يثاب به زائر أبي عبد الله (ع) بشط الفرات إذا عرف حقه، وحرمته وولايته، ان يغفر له ما تقدم من ذنبه، وما تأخر)
٤) – من وصايا أبي جعفر (ع) لأصحابه – كما عن محمد بن مسلم:
(مروا شيعتنا بزيارة الحسين (ع)، فان اتيانه يزيد في الرزق، ويمد في العمر، ويدفع مدافع السوء، واتيانه مفترض على كل مؤمن يقر به بالإمامة من الله)
٥) – علي بن ميمون الصائغ قال: قال لي أبو عبد الله (ع):
(يا علي بلغني ان أناسا من شيعتنا تمر بهم السنة، والسنتان، وأكثر من ذلك لا يزورون الحسين بن علي قلت: اني لأعرف أناسا كثيرا بهذه الصفة. فقال: اما والله لحظهم أخطأوا، وعن ثواب الله زاغوا، وعن جوار محمد (ص) في الجنة تباعدوا) (١٥)
ونلاحظ من خلال بعض هذه النصوص: ان من أهداف الأئمة (ع)

ان يخلقوا تيارا اجتماعيا لزيارة الإمام الحسين (ع).. وكان هذا مرتبطا بأهداف الثورة ونجاحها.
ونلاحظ أيضا ان زيارة المشاهد ليست فقط محاولة لخلق جو ايماني.. وانما هي أيضا استشعار لوجود القدوة.. وتمثل معانيها الخيرة في الفكر، والروح، والسلوك، وفي العطاء والجهاد؟ تأكيدا للشعور بالائتمام والاقتداء..
الأخ الصالح في الله
ومما ينبغي على المؤمن - في مجال التربية الروحية - اتخاذ الأخ الصالح في الله.. والاخوة الصلحاء.. فان للاخوة والقرناء التأثير البالغ على شخصية الانسان، لأنهم أكثر ما في البيئة الاجتماعية تأثيرا عليه، واثرا في شخصيته.. وقد سجل القرآن الكريم ان بعض الناس دخلوا إلى النار بسبب قرناء السوء.. وبعض كادوا ان يدخلوها..
وعن الرسول (ص):
(المرء على دين خليله، وقرينه) (١٦)
والتعاشر بين المؤمنين، ولقاؤهم، وعلاقتهم الشخصية له دور كبير في استمرار الروح الايمانية عندهم، وتنميتها وتحصينهم من الانحراف، والتحلل، والتميع، وتركيز القيم الايمانية في نفوسهم فهي - باي مستوى كانت من الجدية والهدفية - مثمرة ومنتجة. وأفضل بكثير من العزلة والانطواء على الذات.. ان الانطواء، والعزلة عند أكثر الناس سبب لانحرافهم تماما مثل معاشرة الأشرار..

وهكذا ينبغي على المؤمن:
(١) - التخلص من العلاقة بقرناء السوء إذ:
(لا ينبغي للمسلم ان يواخي الفاجر فإنه يزين له فعله، ويحب ان يكون مثله، ولا يعينه على امر دنياه ولا امر معاده.. ومدخله إليه ومخرجه من عنده شين عليه)
كما ورد عن أمير المؤمنين. (١٧)
ولكن إذا كان يضمن عدم التأثر به ويحتمل التأثير عليه فلا بأس بمصاحبته من اجل هدايته، واصلاحه، وفي ذلك ثواب عظيم.
(يا علي لان يهدين الله بك رجلا خير لك مما طلعت عليه الشمس وما غربت)
(٢) - عدم العزلة والانقباض عن الناس خصوصا عن المؤمنين لما للعزلة من اخطار كثيرة، وكبيرة على شخصية الانسان.. وان كانت العزلة الموقتة الدورية أمرا ضروريا في حياة المؤمن كما سيأتي إن شاء الله تعالى. ولذا ورد عنهم (ع): الحث على التزاور والتعاطف.
(اتقوا الله كثيرا، وكونوا اخوة بررة، متحابين في الله، متواصلين متراحمين، تزاوروا، وتلاقوا، وتذكروا أمرنا، وأحيوه)

(تواصوا، وتباروا، وتراحموا، وكونوا اخوة بررة، كما امركم الله عز وجل)
وعن خثيمة قال: دخلت على أبي جعفر (ع) أودعه فقال:
(يا خثيمة أبلغ من ترى من موالينا السلام، وأوصهم بتقوى الله العظيم، وان يعود غنيهم على فقيرهم، وقويهم على ضعيفهم.. وان يشهد حيهم جنازة ميتهم، وأن يتلاقوا في
بيوتهم، فان لقيا بعضهم بعضا حياة لأمرنا. رحم الله عبدا أحيى أمرنا، يا خثيمة: أبلغ موالينا انا لا نغني عنهم شيئا الا بعمل، وانهم لن ينالوا ولايتنا الا بالورع، وان أشد الناس حسرة يوم القيامة من وصف عدلا ثم خالفه إلى غيره)
وعن أمير المؤمنين (ع):
(لقاء الاخوان مغنم جسيم وان قلوا)
وعن أبي عبد الله (ع):
(تزاوروا فان في زيارتكم احياء لقلوبكم وذكرا لأحاديثنا، وأحاديثنا تعطف

بعضكم على بعض)
وعن ميسر عن أبي جعفر (ع) قال لي:
(أتخلون، وتتحدثون، وتقولون ما شئتم؟ فقلت: اي والله، انا لنخلو ونتحدث، ونقول ما
شئنا. فقال: اما والله لوددت اني معكم في تلك المواطن، اما والله اني لأحب ريحكم وأرواحكم، وانكم على دين الله، ودين ملائكته، فأعينوا بورع واجتهاد) (١٨)
(٣) - وليس يكفي قطع العلاقة مع الأشرار، وقرناء السوء وتكوين العلاقات الوثيقة بالمؤمنين. وانما يلزم كل مؤمن - من اجل تكوين الجو الايماني - ان ينمي من جدية العلاقة لا بمعنى اخلائها من كل مضمون عاطفي، وصلات شخصية، بل بمعنى اثرائها، والاستفادة الرسالية منها.. لان هذا هدف رئيس من أهداف تمتين العلاقة، وتوثيقها بالمؤمنين..
الأزمنة الخاصة للعبادة والتربية
وكما امر الاسلام باتخاذ (أمكنة) خاصة للتربية والعبادة كذلك ركز في الشعور الديني عند المسلمين (أزمنة معينة) خصصها للتربية، والعبادة من قبيل الشهر العظيم، شهر رمضان المبارك، شهر الله الذي يستضيف فيه المؤمنين ويستمطرون بركاته، وهداه، وغفرانه، ورحمته..

هذا الشهر الحافل بالعطاء، والممارسات العبادية التي يعز على الانسان المؤمن ان تفوته حتى لو كان يمارس أعمالا أخرى أهم والزم..
هذا الشهر الذي فيه كثرة، وتركيزا في الصلاة، وكثرة وتركيزا في الدعاء، والتوجه إلى الله تعالى.. واحتفالا عاما في مشاعر الناس، وشعاراتهم.. الشهر الملئ بالخيرات، والملئ بالمناسبات الدينية العظيمة.
لقد شاء الله تعالى في تربيته لعباده.. ان يوجد إلى جانب الخط الدائم في التربية.. خط الصلاة اليومية والذكر المستمر خطا آخر دوريا يتمثل في أوقات معينة يستعد فيها المؤمنون إلى نشاطات عبادية أكبر.
دورة أسبوعية تمثله في يوم الجمعة المباركة من حيث ما فيه من أدعية، وزيارات، وتوجيهات، ودورة سنوية متمثلة في شهر رمضان المبارك، الذي يتم الاعداد الروحي له في
شهر رجب، وشعبان، والشهرين العظيمين في الشهور.. ودورة حياتية متمثلة في الحج قابلة
للاستزادة في كل حين.. ودورة في أيام معدودات متمثلة في الاعتكاف الذي يمكن أداؤه
في أي وقت تقريبا وفي هذه الدورات ينتفي مضعف الألفة الذي نجده في الصلاة اليومية،
ويعيش المؤمن العبادة غضة طرية في أيام قليلة من العمر..
(٥) - الثقافة الايمانية
الثقافة هي - في واحد من مداليلها المتعددة، نقصده هنا بالذات - هي الرؤى الفكرية التي تؤثر في عواطف الانسان وسلوكه، وقيمه،

وطريقته في الحياة.
والثقافة الايمانية، هي بصائر، وهدى، وأفكار تقرب من الله وتسهل الطريق على من يريد
ان يتكامل في هذا الطريق.
ليست الأفكار مقطوعة الصلة بالحياة العاطفية والسلوكية للانسان، بل لها أكبر الأثر فيها، وتؤثر، وتتأثر بها. ويتكاملان، كما يقتضي ذلك منطق القرآن الكريم.
(كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون) (١٩)
(لأنتم أشد رهبة في صدورهم من الله. ذلك بأنهم قوم لا يفقهون) (٢٠)..
وعلى أساس هذا المنطق القرآني ففي الثقافات ما يقرب إلى الله ومنها ما يبعد عنه: الدافع إلى الله الذي يفتح للانسان عينه، ويبصره نقاط ضعفه، وسبيل نموه، وأساسيات حياته الدينية، ومنها الحاجز الذي يحول بين الروح الانسانية، وبين الانطلاق في طريق التحرر الذاتي والتكامل الوجداني وعبادة الله.
والثقافة الايمانية التي تقرب إلى الله تعالى.. تتألف من عنصرين:
١) – المنهج الاسلامي في التفكير الذي ينظر إلى الأشياء بالطريقة القرآنية، أو المنطق الاسلامي الخاص، الصدور عن القرآن الكريم،

التلقي من الله تعالى، والانفتاح على كلماته التعامل الفكري مع الغيب، لا الغيبية الميتة، بل التعقل الذي يأخذ فيه الدين موقعا مركزيا، سواء في الشعور، أم في الالتزام.. والمعايشة الفكرية الكثيرة، للفكر الغربي والاتجاهات المادية، وعدم الاهتمام الثقافي بالقرآن الكريم والسنة، والتأريخ الخاص يؤثر بشكل واضح على طريقة المؤمن في التفكير، وكيفية تناوله للأمور، ويبدو له الدين من خلال ذلك اتجاها بين الاتجاهات.. وطريقة من الطرق يدافع عنها ولكن منهكا مرهقا.

٢) - الأفكار والمعلومات الايمانية في مجال العبادة والأخلاق، والسيرة والقرآن الكريم، والنفس البشرية والعلاقات مع الناس، وغير ذلك مما تتشكل المعرفة فيه اعدادا فكريا، للتربية الروحية، وتكوين الأحاسيس، والمشاعر الايمانية، وبناء السلوك الديني المستقيم، وقد تعيش مع الكثير من المؤمنين، يستهينون بالاعمال العبادية، فلا يرونها مهمة انما المهم عندهم الفكر، والعمل الفكري، والاهتمام بأمور الناس، وهؤلاء لا يفتقرون إلى قلب سليم، أو نية حسنة أو روح دينية، وانما يفتقرون إلى رؤية سليمة فقط من الممكن ان تتوضح لهم بسهولة.. فيفتح لهم ذلك الطريق

إلى الله.. والنمو الروحي والوجداني.

ان الأفكار والثقافة التي تتصل بالقرآن الكريم، وكلمات الرسول (ص) وأهل بيته وسيرته

تصحح الكثير من الأفكار الخاطئة عن التربية الروحية، وعن الاسلام بشكل عام، وتصدر

بالانسان المسلم من منبع ثقافي أصيل، وتخلق له إطارا ذهنيا، وشعوريا يتعامل معه.. وداخله، وهو إطار يفترض المبادئ الدينية، ويجعل من المؤمن يتعامل مع الأفكار

من خلالها، وليس على حسابها. وهي أيضا معايشة، ولقاء مستمر مع الله تعالى، ومع القادة الميامين الأطهار (ع).
ومن الممكن هنا ان نسجل بعض الكتب في المجال الأخلاقي والتربوي نرى من الضروري
للانسان المؤمن ان يتدارسها، ويتعامل معها باستمرار:
١) - أصول الكافي لثقة الاسلام الكليني المتوفى في النصف الأول من القرن الرابع الهجري، والجزء الثاني منه بالخصوص وهو يشتمل على كتاب الايمان، والكفر، كتاب
الدعاء، كتاب فضل القرآن، كتاب العشرة.
٢) - وسائل الشيعة للحر العاملي، فان فيه مجموعة كبيرة مفيدة من هذه الناحية.. منها : - كتاب جهاد النفس.. المذكور في كتاب الجهاد، وكتاب أبواب العشرة.. في كتاب الحج،
كتاب جامع السعادات للنراقي، وهو كتاب أخلاقي اسلامي.. وهو على العموم كتاب نافع
جليل، ومؤثر أريد به ان يكون ردا على الانحراف الصوفي والتحلل الديني في آن واحد،
ولا يضر في الاستفادة من هذا الكتاب عدم ضبط رواياته، أو تأثره بالفلسفة الإغريقية وروحه الفردية أحيانا. لأنه كما قلنا نافع على العموم.. ومأمون الجانب في هذا المجال.
ومن الكتب النافعة وفي هذا المجال.. مجال الفكر الايماني كتاب فلسفة الصلاة، ومكة
في ضمير المسلم للشيخ علي الكوراني، وتذكرة الدعاء للبهي الخولي، والكتاب المسيحي،
دائرة المعارف السيكولوجية المترجم في

جزئين من قبل عبد اللطيف شرارة، وبعض آخر فإنه كتاب نفسي عملي ومفيد..
(٦) - مخالفة الأهواء - الصوم
ان كل مؤمن له أهواؤه - قلت أو كثرة وهي قد تتعلق بالمال، الأكل والشرب، الجاه والمركز، التحكم والسيطرة على الآخرين، الخ. والهدف النهائي الذي يطمح إليه المؤمن
هو الغاء هذه الأهواء من نفسه، وتطهير مشاعره، ووجدانه ودوافعه منها تطهيرا كاملا.
اما المهمة الآنية والملحة، فهي اضعاف تأثير هذه الأهواء على السلوك، والتحكم فيها، وعدم السماح لها بالسيطرة على النفس، بل عدم السماح لها بالنفوذ بأي شكل من الاشكال.. وبكلمة أخرى: ان المهمة الآنية للانسان المؤمن هي تأمين سيطرة الإرادة الربانية على النشاط، والسلوك بحيث تكون مقدمة على الأهواء، والميول الذاتية في النفس..
والتحكم في الأهواء، والغاؤها نهائيا من صفحة النفس والشعور ينتج من مجموعة عوامل
أهمها أو من أهمها.. مخالفة الهوى..
(واما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فان الجنة هي المأوى)
وذلك لان كل عاطفة، أو انفعال أو هوى، يضعف إذا لم تنفذ مطالبه، ولم يلب ما تقتضيه
من تصرفات..

وبكلمة أخرى: توجد لدينا حقيقتان ثابتتان:
١) - ان لكل عاطفة، أو هوى، أو انفعال تصرفا يقتضيه وينتهي إليه، فحب المال ينتهي إلى الحفاظ عليه، وعدم التصدق به وحب المركز يقتضي من الانسان أن يحاول الظهور امام
الناس في المجالات الفكرية، أو الخطابية أو الدينية..
٢) - ان الفصل بين الهوى، وبين نتيجته العملية، وعدم تلبية مطالبه اضعاف له، وزعزعة
لسيطرته على النفس، وتحكمه في السلوك، وتقوية للإرادة الربانية (الجهاز الحاكم في الشخصية الاسلامية). والفصل بين الهوى، ونتيجته العملية امر ممكن لان العلاقة بينهما علاقة (الاقتضاء) لا علاقة (اللزوم).
ان مخالفة الأهواء بالنسبة إلى الانسان المؤمن العامل في سبيل الله هي من أهم مهامه الآنية.. لأنه أحوج من غيره إلى الإرادة الحازمة، والقدرة على التحكم في الأهواء ومخالفة النفس.. ان خوف مقام الله تعالى، ومخالفة النفس، والصبر، واليقين هي دعائم
الشخصية الرسالية القيادية، أو من دعائمها المهمة، وقد بين الله تعالى، انه قد جعل من بني إسرائيل أئمة لما صبروا، وكانوا بآياته يوقنون والصبر، هو الإرادة الحازمة ضد ميول النفس، واتجاهاتها الذاتية، ولا يتم تكوين هذه الإرادة الا من خلال مخالفة النفس.
وللاسلام طريقته الخاصة في مخالفة الأهواء.. ان الصوفي لا يهمه ان يخالف هواه عن طريق القاء ماله في البحر.. أو عن طريق سرقة أموال

الناس ليكتشفوه بعد ذلك فيهينوه، وتسقط هيبته من أعينهم فيعاف الظهور، والمركز، أو
عن طريق الوقوف على رأسه إلى الصباح كما ينقل الغزالي ذلك في (احياء علوم الدين) ان
هذه الوسائل محرمة في نظر الاسلام، ولم ينزل الله بها من سلطان، قلنا فيما سبق ان من روائع الاسلام، ومن نعم الله تعالى علينا انه كما حدد لنا الأهداف التربوية كذلك حدد لنا الوسائل ولم يتركنا للتخبط الصوفي، وترهات الغزالي، وأمثاله، أو إلى طريقة التأمل البوذي.. أو غير ذلك من محاولات هذا الكائن الجاهل الضعيف..
امر الاسلام بالتحكم في النفس.. واكد على ضرورة سيطرة الإرادة الربانية ومخالفة الأهواء.. وحدد لنا الطريق.
لا ترم مالك في البحر، ولا تبسط يدك كل البسط فتقعد ملوما مدحورا، ولا تسرف لان
الله لا يحب المسرفين، ولكن أنفق العفو، واد الصدقات المستحبة والواجبة.. والاسلام يعي ان الهدف من الزكاة، والصدقة ليس هو إعانة الفقراء فقط ولكن تطهير الوجدان البشري من حب المال، وتمكنه من القلب.
(خذ من أموالهم صدقة تزكيهم بها وتطهرهم)
ومن هنا فان الاسلام في باب الصدقة أوجب الزكاة.. ولكن من جهة أخرى حث على الصدقة..
وكان هذا الحث بدرجة الاستحباب..

وهذا يعني ان الاسلام يريد من ذلك أن يكون طواعية، واختيارا ليكون اثر قدرة على
التطهير والتزكية.. وحث إلى جانب ذلك أن تكون الصدقة سرا لان صدقة السر أفضل
من
صدقة العلانية.. وأكثر قدرة على تنمية الروح المخلصة والروح المرتبطة بالله.. ومن
هنا كان على المؤمن ان ينفق عفو ماله وفضله، ان يتحسس حاجات إخوانه. وان
يحافظ على
الطابع السري للانفاق قدر الامكان.
ولم يرد الاسلام ان يعيش على مزابل الكلاب ليواجه بذلك أهواءه كما يقول الصوفي..
(لا يكون الصوفي صوفيا حتى يجعل من زوجته أرملة، ومن أولاده أيتاما، ويعيش على
مزابل الكلاب)
وانما امره إلى جانب الصدقة، والانفاق السري ان يصون لسانه من الكذب، والغيبة،
ومن
محاولات الظهور والثرثرة، وأن تكون قاعدته الصمت الا في موارد الحاجة والضرورة،
وان
يتعلم الصوم المستحب.. الذي يكف به عن الشهوة ساعات. شهوة الجنس، وشهوة
الطعام
والشراب.. والصوم المستحب من أروع العبادات الاسلامية التي تربط الانسان بالله
تعالى، وتنمي الإرادة، وتصعد من ملكة الصبر.. ومن أهم مجالات الصوم المستحب،
صوم
ثلاثة أيام في الشهر.. (أول خميس من الشهر، وآخر خميس، والأربعاء الوسطى) وقد
ورد
الحث الشديد على ذلك في النصوص.. وهو من القدرات الروحية التي إن كانت
مستحبة على

الانسان المسلم من زاوية شرعية، فهي الزامية على الداعية من ناحية المنطق الأخلاقي، والروحية الاسلامية.. لان الداعية يلزمه ان يعد نفسه لتحمل القول الثقيل، والسير في طريق ذات الشوكة، وان يعاني مرارة الاستقامة في خضم العمل الاجتماعي، وكل هذا لا
يتم الا من خلال التربية، والاعداد الروحي القائم على هذا، وأمثاله.. ومن عناصر الداعية المسلم في هذا الميدان هو ان يتأمل ذاته، ويحسب نشاطاته، ويدرسها.. سيجد ان
بعض التصرفات تقوم على أساس دواعي الهوى ولم يقصد الله فيها، ولم يذكره أصلا.. هنا
يجب عليه، أو ينبغي له ان يتوقف موقتا، وان يتأمل قبل الأداء، فان كان تصرفه، وموقفه ضروريا من الناحية الشرعية أقدم عليه، وأداه مثابا مأجورا، وان لم يكن موقفه ضروريا من الناحية الشرعية، والدعوتية تركه، وأهمله.. خاصة في موارد التقييمات، والكلام على الناس، ومواجهتهم..

(٧) – المحاسبة، والنقد الذاتي

١) عن أبي الحسن الماضي (ع) قال:

(ليس منا من لم يحاسب نفسه في كل يوم، فان عمل حسنا استزاد الله، وان عمل سيئا استغفر الله منه وتاب إليه)

٢) – عن أبي ذر (ره) في وصية النبي (ص) انه قال:

(يا أبا ذر حاسب نفسك، قبل ان تحاسب،

فإنه أهون لحسابك غدا، وزن نفسك، قبل ان توزن.. وتجهز للعرض الأكبر يوم تعرض، لا
تخفى على الله خافية.. يا أبا ذر لا يكون الرجل من المتقين حتى يحاسب نفسه أشد من
محاسبة الشريك شريكه فيعلم من أين مطعمه ومن أين مشربه، ومن أين ملبسه، امن حلال أو
من حرام، يا أبا ذر من لم يبال من أين اكتسب المال لم يبال الله من أين أدخله النار)

٣) عن علي (ع) عن النبي (ص) قال:

(أكيس الكيسين من حاسب نفسه، وعمل لما بعد الموت فقال رجل: يا أمير المؤمنين كيف
يحاسب نفسه؟ قال: إذا أصبح ثم امسى رجع إلى نفسه وقال: يا نفسي ان هذا يوم مضى
عليك لا يعود إليك ابدا.. والله يسألك عنه بما أفنيته، فما الذي عملت فيه أذكرت
الله أم حمدته، أقضيت حوائج مؤمن فيه، أنفست عنه كربه أحفظته بعد الموت في مخلفيه
أكففت عن غيبة أخ مؤمن. أعنت مسلما. ما الذي صنعت فيه؟ فيذكر ما كان منه،

فان ذكر انه جرى منه خير حمد الله، وكبره على توفيقه وان ذكر معصية، أو تقصيرا استغفر الله، وعزم على ترك معاودته)
٤) علي بن طاوس روينا في الحديث النبوي المشهور:
(حاسبوا أنفسكم قبل ان تحاسبوا، وزنوها قبل أن توزنوا وتجهزوا للعرض الأكبر) (٢١)
ان البناء الروحي.. وهو تمكين الايمان والإرادة الربانية من النفس في فكرها، ووجدانها، ونشاطها.. لا يتم الا من خلال تقوية الايمان، والوجدان الاسلامية، والإرادة الربانية من جهة.. والوعي الذاتي، ومعرفة حيل النفس، وأساليبها في الدفاع، ونقاط ضعفها من جهة أخرى.. وذلك لان من الممكن ان تعمل الدوافع الذاتية في النفس من
دون ان يشعر بها الانسان. والوعي الذاتي الشامل، ومعرفة النفس يتم من خلال ما يلي:
(١) - دراسة النفس دراسة شاملة.. حيث يقوم المؤمن هنا بملاحظة ذاته من خلال تجربتها
السابقة، وخبرته الطويلة بها. ويدرسها دراسة كاملة.. ويحدد ما فيها من نقاط ضعف، ونقاط قوة.. ويركز ذلك في ذهنه، أو يسجله في مذكراته، وتشمل هذه الدراسة الحالات
كافة، الجانب الثقافي، والجانب الروحي والجانب العلمي.. الخ.
(٢) - يراقب الانسان المؤمن ذاته، ويركز نظره عليها في نشاطها

اليومي.
(٣) - يحاسب ذاته محاسبة دورية يومية، أو أسبوعية، ويدرس في ذلك نشاطاته السابقة ما
قدمه، وما خالف فيه، وما قصر عنه ويحدد ذلك. فيحمد الله، ان هو أطاع الله، وذكره
وتورع عن محارمه، ويتوب عما خالف.. ويعزم على الترك، ويبني نهجا جديدا، وهكذا في
كل دورة.
وليحذر المؤمن أثناء كل ذلك من خداع النفس، ومن غرورها، وعجبها فإنها امارة بالسوء
الا ما رحم الله. مهلكة لصاحبها الا ما وفق.
(٨) - الاعتكاف
عن أبي عبد الله (ع):
(كان رسول الله (ص) إذا كان العشر الأواخر (من رمضان) اعتكف في المسجد وضربت له قبة
من شعر، وشمر المئزر وطوى فراشه)
وعنه (ع) عن آبائه عن رسول الله (ص):
(اعتكاف عشرة في شهر رمضان تعدل حجتين، وعمرتين) (٢٢)
في الاعتكاف عناصر متعددة، وجهات كثيرة تمثل طابعه التربوي المتميز وفيه:

١) – التفرغ للعبادة وذكر الله. فالمؤمن في أيامه العادية يحكم ضرورات الحياة، وضرورات العمل لا يمكن ان يؤدي الكثير من المستحبات العبادية، ولهذا فهو يقتصر على
مقدار قليل معين من العبادات اما الاعتكاف، فهو المكث في المساجد للعبادة.. فيه يتفرغ الانسان المؤمن، ويتنصل موقتا عن الاشغال في الحياة الخاصة، والأعمال الاجتماعية ليؤدي لربه حقه.. ولنفسه حقها.. وهو عليه دورة تربوية ضرورية للانسان المسلم، يستزيد فيها من ذكر الله، ومعايشة تصوراته عن الكون، والحياة، والوجود، ويتذكر فيها أيام الله الخالية فتعيش روحه، وقلبه، بالنشاط العبادي المكثف الجديد على النفس، الذي لم يتضرر بالألفة، وروتين العادة. واقتطاع هذه الأيام المعدودة ضرورة تربوية من اجل الاعداد، والتركيز الروحي.. وهو نظام اختطه الله تعالى في منهجه التربوي لهذا الانسان.

٢) – مخالفة الأهواء.. متمثلة في الصوم إذ (لا اعتكاف الا بصوم) الذي يمثل مخالفة هوى النفس في الأكل والشرب والجماع.. وفي الامتناع عن المراء، والجدال.

٣) – العزلة المؤقتة عن الناس، وإتاحة الفرصة لمراجعة النفس، ومحاسبتها واختبارها.. فأنت في خضم العمل الاجتماعي مملوك لمهماتك الاجتماعية.. وهذا ما يضعف من أصالة
الفعل، وايداع النشاط، ومن مراجعة الذات، وتقييمها وبالتنصل موقتا من العمل الاجتماعي، وسفاسف الحياة الصغيرة، وحتى عن العمل الفكري يتيح للانسان ان يراجع
ذاته، وينظر في عيوبها، ويقيمها تقييما شاملا، ولينطلق بعد ذلك

في مواقفه عن طواعية، واختيار، وتلقائية، واخلاص وليزيد من تثبته الديني، وتركيز علاقته بالله تعالى وانقطاع رجائه، وانشداده إلى الناس، والأشياء، والأهداف المرحلية اليومية.

ومن هنا كان الاعتكاف.. إحدى الضرورات الدورية المهمة للداعية يتخلى فيها عن رداءة
التصرف، ويمحص ذاته من شوائب الرياء والسمعة والانشداد إلى الناس ويتجلى فيها الاخلاص، والتثبت، والتركيز، الديني.. تركيز العلاقة بالله تعالى.. ونشير أخيرا..
إلى أن الاسلام لا يشجع العزلة التامة المستمرة عن الناس فان في هذا أخطارا كبيرة على النفس، وتتنافى مع ما يعده الاسلام للانسان المسلم من أدوار اجتماعية، وعطاء اجتماعي متميز.. ولهذا يؤكد الاسلام في نصوص كثيرة على أن لا يكون الاعتكاف الا في
مسجد جامع تقام فيه الصلاة جماعة.

(٩) - نظرة عامة في الأساليب التربوية (٢٣)

نلاحظ ان أساليب الاسلام في التربية أكثر مما ذكرنا.. ونحن هنا لخصناها بايجاز..

عن علي بن أبي طالب (ع):

(لا خير في العيش الا لرجلين: رجل يزداد في كل يوم خيرا، ورجل يتدارك منيته (سيئته) بالتوبة)

عن أبي عبد الله (ع):

(من استوى يوماه فهو مغبون.. ومن كان آخر يوميه خيرهما فهو مغبوط، ومن كان آخر
يوميه شره فهو ملعون، ومن لم ير الزيادة في نفسه فهو إلى النقصان.. ومن كان إلى النقصان، فالموت خير له من الحياة)

الختام

ان موضوع (الاعداد الروحي) من أهم الموضوعات الاسلامية العاجلة، لأنه الأساس الذي
تقوم عليه التربية الاسلامية للانسان المسلم في كل جيل.. وإذ أنهي هذا البحث بحمد الله فإني أشعر بنواقصه التي أرجو ان تتدارك في المستقبل إن شاء الله.. ان التجربة الروحية شرط أساسي لنجاح مثل هذا البحث، وكذلك الأداء التربوي البليغ والمعاصرة الطويلة.. وكل هذه الشروط مما ينقص هذا البحث.. ولكن أتمنى ان يتناول هذا الموضوع
رجال عرفناهم بتجربتهم الروحية السليمة، وقلمهم الاسلامي المعبر، وهمومهم الاسلامية
وثقافتهم الواسعة.

واسأل الله تعالى في الختام ان يعصمنا من الزلل، وان لا يمقتنا لقول نطقنا به، ولم نفعله، وان لا يجعل أعمارنا مرتعا للشيطان، وان يجعلنا من المعانين، والمجاهدين فيه والمهتدين إلى سبيله.. انه سميع مجيب..

ليلة القدر المباركة ٢٣ / رمضان المبارك / ١٣٩٨ ه

(١) - سورة التوبة / ١١٢

(٢) - سورة الفتح / ٢٨

(٣) - سورة هود / ١١٢ - ١١٥

(٤) - سنن النبي ص ٣٥٦ عن المناقب ومجمع البيان

(٥) - سنن النبي عن البحار ج ٥٣ ص ٣٣٩

(٦) - سنن النبي ص ٣٤

(٧) - سنن النبي ص ٣٤

(٨) - سنن النبي ص ٢٤٠ عن التهذيب ٢ / ٣٣٤ والكافي ٣ / ٤٤٥

(٩) - الأنوار العلوية للشيخ جعفر النقدي

(١٠) - السليم: الملدوغ

(١١) - الأنوار العلوية ٤٠٥ - ٤٠٦

(١٢) - كشف الغمة للأردبيلي ٢ / ٢٩٧

(١٣) - حجارة يسحق عليها الطيب

(١٤) - حلية الأبرار هاشم البحراني ج ٢ ص ١٣

(١٥، ١٦) - نفس المصدر ج ص ٢٤
(١٧) - حلية الأبرار ص ٢ / ١٤
(١٨) - زينب الكبرى للشيخ جعفر النقدي
(١٩) - مثير الأحزان للشريف الجواهري ص ٥٦٠
(٢٠) - زينب الكبرى للشيخ جعفر النقدي ص ٦٣
(٢١) - مثير الأحزان ص ٥٦
(٢٢) - خصائص حياة الامام الخميني ٢٠، ٢١، ٢٢

هوامش الفصل الأول

(١) - البيان في تفسير القرآن ص ٢٦ - ٢٧
(٢) - سورة الحشر / ٨
(٣) - الوسائل أبواب القاضي ب ٨ ص ٣٩
(٤) - الاسراء / ٣٦
(٥) - الزمر / ١٩
(٦) - الانعام / ٣٦
(٧) - مجمع البيان ج ٧ ص ٢٣٥ - ٢٣٦
(٨) - نهج البلاغة نص ٢٠٩
(٩) - امر عظيم له دلالته ما وقع على المستوى الفردي من الامام أمير المؤمنين عندما أهانه عمرو بن عبد ود في معركة الأحزاب وكان (ع) متمكنا منه الا انه اعرض عن قتله
حتى هدأ غضبه وكان منه ذلك عليه السلام حرصا على أصالة الفعل والاخلاص فيه لله تعالى.
(١٠) - أصول الكافي ج ١ ص ٣١
(١١) - أصول الكافي ج ٢ ص ١٦٣
(١٢) - أصول الكافي ج ٢ ص ٩٩
(١٣) - الوسائل أبواب مقدمات العبادات ب ٥ ص ٣٣
(١٤) - نفس المصدر السابق ص ٣٩
(١٥) - أصول الكافي ج ١ ص ٣٣
(١٦)، (١٧) - أصول الكافي ج ١ ص ٤٤
(١٨) - الوسائل أبواب مقدمات العبادات ب ٥ ص ٣٣
(١٩) - في الرواية عن أبي عبد الله (ع): (لقي عباد البصري علي ابن الحسين (ع) في طريق مكة فقال له: يا علي تركت الجهاد وصعوبته وأقبلت على الحج ولينه ان الله عز وجل يقول: (ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بان لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله) الآية فقال علي ابن الحسين (ع) أتم الآية فقال: (التائبون العابدون)

الآية فقال علي بن الحسين (ع): إذا رأينا هؤلاء هذه صفتهم فالجهاد معهم أفضل من الحج) (الوسائل - أبواب جهاد العدو - ب ١٢) ص ٣٣

(٢٠) - في ظلال القرآن ج ٨ ص ٣٤١

(٢١) - في ظلال القرآن ج ٨ ص ٣٤١

{٩٦}

(٢٢) - الميزان م ١١ ص ٦٦ عن مجمع البيان

(٢٣) - سورة هود / ١٠٩ - ١١٥

(٢٤) - نعني بالمشاركة الوجدانية الشعور الجماعي بدلا عن الشعور الفردي.. أي الشعور ب (نحن) بدلا عن الشعور ب (انا) وينتج ذلك تداعي المؤمن للمؤمن في آلامه وأفراحه وأحزانه.. عن الصادق (ع): (المؤمن أخو المؤمن كالجسد الواحد ان اشتكى شئ منه وجد ألم ذلك في سائر جسده وأرواحهما من روح واحدة، وان روح المؤمن لأشد اتصالا بروح الله من اتصال شعاع الشمس بها) (الأصول ج ٢ - ص ١٦٦) وهذا يعني ان الصلة العاطفية بين المؤمنين نابعة من صلتهم العاطفية بالله تعالى.

(٢٥) - هود / ٢٩ - ٣٠

(٢٦) - آل عمران / ١٤٥ - ١٤٨

(٢٧) - آل عمران / ١٧٣

(٢٨) - طه ٧١ - ٧٣

(٢٩) - اخبار معرفة الرجال ص ٥٩١

(٣٠) - مقاتل الطالبيين ص ١٣٩

(٣١) - نفس المصدر ١٣٥

(٣٢) - أصول الكافي ج ٢ ص ٧٣

(٣٣) - نفس المصدر ص ٧٤

(٣٤) - نفس المصدر ص ٧٧

(٣٥) - نفس المصدر ج ٧ ص ٧٨

(٣٦) - نفس المصدر ج ٢ ص ٢٣٣

(٣٧) - نفس المصدر ج ٢ ص ٢٣٥

(٣٨) - سورة البقرة ١٨٣

(٣٩) - أصول الكافي ج ٢ ص ٧٦

(٤٠) - نفس المصدر ج ٢ ص ٧٩

(٤١) - أصول الكافي ج ٢ ص ٧٩

(٤٢) - أصول الكافي ج ٢ ص ٨٣

(٤٣) - ولعل الامامين العليين أمير المؤمنين (وعلي ابن الحسين (ع) كانا أكثر مبالغة وجهدا من باقي الأئمة (ع) في ذلك.. ففي خبر صحيح عن أبي عبد الله: (كان علي بن
الحسين (ع) إذا اخذ كتاب علي (ع) فنظر إليه قال: من يطيق ذا؟ من يطيق ذا، قال: ثم يعمل به وكان إذا قام إلى
{٩٧}
الصلاة تغير لونه حتى يعرف ذلك من وجهه وما أطاق عمل علي (ع) من ولده من بعده الا
علي بن الحسين (ع) ويؤكد هذا المعين اخبار أخرى (الوسائل - مقدمات العبادات - باب
٢٠ ص ٣) وفي بعضها انه دخل أبو جعفر (ع) على أبيه علي بن الحسين فإذا هو قد بلغ من
العبادة ما لم يبلغه أحد فرآه قد اصفر لونه من السهر ورمضت عيناه من البكاء ودبرت جبهته وانحرف أنفه من السجود ورمت ساقاه وقدماه من القيام في الصلاة: وقال أبو جعفر فلم أملك - حين رأيته بتلك الحال - البكاء فبكيت رحمة له فإذا هو يفكر فالتفت
إلي بعد هنيئة من دخولي فقال يا بني اعطني بعض تلك الصحف التي فيها عبادة علي بن
أبي طالب (ع) فأعطيته فقرأ فيها شيئا يسيرا ثم تركها من يده تضجرا وقال: (من يقوى على عبادة علي بن أبي طالب (ع)؟ باب ٢٠ ص ٦٨ الوسائل.
(٤٤) - الانسان وان كان يميل طبيعيا إلى التفكير الحسي الا انه قادر على تجاوز المعرفة الحسية.. فهذا وغيره من (القوانين الاقتضائية) وليس من (القوانين الحتمية).
(٤٥) - (زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والانعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن الثواب) (آل عمران).
(١) (ويدع الانسان بالشر دعاءه بالخير وكان الانسان عجولا) (الاسراء)
هوامش الفصل الثاني
(١) - قد يكون معنى البصيرة في مثل قوله تعالى (هذا بصائر وهدى ورحمة لعلهم يتذكرون) و (قل هذه سبيلي ادعو الله على بصيرة انا ومن اتبعني) هو الفكرة التي تشتمل
على عنصري.
(١) - الطابع العملي.. أو بالأحرى انها فكرة ذات عطاءات عملية.
(٢) - انها فكرة معايشة ومستحضرة فالبصيرة ترادف الوعي، أو الرؤى الفكرية.

(٢) - أصول الكافي ج ٢ ص ٥١
(٣) - أصول الكافي ج ٢ ص ٢٠
(٤) - أصول الكافي ج ٢ ص ٢٥
(٥) - أصول الكافي ج ٢ ص ٢٦
(٦) - أصول الكافي ج ٢ ص ٤٢٠
(٧) - أصول الكافي ج ٢ ص ٥١
(٨) - أصول الكافي ج ٢ ص ٥٣
(٩) - الحجرات / ١٥
(١٠) - الأحزاب / ٤١
(١١) - آل عمران ١٣٥

(١٢) - البقرة / ١٩٨
(١٣) - الأنفال / ٤٥
(١٤) - البقرة / ٤٦
(١٥) - الفرقان / ٧٣
(١٦) - السجدة / ١٥
(١٧) - الأعراف / ٢٠٥
(١٨) - أصول الكافي ج ٢ ص ٨
(١٩) - الرعد / ٢٨
(٢٠) - الفجر / ٢٩
(٢١) - المعارج / ٢٠ - ٢٢
(٢٢) - طه / ١٣
(٢٣) - غافر / ٥٥
(٢٤) - ق / ٣٩ - ٤٠
(٢٥) - التوبة / ٣٨
(٢٦) - يونس / ٢٤
(٢٧) - الرعد / ٣٦
(٢٨) - الكهف / ٤٥ - ٤٦
(٢٩) - العنكبوت / ٤٦
(٣٠) - المزمل ١٠ - ١٣
(٣١) - آل عمران ١٩٦ - ١٩٧
(٣٢) - المعارج ٥ - ١٠
(٣٣) - سورة الملك ٢

(٣٤) - نهج البلاغة نص رقم / ١١٨
(٣٥) - نفس المصدر نص رقم / ١١٥
(٣٦) - نفس المصدر نص رقم / ١٩٣
(٣٧) - آل عمران ١٩٦ - ١٩٧
(٣٨) - الحج / ٤٢ - ٤٦
(٣٩) - الحج / ٤٨
(٤٠) - القصص ٣٨ - ٤٠
{١٥٥}
(٤١) - القصص ٧٦ - ٧٨
(٤٢) - هود / ١١٣
(٤٣) - إبراهيم ١٣ - ٢٤
(٤٤) - البقرة ٢ - ٤
(٤٥) - البقرة / ١٣٦
(٤٦) - المؤمنون ٥١ - ٥٣
(٤٧) - النور / ٥٥
(٤٨) - الأنبياء / ١٠٥
(٤٩) - الروم / ٤٧
(٥٠) - النور / ٥٥
(٥١) - الأنبياء / ١٠٥
(٥٢) - حق اليقين - سيد عبد الله شبر ج ١ ص ٢٢٧ - ٢٢٨
(٥٣) - سورة ص / ١٧
(٥٤) - سورة ص / ٤١
(٥٥) - سورة ص / ٤٥ - ٤٩
(٥٦) - نهج البلاغة نص ٤٥
(٥٧) - الوسائل كتاب الامر بالمعروف والنهي عن المنكر م ٦ ص ٣٩٥

(٥٨) - آل عمران / ١٣٩
(٥٩) - المنافقون / ٨
(٦٠) - الوسائل كتاب الامر بالمعروف والنهي عن المنكر
(٦١) - الأنفال / ٧٢
(٦٢) - أصول الكافي ج ٢ ص ١٦٥ - ١٦٦
(٦٣) - نفس المصدر
(٦٤)، (٦٥) - أصول الكافي ج ٢ ص ٣١٣ - ٣١٤
(٦٦) - البقرة / ١٢٧
(٦٧) - سورة ص / ٢٤
(٦٨) - سورة ص / ٦٣
(٦٩) - الوسائل مقدمات العبادات ص ٧٩
هوامش الفصل الثالث
(١) - إعلام الورى للطبرسي ص ٩٧ - ٩٨
(٢) - نهج البلاغة نص رقم / ٤٨ تعليق صبحي الصالح
(٣) - البقرة / ٤٨
(٤) - سورة التوبة / ٢٤
(٥ و ٦) - الارشاد للشيخ المفيد ص ٣٣٧ - ٣٣٨
(٧) - الارشاد للشيخ المفيد ص ٣٣٨ - ٣٨٩
(٨) - أصول الكافي ج ٢ ص ١٢٥ - ١٢٧
(٩) - أصول الكافي ج ٢ موارد متفرقة
(١٠) - سورة الحديد / ١٦
(١١) - الوسائل جهاد النفس باب ١٢ ص ١٦٧ - ١٦٨
(١٢) - الوسائل جهاد النفس باب ١٣
(١٣) - أصول الكافي ج ٢ ص ٦٢
(١٤) - جامع السعادات ج ٣
(١٥) - الوسائل أبواب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر باب ١٣
(١٦) - من المناسب هنا ان نشير أولا إلى موقف الاسلام من الحياة الدنيا.. فان للاسلام ثلاثة مواقف من الدنيا موقف نظري، وموقف تشريعي، وموقف أخلاقي، ويتمثل
الموقف النظري في اعتبار الحياة الدنيا مرحلة من مراحل الحياة وليست كل الحياة (وما
الحياة الدنيا في الآخرة الا متاع) وفي كونها دارا للفتنة والمسؤولية يؤكد فيها الانسان ذاته واختباره بين الخير والشر (الذي خلق لكم الموت والحياة ليبلوكم أيكم

أحسن عملا وهو العزيز الغفور) وفي معانيها من مال، وبنين، ونساء.. نعما الهية تستحق الشكر والحمد والانفتاح النفسي، وفي كون العامل الدنيوي عاملا رئيسيا محركا في
{٢١٠}
التاريخ.. الخ.
واما الموقف التشريعي فيتمثل في السماح ويحث على استغلال الخيرات والنعم الإلهية انطلاقا من مفهوم الخلافة عن الله وفي تنظيم عملية استغلال النعمة بالشكل الذي ينسجم مع مصالح الانسان العامة ودور الانسان كعابد لله تعالى.
ويتمثل الموقف الأخلاقي في محاولة الاسلام تحرير الانسان المسلم من الأهواء والشهوات وحب الدنيا.
وبتقرير آخر لموقف الاسلام من الدنيا: ان للدنيا معاني ثلاثة وللاسلام من كل معنى وموقف.
(١) - الدنيا بمعنى الحياة المحدودة للانسان على وجه الأرض وينظر الاسلام إليها على
انها مرحلة من مراحل الحياة.. ومخلوقة من اجل الفتنة وتأكيد فعالية الانسان في الأرض ونعمة من نعم الله.
(٢) - الدنيا بمعنى الأشياء التي تقع محطا لأغراض الناس كالمال والبنين والنساء والقناطير المقنطرة وكذلك الأوضاع كالامن، والراحة، وما شاكل ذلك وهذه معان يؤمنها
التشريع الاسلامي للانسان ويشجعه على تناولها والسعي لها، وان كان يقوم بعملية تنظيم تشريعية من اجل تحديد هذا السعي وتنظيمه.
(٣) - الدنيا بمعنى الأهواء الباطلة وكل هوى غير رسالي وهذه الدنيا التي تحاول (الأخلاق) الاسلامية تطهير وجدان المسلم وتأمره بالاعراض عنها.
(١٧) - الوسائل جهاد النفس باب ٦٥ ص ٣١٩
(١٨) - أصول الكافي ج ٢ ص ٣٢٠
(١٩) - أصول الكافي ج ٢ ص ٢١٥
(٢٠) - الوسائل جهاد النفس باب ٦٢ ص ٣١٣
(٢١) - سورة الحديد / ٢٣
(٢٢) - أصول الكافي ج ٢ ص ٤٢٢ - ٤٢٣
(٢٣) - تحف العقول ص ٢٧٥
(٢٤) - سورة الحديد / ٢٨
(٢٥) - الوسائل مقدمات التجارة باب ٨
(٢٦) - الوسائل مقدمات التجارة باب ٧

(٢٧) - أصول الكافي ج ٢ ص ١٣٨
(٢٨) - الوسائل مقدمات التجارة باب ١٣
(٢٩) - سورة الفجر ٢٧ - ٣٠
(٣٠) - الفرقان / ٦٣

(٣١) - سورة التوبة / ١٢٠
(٣٢) - سورة البقرة / ١٥٤
(٣٣) - المعارج ١٩ - ٢١
(٣٤) - أصول الكافي ج ٢ ص ٣٠٤ - ٣٠٥
(٣٥) - أصول الكافي ج ١ ص ٣٣٣ - ٣٣٤
(٣٦) - سورة المائدة / ١٠٥
(٣٧) - سورة الحجر / ٩٧
(٣٨) - سورة النحل ١٢٧ - ١٢٨
(٣٩) - سورة الشعراء / ٣
(٤٠) - في الخبر عن أبي عبد الله (ع): (ان الله بعث ملكين إلى أهل مدينة ليقلباها على أهلها، فلما انتهيا إلى المدينة، وجدا فيها رجلا يدعو، ويتضرع.. إلى أن قال: فعاد أحدهما إلى الله فقال: يا رب اني انتهيت إلى المدينة، فوجدت عبدك فلانا يدعوك، ويتضرع إليك، فقال امض كما أمرتك به فان ذا رجل لم يتمعر - أي يبدي - وجهه
غيظا لي قط: (الوسائل أبواب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ب ٦).
وعن أبي جعفر (ع) أوحى الله إلى شعيب النبي (ع) (اني معذب من قومك مئة الف: أربعين
ألفا من شرارهم وستين ألفا من خيارهم فقال يا رب هؤلاء الأشرار، فما بال الأخيار ؟ فأوحى الله عز وجل إليه: داهنوا أهل المعاصي، ولم يغضبوا لغضبي (الوسائل كتاب الامر بالمعروف والنهي عن المنكر ب ٨).
وعن علي بن الحسين (ع) (قال: قال موسى بن عمران: يا رب من أولئك الذين تظلهم في
ظل عرشك يوم لا ظل الا ظلك؟ فأوحى الله إليه، الطاهرة قلوبهم والبرية أيديهم الذين يذكرون جلالي ذكر آبائهم إلى أن قال: (والذين يغضبون لمحارمي إذا استحلت مثل النمر
إذا جرح (الوسائل كتاب الامر بالمعروف والنهي عن المنكر ب ٨)
(٤١) - الوسائل أبواب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ص ٣٤
(٤٢) - أصول الكافي ج ٢ ص ١١٩

(٤٣) - الأنبياء

هوامش الفصل الرابع

(١) - لله سبحانه إرادتان: إرادة تتعلق بذات الفعل والحدث، وهذه هي الإرادة التكوينية، ومن هنا (إذا أراد الله شيئا قال له كن فيكون)، وإرادة تتعلق بفعل الانسان، على أن يصدر باختياره وحريته، وهي الإرادة التشريعية، كإرادة الصلاة والصوم، وترك شرب الخمر.

(٢) - سورة البقرة / ١٤

(٣) - سورة المنافقون / ١

(٤) - سورة البقرة / ٢١

(٥) - سورة النساء: ١٣ - ١٤

(٦) - سورة الأحزاب / ٣٦

(٧) - سورة التوبة / ٥٢

(٨) - سورة المطففين / ١٤

(٩) - أصول الكافي ج ٢ ص ٧٤

{٢٨٠}

(١٠) - أصول الكافي ج ٢ ص ٢٣٢

(١١) - سورة الأنعام / ٤٨

(١٢) - سورة النحل / ٣٥

(١٣) - أصول الكافي ج ٢ ص ٢٨٧

(١٤) - سورة آل عمران / ١٦٥

(١٥) - سورة الحج / ١١

(١٦) - سورة الأعراف / ١٣١

(١٧) - سورة الروم / ٣٦

(١٨) - سورة الشورى / ٤٨

(١٩) - سورة البقرة / ١٥٦

(٢٠) - سورة آل عمران / ١٥٣

(٢١) - سورة آل عمران / ١٤٦

(٢٢) - سورة الحج / ٣٥

(٢٣) - سورة الشورى / ٢٦

(٢٤) - سورة البقرة / ١٧٧

(٢٥) - سورة التوبة / ٥١

(٢٦) - سورة الأنعام / ٤٢

(٢٧) - سورة آل عمران / ١٧٣

(٢٨) - أصول الكافي ج ٢ باب ابتلاء المؤمنين
(٢٩) - سورة آل عمران / ١٤٦
(٣٠) - سورة طه / ١٣٢
(٣١ - ٣٢) - أصول الكافي ج ٢ ص ٣٥٧ - ٣٥٨
(٣٣) - سورة الحجرات / ١٢
(٣٤) - سورة البقرة / ٦١
(٣٥) - سورة الإسراء ٧٣، ٧٤، ٧٥
(٣٦) - في ظلال القرآن الشهيد سيد قطب م ٥ ص ٣٥١ وما بعدها
(٣٧) - سورة الإسراء / ٧٩
(٣٨) - سورة البقرة / ١٢٧
(٣٩) - سورة إبراهيم / ١٢
{٢٨١}
(٤٠) - سورة يونس / ٨٤
(٤١) - سورة المائدة / ٢٣
(٤٢) - سورة النساء / ٨١
(٤٣) - سورة الأحزاب / ٤١
(٤٤) - سورة آل عمران / ١٦٠
(٤٥) - سورة يونس / ٨٤
(٤٦) - سورة المائدة ٢١ - ٢٢
(٤٧) -
(٤٨) - سورة يونس / ٧١
(٤٩) - سورة آل عمران / ١٣٣
(٥٠) - سورة يونس ٨٣ - ٨٦
(٥١) - سورة إبراهيم ١١ - ١٢
(٥٢) - سورة آل عمران / ١٥٩
هوامش الفصل الخامس
(١) - سورة الذاريات ١٥ - ١٨
(٢) - سورة الانسان / ٢٥
(٣) - الوسائل بقية الصلوات المندوبة باب ٣٩ و ٤٠
(٤) - في ظلال القرآن سيد قطب م ٨ ص ٣٤٧
(٥) - أصول الكافي ج ٢ ص ٤٩٩
(٦) - الوسائل أبواب الذكر من كتاب الصلاة باب ١٤
(٧) - نفس المصدر ص ٥٠١

(٨) - نفس المصدر ص ٥٠٢
(٩) - أصول الكافي ج ٢ ص ٤٩٩
(١٠) - الوسائل أبواب الذكر
(١١) - البيان من تفسير القرآن للسيد الخوئي ص ٢٦ - ٢٧
(١٢) - المرجع السابق ص ٢٩ - ٣٠
(١٣) - هذا مع أنهم (الأئمة) يفعلون العكس ويقولون (ما خالف كتاب الله فهو زخرف لم
نقله) و (ما جائكم عني يخالف كتاب الله فلم أقله)، و (وكل شئ لا يوافق كتاب الله فهو
زخرف) و (وما وافق كتاب الله فخذوه، وما خالف كتاب الله فدعوه)
(١٤) - الوسائل احكام المساجد باب ٣
(١٥) - الوسائل أبواب المزار من كتاب الحج باب ٢ و ٢٥ و ٣٧ و ٣٨
(١٦) - أصول الكافي ج ٢ ص ٦٤٢
(١٧) - أصول الكافي ج ٢ ص ٦٤
(١٨) - أصول الكافي ج ٢ ص ١٧٥ - ١٧٩ وص ١٨٦ - ١٨٧
(١٩) - سورة آل عمران / ٧٩
(٢٠) - سورة الحشر / ١٣
(٢١) - الوسائل جهاد النفس ج ٦ ص ٣٧٩ - ٣٨٠
(٢٢) - الوسائل باب من كتاب الاعتكاف
(٢٣) - مما يؤسف له ان هذا الموضوع قد سقط من الكتاب من خلال نقله من العراق إلى
الكويت إلى إيران.